تحفة الكبار
في
أسفار البحار

اسم الكتاب: تحفة الكبار في أسفار البحار

تصنيف: حاجي خليفة

تحقيق وترجمة: الدكتور/ محمد حرب - الدكتورة/ تسنيم حرب

عدد الصفحات: 295 صفحة

عدد الملازم: 18.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 17 × 24

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ؟؟؟؟ / 2016

الترقيم الدولي: ؟؟ - ؟؟ - 278 - 977 - 978

للثقافة والعلوم

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

1438 هـ

2017م

تحفة الكبار
في
أسفار البحار

تصنيف

حاجي خليفة

تحقيق وترجمة

الدكتور/ محمد حرب

الدكتورة/ تسنيم حرب

دار البشير للثقافة والعلوم

المقدمة

"كاتب جلبي" الشهير بـ"حاجي خليفة" (1017 – 1067هـ/ 1609م – 1656م) هو أحد أشهر العلماء العثمانيين، كانت كتاباته هي السمة البارزة في دنيا العلم والفكر والثقافة في القرن السابع عشر. فهو مؤرخ وجغرافي، وببليوجرافي، وصاحب فكر إصلاحي في النواحي السياسية والاجتماعية، والدينية أيضًا.

لقي حاجي خليفة شهرة واسعة في الدولة العثمانية، وفي أوربا، وشهرته في العالم العربي ما تزال مستمرة إلى يومنا هذا، فقد كتب مؤلفاته باللغتين العربية والتركية القديمة "العثمانية"، وترجمت إلى العديد من اللغات الأوروبية.

ولعل شهرته كببليوجرافي في العالم العربي جاءت من كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" الذي كتبه بالعربية كموسوعة ببليوجرافية للكتب والرسائل والمخطوطات في المكتبات، التي زارها في أنحاء ولايات الدولة العثمانية.

أما شهرته كجغرافي، فقد اكتسبها من كتابه "جهاننما" الذي اعتبره دارسو "كاتب جلبي" بداية عهد جديد في الفكر الجغرافي العثماني؛ بل إنه قد ترجم إلى الكثير من اللغات الأوروبية؛ حيث صار مرجعًا أساسيًّا للرحالة الأوروبيين في رحلاتهم إلى آسيا الوسطى، وفتح الباب أمام شريحة عريضة من المثقفين الأتراك لوضع مؤلفات جديدة في الجغرافيا، وكان كتاب "جهاننما" بمثابة طوق النجاة من ضيق الأفق الفكري في المجال الجغرافي.

و"كاتب جلبي" المؤرخ كان أكثر غزارة، وتنوعًا في إنتاجه الذي كتبه باللغتين العربية والتركية، وما ترجمه أيضًا من كتب التاريخ الأوروبي من اللغة اللاتينية بمساعدة راهب فرنسي أعلن إسلامه، وتسمى بـ"شيخ محمد الإخلاصي"، وله كتاب "فذلكة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار"، وهو باللغة العربية، ويسمى أيضًا "فذلكة التواريخ"، أو "فذلكة"، وللكتاب تكملة أو ذيل له بالتركية يحمل أيضًا اسم "فذلكة"، وفي فن التراجم له أيضًا موسوعة كبيرة بالعربية هي "سلم الوصول إلى طبقات الفحول".

وهو أيضا كمؤرخ، شاهد عيان لكثير من الأحداث التي عاصرها، والحملات التي شارك فيها مصاحبا للجيش وكتب عنها.

أما كتابه " تحفة الكبار في أسفار البحار" الذي يصنف ضمن كتب التاريخ، فبعض مؤرخي أدبيات العلوم يصنفونه أيضًا ضمن كتب الجغرافيا؛ كدليل بري وبحري، وكذلك ضمن كتب الفكر الإصلاحي لما تضمنه من وصايا عقب وصف كل حملة حربية، وأيضًا في نهاية الكتاب.

ويبرز دور حاجي خليفة كصاحب فكر إصلاحي في النواحي السياسية، والاجتماعية والدينية، في كتابين آخرين له؛ هما: "دستور العمل في إصلاح الخلل"، و"ميزان الحق في اختيار الأحق" ونبشر القراء أننا انتهينا من ترجمته وهو في سبيله إلى الطباعة قريبا إن شاء الله.

فكتاب "دستور العمل" هو رسالة كتبها متبنيًا نظريات ابن خلدون في التاريخ وصيرورة الدول، ووضع الكتاب ليستفيد منه وزراء الدولة بعدما عقد اجتماع في الديوان الهمايوني لبحث كيفية مواجهة الأزمة المالية وعجز ميزانية الدولة، وغيرها من المشكلات التي شخصها حاجي خليفة، وبيَّن أسبابها وجذورها، وبيَّن كيفية علاجها.

وخاتمة أعمال "كاتب جلبي" هو كتاب "ميزان الحق" الذي يمكننا اعتبار بعض فصوله ضمن "فلسفة التاريخ"، وفصوله الأخرى وضعها المؤلف منتهجًا طريق الوسطية والاعتدال ليقدم القول الفصل في بعض القضايا الخلافية التاريخية، والعقائدية، والاجتماعية، والإدارية، والسياسية أيضًا.

لم ينس " كاتب جلبي" الأدب، ولم يهمل الأشعار والأمثال والحكم؛ بل وضع في ذلك كتابًا هو "تحفة الأخيار في الحكم والأمثال والأشعار"؛ ليضيف إلى ميزاته ككاتب عمل موسوعي آخر، ويليه كتاب "جامع المتون من جل الفنون".

وبخلاف ما ذكرناه من كتب في المجالات الأساسية التي برز فيها واشتهر "حاجي خليفة"، أو "كاتب جلبي"، هناك العديد من المؤلفات في التاريخ الجغرافيا، والببليوجرافيا، والفكر، كذلك في القانون، وعلم الهيئة "الفلك"، والتفسير، والفقه، والجبر، والمقابلة.

بعضها لم يكمله، وبعضها فُقد، والبعض الآخر وصل إلينا، ومنتشر في مكتبات المخطوطات في استانبول، ينتظر جهود الباحثين لتحقيقه.

والكتاب الذي بين يدي القارئ الآن "تحفة الكبار في أسفار البحار" ألفه حاجي خليفة باللغة التركية عقب الإخفاقات المتوالية التي مُني بها الأسطول العثماني في حملة كريت، التي بدأت سنة 1055هـ/ 1646م، وما بعدها من حملات، وكانت هذه الإخفاقات ذات الأسباب الكثيرة، لها أثر سلبي انعكس على جميع المؤسسات العثمانية، وقد عايش المؤلف هذه المعاناة، فأراد أن يشارك في الإصلاح، ويرفع الروح المعنوية، فوضع ذلك الكتاب الذي تناول بعضًا من أمجاد التاريخ البحري العثماني وانتصاراته، ومحللًا لأسباب إخفاقات ذلك الأسطول في الوقت الحاضر، ومبينًا التدابير الواجبة لاتخاذها في علاج هذا الخلل، ومواجهة التدهور الحاصل في الأسطول العثماني، واستفاض في تقديم معلومات جغرافية وملاحية، وتاريخية، وبحرية. وختم كتابه بفصل هو نصائح للبحارة والمهتمين بشئون البحر.

قسم المؤلف كتابه "تحفة الكبار" إلى مقدمة، وجزئين، وخاتمة. في المقدمة ساق معلومات حول جغرافية الممالك الأوروبية المحيطة بالدولة العثمانية وسواحلها، وغيرها من الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وبعضًا من تاريخ هذه الدول؛ لاسيما بلاد الأرناؤوط، وإيطاليا، وفرنسا، وأسبانيا.

والجزء الأول من الكتاب قسمه بدوره إلى تسعة أقسام، تناول فيها تاريخ الحملات البحرية العثمانية، وانتصاراتها، وقادتها، وربابنتها وبطولاتهم؛ وصولًا إلى حملة كريت ومشكلاتها.

ثم الجزء الثاني من الكتاب، والذي قسم أيضًا إلى سبعة أقسام تناول فيها:

أحوال الأشخاص الآخرين في الترسانة والجنود المقيدين بحكم الربابنة وأنواعهم، خروج الأسطول إلى البحر للحملة وفقًا للنظم والقوانين، ثم يعرف المعركة البحرية وفق القوانين، وقسم عن أنواع سفن الأسطول المختلفة ورجاله، وسادس الأقسام حول المستلزمات الضرورية لإنشاء الأسطول، والنفقات اللازمة لإنشائه

ثم يختم الكتاب بأربعين نصيحة للبحارة، تليها "كلمة أخيرة".

صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة 1141هـ / 1729م باللغة العثمانية في مطبعة "إبراهيم متفرقة" أولى المطابع الرسمية العثمانية، وكان ثاني كتاب يطبع فيها. ثم كانت طبعته

الثانية باللغة العثمانية – أيضًا – سنة 1329هـ/ 1913م في المطبعة البحرية باستانبول.

كما ترجم الكتاب إلى الإنجليزية، والفرنسية، والعديد من اللغات الأوروبية.

والحمد لله الذي وفقنا إلى تقديم أول ترجمة وطبعة له باللغة العربية؛ لنضيف إلى المكتبة العربية مصدرًا أساسيًّا ومهمًّا من مصادر التاريخ والحضارة العثمانية التي هي جزء أساسي من تراثنا وتاريخنا، ومكوّن أساسي من مكونات واقعنا المعاصر.

ولا يفوتني في النهاية أن أتقدم بجزيل الشكر لابني البار وتلميذي النجيب الدكتور أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، على جهوده المخلصة وتعاونه البناء في إخراج هذه الكتاب، ومراجعته، وإعداده للطباعة.

محمد حرب

مستشار جامعة صباح الدين زعيم

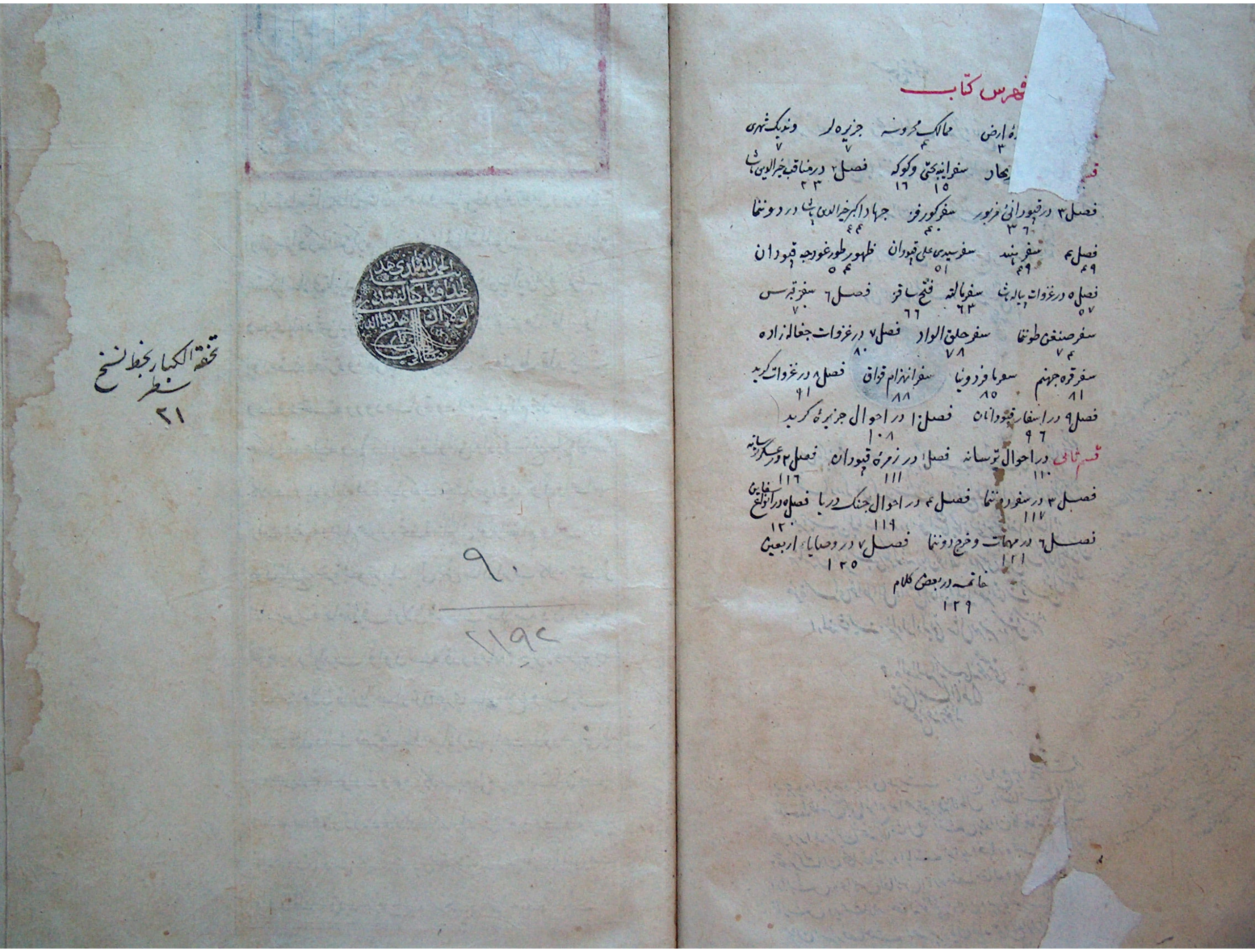
استانبول

2016/6/21م

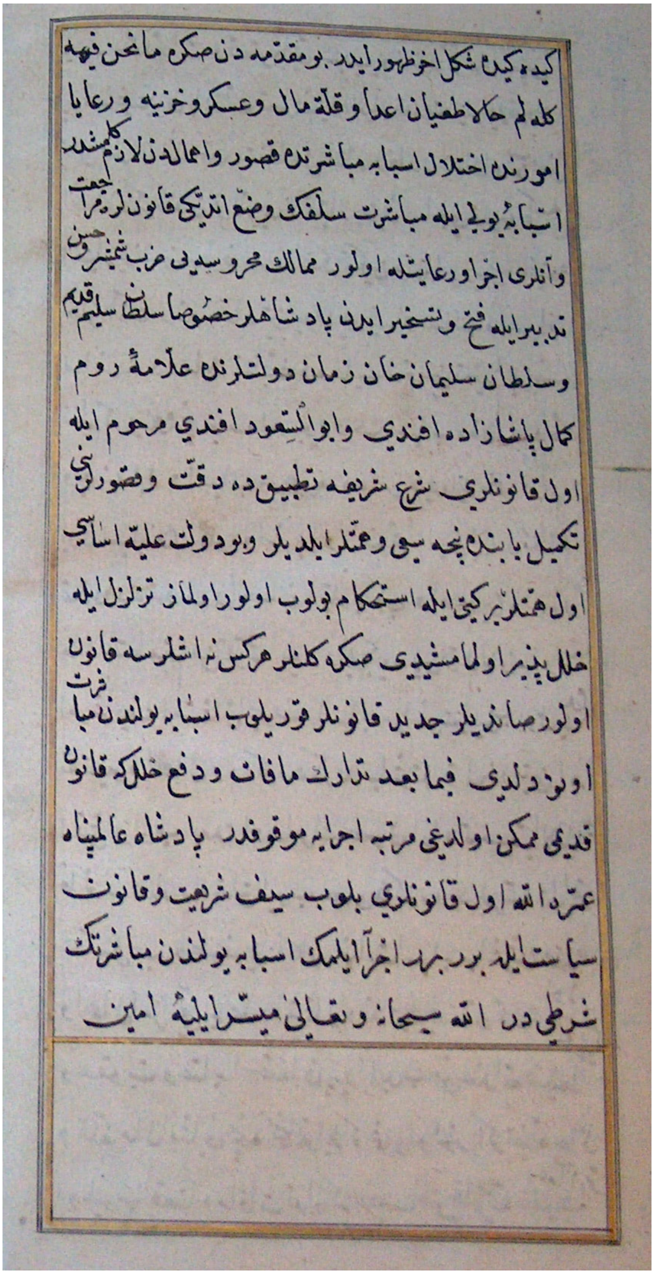
اللوحة الأولى من المخطوط



صفحة الفهرس

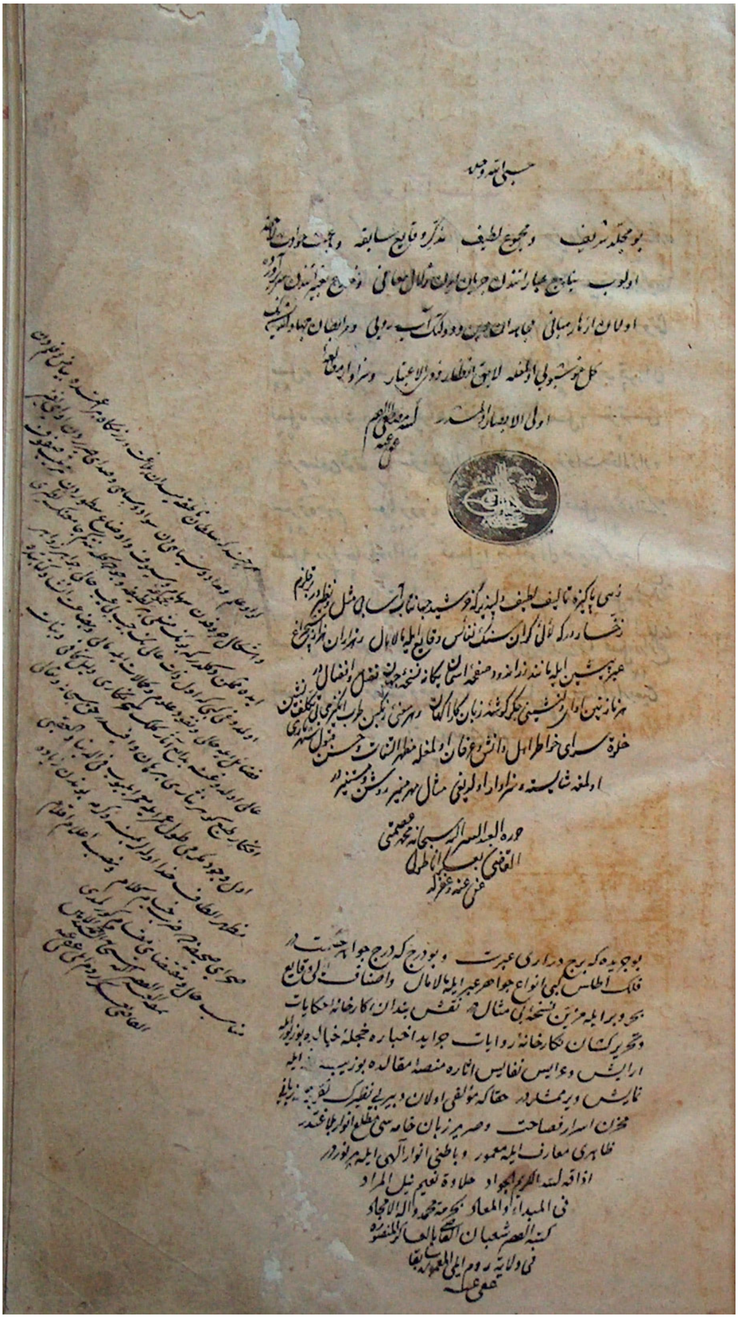


الصفحة الأخيرة من المتن



كيدرك كيدرك شكل اخر ظهور ايدر. بو مقدمه دن صكره ما نحن فيه
كلدكم حالا طغيان اعدا و قلت مال و عسكر و خزينه و رعايا
امورنده اختلال اسبابي مباشرتده قصور و اهمالدن لازم كلمشدر
اسبابي بويله ايله مباشرت سلفك وضع اتديكي قانونلره مراجعت
و آنلري اجرا و رعايتله اولور ممالك محروسه‌نك حزب شمشير و حسن
تدبير ايله فتح و تسخير ايدن پادشاهلر خصوصا سلطان سليم قديم
و سلطان سليمان خان زمان دولتلرنده علامهٔ روم
كمال پاشازاده افندي و ابو السعود افندي مرحوم ايله
اول قانونلري شرع شريفه تطبيقده دقت و قصورلريني
تكميل يا بنده بنجه سعي و همت ايلديلر و بو دولت عليه اساسي
اول همتلر بركتي ايله استحكام بولوب اولور اولماز تزلزل ايله
خلل پذير اولمامشيدي صكره كلنلر هركس نه اشلرسه قانون
اولور صانديلر جديد قانونلر قوريلوب اسبابي بولندن مباشرت
اونودلدي فيما بعد تدارك ما فات و دفع خلل كه قانون
قديمي ممكن اولديغي مرتبه اجراسنه موقوفدر پادشاه عالمپناه
عمره الله اول قانونلري بلوب سيف شريعت و قانون
سياست ايله بور بره اجرا ايلمك اسبابي بولندن مباشرتك
شرطيدر الله سبحانه و تعالى ميسر ايليه امين

الصفحة الأخيرة من المخطوط



حاجي خليفة

حياته- شخصيته- آثاره - فكره

إن لحاجي خليفة مكانة متميزة في تاريخ الفكر العثماني في القرن السابع عشر. كان حاجي خليفة من أكبر الجغرافيين والببليوجرافيين في تاريخ العلم التركي في العهد العثماني. وهو المعروف عند العثمانيين بحاجي خليفة وكاتب جلبي، وعند الغرب بحاجي كلفه.

كان حاجي خليفة هو السمة البارزة، والممثل الأقوى للفكر الحر، والدفاع عن العلوم العقلية في عالم المعرفة التركي في القرن السابع عشر، وقد لفت الانتباه والاهتمام الكبير عندنا، وفي أوروبا بأعماله الكثيرة.

عاش في عهد السلطان مصطفى الثاني والسلطان مراد الرابع، وعايش أزمات الدولة، واشترك في حملات شرق الأناضول، ولم يتمكن من الاشتراك في حملة بغداد بسبب مرضه. بعد ذلك شغل نفسه تمامًا بالعلم.

حياته الأولى:

لقد استطعنا أن نُكوّن فكرة عن حياة حاجي خليفة من خلال المعلومات التي أوردها في كتابه "سلم الوصول إلى طبقات الفحول"[1]، وكتابه "ميزان الحق في اختيار الأحق"[2]، وبخلاف المعلومات الواردة في الكتابين المذكورين، أورد حاجي خليفة بعض المعلومات القليلة عن حياته في مؤلفاته الأخرى، وسنجد في النهاية معلومات مطمئنة عن حياته.

اسمه الأصلي مصطفى، ووالده عبد الله. لم يلجأ حاجي خليفة إلى العنعنة في ذكر نسبه، بل اكتفى بذكر اسم والده فقط، وقد اشتُهر بين العلماء باسم حاجي خليفة، أما بين أهل الديوان اشتهر بكاتب جلبي.

---

(1) انظر: مكتبة شهيد علي باشا، استانبول، رقم 1877، ص 271

(2) انظر: منشورات أبو الضيا، استانبول 1306، ص 129

وعلى حسب ما ذكرته والدته، فقد ولد في استانبول في شهر ذي القعدة عام 1017هـ (فبراير 1609م). وكانت إقامته في استانبول أيضًا (القسطنطيني المولد والدار). كان والده من موظفي الأندرون، ثم خرج من القصر ليلتحق بزمرة أهل السلاح، وكان يخرج إلى الحملات بسبب تلك الوظيفة. كان رجلًا متدينًا، يداوم على مجالس العلماء والمشايخ، أما ليله فيقضيه في العبادة.

وعندما بلغ حاجي خليفة الخامسة أو السادسة من عمره، عهد به والده إلى الإمام عيسى القرمي ليعلمه القرآن والتجويد. قرأ حاجي خليفة القرآن على يد الإمام المذكور، وتعلم منه أصول التجويد من كتاب مقدمة الجزرية، كما تعلم شروط الصلاة، ثم عقد له الإمام امتحانًا في دار قراء مسيح باشا.

بعد ذلك، درس حاجي خليفة على يد زكريا علي إبراهيم أفندي، ونفس زاده[1]. ثم درس علم التصريف والعوامل على يد إلياس خوجه، كما درس علم الخط على يد الخطاط المشهور بوكرو أحمد جلبي[2]. وعندما بلغ حاجي خليفة الرابعة عشر من عمره، خصص له والده مبلغ 14 درهمًا من راتبه؛ لتكون مصاريف له، وأخذه إلى جانبه في الديوان، وبذلك أصبح حاجي خليفة مساعدًا (صبيًّا) في قلم محاسبات الأناضول، أحد أقلام الديوان. وتعلم على يد أحد الكتاب الموجودين هناك قواعد الحساب، وخط السياقت والأرقام.

حاجي خليفة ومشاركاته في الحملات العسكرية:

وعندما خرج الجيش من استانبول؛ لإخماد ثورة محمد باشا أباظة عام 1623 – 1624م، خرج كاتب جلب مع والده في حملة ترجان؛ حيث كان في هذا التاريخ في فرقة السلاحدار، وأثناء اشتداد الحرب مع أباظة بالقرب من قيصرية وجد حاجي خليفة الفرصة سانحة له لأن يطّلع على المعركة من مكان مرتفع (22 ذو القعدة 1033هـ)، وقد شرح تلك الأحداث في كتابه فذلكه؛ حيث قال في وصفها:

(كان الفقير مستعدًّا في ذلك المكان، وكأني أرى الآن منظر الوزير الأعظم طبان ياصي

(1) انظر: فذلكه، ج 1، ص 94؛ زيل الشقائق، 458؛ مستقيم زاده، مجلة النشاب، مكتبة حالت أفندي، رقم 628، ص 426 ب

(2) انظر: أحمد أحدب، نفس المؤلف، تحفة الخطاطين، نشر أنجمن تاريخ عثماني، ص 98

محمد باشا، وهو يرتدي الطرة ذات النجمة الذهبية، وكأني أسمع صوت صليل رمحه)[1].

وفي عام 1035هـ الموافق 1625م، اشترك في حملة بغداد، وفي يوم الثاني عشر من شهر رمضان من نفس العام، شاهد المعركة من على برج مرتفع خلف فرقة السلاحدارية. وشارك في الحصار الذي استمر تسعة أشهر، وشاهد كل تفاصيل المعركة، ويروي تفاصيل عودة الجنود بعد أن فشلوا في إنهاء المعركة بسبب القحط الذي تفشى، وأن الجنود فقدوا الأمل في النصر بعد أن عانوا كثيرًا، خلال تلك الفترة يقول: (إن المشقة التي عانها جنود الإسلام في هذا الطريق لم تكن في هذا التاريخ)[2].

وأثناء عودة الجيش توفي والد حاجي خليفة في الموصل في ذي القعدة عام 1035هـ، ودُفن في الجبانة الموجودة بالقرب من الجامع الكبير. وبعدها بشهر، توفي عمه في منزل جراحلو القريب من نصيبين. لذا اتجه حاجي خليفة إلى ديار بكر مع أحد أقاربه، وأقام هناك مدة، وقام شخص يدعى محمد خليفة من أصدقاء والده بتعيينه في منصب (مقابلة الخيالة).

وفي عام 1037هـ، عاد إلى استانبول، وداوم على دروس قاضي زاده، وشارك في حصار أرضروم، ولاقى مشقة كبيرة أثناء عودته إلى طوقاد بعد هذا الحصار القاسي، الذي استمر سبعين يومًا بدون أية نتيجة، ويذكر حاجي خليفة عن هذا الحادث الأليم ما يلي: (لقد تعرض الجيش لمشقة وآلام كثيرة في تلك المحنة، التي لم يُر مثلها في التاريخ، فقد تجمدت أيدي وأرجل الكثير من الجنود، وقطعت، هذا بخلاف من توفي من شدة البرد)[3].

وفي عام 1038هـ، وفد إلى استانبول لفترة، وداوم على دروس قاضي زاده، الذي أثر كثيرًا على حاجي خليفة. ومن ثم بدأ في مذاكرة العلوم العالية، وظل حاجي خليفة يداوم على الاستماع لدروس قاضي زاده، حتى خروج خسرو باشا للحملة من جديد[4].

---

(1) في المجلد الثاني، ص 54

(2) سلم الوصول، نفس المكان

(3) فذلكه، ج2، ص 100

(4) ميزان الحق، نشر أبو الضيا، ص 130

وفي عام 1039هـ، اشترك في حملة بغداد وهمدان مع خسرو باشا، وقد شرح في كتابه جهاننما[1]. وفي كتابه فذلكه[2] ما تعرضوا له أثناء تلك الحملة، والمدن والقلاع التي فتحوها مثل قلعة كول عنبر، وبيستون، وحسن أباد، وهمدان. وعندما نزل خسرو باشا بالجيش إلى بغداد عام 1040هـ بعد حملة همدان، كان حاجي خليفة معه، وقد تناول في كتابه "فذلكه" تفاصيل حصار بغداد، الذي بدأ في 22 صفر عام 1040هـ؛ حيث يقول: (صدرت الأوامر بأن يتحصن كل فرد في الجيش خلف المتاريس، فقام كل فرد بإزالة خيمته، ووضع المتاريس بدلًا منها، وحُفرت الخنادق أمام المتاريس) [3].

دروس قاضي زاده:

وفي عام 1041هـ، عاد حاجي خليفة مرة أخرى إلى استانبول، وداوم من جديد على دروس قاضي زاده، فقرأ عليه كتاب التفسير وإحياء علوم الدين، وشرح المواقف والدرر، والطريقة المحمدية. وعندما ذهب مع الجيش بقيادة محمد باشا الوزير الأعظم إلى حلب عام 1043هـ، ذهب حاجي خليفة من هناك - أي من حلب - إلى الحجاز. وبعد أن زار مكة، غادرها. وفي الطريق، تقابل في ديار بكر مع الجيش الذي كان يقضي الشتاء هناك، وأثناء إقامته في ديار بكر كان يتباحث ويتناقش مع العلماء الموجودين هناك. وفي عام 1044هـ، ذهب مع السلطان مراد الرابع إلى حملة روان. وقد شرح بالتفصيل ما رآه في تلك الحملة[4].

حاجي خليفة والتفرغ للعلم:

وبعد أن أتم حاجي خليفة الحملات والغزوات، وأتم ما عليه من فريضة الحج، نوى العودة إلى استانبول؛ ليكرس حياته للعلم الشريف. واشترى بكل الأموال التي ورثها كتبًا. وبدأ في تدوين أسماء الكتب التي رآها في حوانيت الكتب عندما كان في حلب، وكان لحاجي خليفة شغفًا زائدًا بكتب التاريخ والتراجم والطبقات، فأتم قراءتها كلها في عام 1046هـ.

---

(1) نشر متفرقة، ص 300 - 302 - 303

(2) ج2، ص 118

(3) فذلكه، ج2، ص 128

(4) فذلكه/ ج2، 164

وفي عام 1047هـ، توفي أحد أقاربه الأثرياء، فورث عنه عدة أحمال من الأقجات، اشترى بثلاثة منها كتب، وبالأموال المتبقية رمَّم منزله الواقع بين جامع الفاتح وجامع السلطان سليم في الناحية اليسرى لجامع الفاتح[1].

كما تزوج في نفس العام، ولم يشترك مع السلطان مراد الرابع في حملة بغداد؛ بسبب نيته في إكمال بقية عمره في المطالعة والتأليف، واستمع لدروس مصطفى أفندي الأعرج المشهور بفضله وإحاطته[2] فاتخذه معلمًا له، وهو أيضًا أعطى لكاتب جبلي اهتمامًا أكثر من بقية تلاميذه. وقد أمره مصطفى أفندي بأن يقرأ كتب الأندلسية في العروض، وهداية الحكمة حتى الباب الرابع، وملخص الهيئة وشرحها، وأشكال التأسيس[3].

وفي عام 1049هـ، درس على يد عبد الله الكردي بآيا صوفيا. وفي عام 1050هـ، درس على يد كجي محمد أفندي في جامع السليمانية[4].

وفي عام 1052هـ، قرأ كتاب نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر للعسقلاني على يد واعظ ولي أفندي. كما بدأ دروس النخبة والألفية على نفس الشيخ. وفي غضون عامين، أتم أصول الحديث [5].

كما قرأ حاجي خليفة كتاب تلخيص المفتاح على يد المولا ولي الدين مفتي أرمنآق، وكتاب الفرائض للإمام سراج الدين محمد، وكتاب الشمسية الخاص بعلم المنطق لكاتبي. كما شارك حاجي خليفة في دروس الشيخ سري الدين أبو الرضا المصري الذي وفد إلى استانبول عام 1057هـ [6].

ظل حاجي خليفة يقرأ الكتب، ويدرس طيلة عشر سنوات ليل نهار دون أن يمل أو يصيبه الكلل. وخلال تلك الفترة كان يأتيه الطلاب لينهلوا من علمه. وفي عام 1055هـ، قرأ الكتب

(1) انظر: كشف الظنون، نسخة مخطوطة مكتبة تقي الدين أفندي، رقم 1619

(2) انظر: فذلكه، ج2، 392

(3) (انظر جامع المتون، طوب قابي سرايي، خزينة الأمانات، رقم 1763)

(4) انظر: فذلكه، ج2، ص 238

(5) انظر: فذلكه، ج2، ص 136؛ ميزان الحق، ص 136

(6) انظر: سلم الوصول، ص 235 أ

التي تتناول علم الخرائط، وذلك بمناسبة خروج الجيش لحملة كريت في نفس العام. وفي تلك الأثناء، ساءت العلاقات بينه وبين رئيس كتّاب المقابلة؛ الأمر الذي جعله يقدم استقالته من هذه الوظيفة. بعد ذلك عاش حاجي خليفة مدة ثلاث سنوات منزويًا بعيدًا عن حياة الوظيفة. ومرض في تلك الأثناء؛ فقرأ كتب علم الطب، وخاصة كتب الأسماء والخواص، وذلك لإيجاد علاج لنفسه من ناحية، ومعرفة تلك العلوم من ناحية أخرى، فابتعد عن الناس وتقرب إلى الله؛ لأنه كان يثق بأن الشفاء سيكون بالدعاء الخارج من القلب الطاهر[1].

وفي عام 1057هـ، درّس كتاب شرح الأشكال في الهندسة وكتاب المحمدية لعلي قوجي في الحساب لمولانا محمد بن أحمد الرومي، كما اكتشف قاعدة استخراج التقويم من الزيج. وفي عام 1058هـ، كتب حاجي خليفة كتاب تقويم التواريخ، وبسببه توسط له شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي لدى الصدر الأعظم قوجه محمد باشا؛ ليعينه في منصب (رؤوس الكاتب الثاني) بالرغم من معارضة كاتب جبلي لهذا الأمر[2].

فقد كان عبد الرحيم أفندي هذا صديقه المقرب وكاتم أسراره، فكان يتحدث معه في شؤون الدولة، وكان يستشيره في الأمور المختلفة[3]. حتى أنه أصدر فتوى بأن كتاب ميزان الحق لحاجي خليفة كتاب مفيد.

كان حاجي خليفة يقنع بما لديه من مال، ولا يطلب المزيد منه، فهو يقنع بالقدر الذي يعينه على متطلبات الحياة فقط.

ألّف حاجي خليفة العديد من مؤلفاته في السنوات الأخيرة من عمره، كما ترجم بعض المؤلفات اللاتينية إلى اللغة التركية بمساعدة الشيخ محمد الإخلاصي.

وفاته:

وفي صباح يوم السبت، الموافق السابع والعشرين من شهر ذي الحجة لعام 1067هـ، كان يشرب القهوة، فشعر بالتعب وسقط الفنجان من يده، ومات فجأة. وقد أخبر حاجي خليفة في قبيل وفاته زوجتَه بأنه يشعر بالخوف من البطيخ الخام الذي تناوله

(1) انظر: كشف الظنون، نشر شرف الدين يالجين قايا، علم الخواص، ج1، 725

(2) انظر تقويم التواريخ، نشر متفرقة، ص 247؛ ميزان الحق، ص 140

(3) انظر: فذلكه، 293؛ تحفة الكبار، استانبول 1329، ص 125

ليلة وفاته، والاغتسال بالماء البارد صبيحة يوم وفاته؛ حيث قال لها: (قمنا بعمل أشياء مخالفة لبعضها البعض؛ ليحفظنا الله بحفظه) [1].

وقد ورد نفس سبب الوفاة في نسخة كتاب ميزان الحق التي نسخت عام 1138 [2]. إلا أنه أضاف بعض التفصيلات؛ حيث ورد في تلك النسخة أنه أكل في تلك الليلة بطيخًا خامًا، فاضطربت معدته، وشعر بألم في صدره، فاستخدم بعض المعاجين والمسخنات، فإذا به يزداد اضطرابًا، وسقط الفنجان من يده، وبينما هو يبحث في كتب الطب عن علاج له إذا به يموت فجأة. وقد ورد تاريخ الوفاة في تلك المخطوطة 1067هـ، ولكنه شُطب، وكُتب بدلًا منه 1068هـ.

وقد اختلف بعض المؤرخين في تاريخ وفاته؛ تبعًا لما ورد في نسخ كتبه، وما بها من أخطاء النُّسَّاخ.

أما قبره، فيقع في فناء صغير ملاصق لسبيل يقع أسفل أحد المكاتب القريبة من جامع زيرك[3]. وقد أورد شرف الدين قايا صورة لهذا القبر القديم في النسخة التي نشرها لكتاب كشف الظنون. وفي عام 1953م أُمر ببناء قبر جديد له، عليه كتابة.

أما أصدق الكتب التي تناولت موضوع وفاته، فهو - ولا شك - نسخة كتاب جهاننما الموجودة بين نسخ مخطوطات روان، والتي تم ذكر بياناتها من قبل؛ حيث أورد صاحب الكتاب ويدعى محمد عزتي بن لطف الله تسجيلًا في آخر المخطوط بأنه اشترى الكتاب من ورثة حاجي خليفة عام 1069هـ، أي بعد عامين من وفاته. ويمكننا القول بأن كل المصادر التي تناولت حياة حاجي خليفة سواء كانت مخطوطة[4]، أو سواء

---

(1) انظر: مكتبة طوب قابي سرايي، روان، جهاننما، رقم 1624، 1أ

(2) مكتبة الفاتح، رقم 5335، ص 44 أ

(3) انظر: النسخة المخطوطة من ميزان الحق، بايزيد، المكتبة العامة، قسم رحمي بك، رقم 17167، 1 أ

(4) مثل: شيخي، وقائع الفضلا، مكتبة ولي الدين أفندي، رقم 2361، ج1، ص 131 أ؛ نفس الكتاب، مكتبة الجامعة، رقم 81، ج1، ص 310 ؛ مستقيم زاده، مجلات النصاب، مكتبة حالت أفندي، رقم 628، ص 316أ؛ شهري زاده سعيد أفندي، تاريخ نوبيدا، مكتبة جامعة استانبول، قسم خالص أفندي، T 3291، ص 4

الكتب المطبوعة[1]؛ إنما هي كلها ترجمة أو تكرار لسيرته الذاتية الواردة بكتابه "ميزان الحق"، كما استفادوا أيضًا من كتاب سلم الوصول.

شخصيته:

طبقًا لشهادة محمد عزتي بن لطف الله - الذي اشترى معظم أعمال حاجي خليفة ومسوداته من ورثته بعد عامين من وفاته - كان حاجي خليفة شخصًا صاحب همة، ذا خلق حسن، يتكلم قليلا[2].

وقد نظم عشاقي زاده - صديق كاتب جبلي في مرحلة الشباب - بعض الأبيات عنه[3].

لقد اكتسب حاجي خليفة حبَّ واحترام الجميع في عصره وبعد عصره، ولم يهجه إلا مؤلف يدعى "الشيخ محمد نظامي" في كتابه المسمى "هداية الإخوان وعبرة الخلان" الذي ألفه عام 1108هـ/ 1696م وذلك بسبب ذكر حاجي خليفة للعداوة التي كانت بين الشيخ السيواسي والشيخ قاضي زاده الرومي؛ حيث قال محمد نظامي في ذلك:

"إن هذا الشخص المدعو حاجي خليفة، الذي هو من كتّاب قلم المقابلة ليس معلوم له مشرب ولا مذهب، ومتكبر، ولا يعرف حده؛ فقد ذكر في المبحث الحادي والعشرين من رسالته الباطلة "ميزان الحق" أن الشيخين الجليلين قاضي زاده والسيواسي كانا معروفين للسلطان بأنهما متخالفان في الرأي".

---

(1) مثل: تقويم التواريخ، نشر متفرقة، 1146، مناقب حاجي خليفه، القسم الذي يلي المقدمة؛ محمد طاهر البورصوي، المؤرخون العثمانيون، سلانيك 1322، ص 13 - 43؛ نفس المؤلف، المؤلفون العثمانيون، 1342، ج3، 124؛ محمد ثريا، سجل عثماني، ج4، 395؛ عدنان أديوار، العلم عند الأتراك العثمانيين، استانبول 1943، ص 105 وتوجد فيه معلومات مفصلة وجيدة عن حاجي خليفه وأعماله؛ جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 1931، ج3، 317؛ كشف الظنون، نشر شرف الدين قايا، المقدمة، العامود 17؛ نفس الكتاب، نشر فيلجول، ج10، ؛ بابينجر، المؤرخون العثمانيون، 1927، 195؛ بروكلمان، جال، ج2، 427، هامر، المؤرخون العثمانيون، ج4، ص 45

(2) انظر: جهاننما، مكتبة طوب قابي سرايي، روان، رقم 1624، 1

(3) انظر: زيل عشاقي زاده، مكتبة السليمانية، قسم حفيد أفندي، رقم 242، 131 أ؛ نفس الكتاب، مكتبة وهيب الدين أفندي، رقم 2361، ج1، 131 ب.

أما شهرة الشيخ سيواسي أفندي، فلم تكن بالمقارنة لقاضي زاده "[1].

وعلى هذا تُثبت كل أعمال حاجي خليفة – وعلى رأسها ميزان الحق – أنه متسامح ومحايد. وكما أنه كان وقورًا بطبيعته لا يحب الهجاء، ويدل على ذلك أنه أثناء حديثه عن "سهام القضاء" لنفعي، قال إن هذا العمل معتبر عن كل الروم بالرغم من أنه عبارة عن هجاء من أوله إلى آخره، والسبب في كونه معتبرًا عند الروم أنه متوافق مع طبيعتهم[2]. وفي مقابل ذلك، كان يقدر أخلاق الأهالي بشكل لم يثبت في أي عمل آخر.

هذا بالإضافة إلى أنه كان يورد مساحة قليلة للغاية للمزاح في أعماله، من ذلك على سبيل المثال: (وقُتل من العجم الكثير لدرجة أن جثثهم كانت تملأ المدينة والصحراء، ولم يسبق أن أكل منهم السيف مثل ذلك، بالهناء والشفاء) [3].

أشار عشاقي زاده إلى أنه لم يشرب الدخان[4]؛ ولأنه كان يهتم بالذوق الرفيع كان يزرع الزهور، وخاصة السنابل الزرقاء[5].

حاجي خليفة والتصوف:

وقد أوضح حاجي خليفة أنه على المذهب الحنفي والمذهب الإشراقي[6]. وأوضح أن المذهب الإشراقي واحد من العلوم الفلسفية، وهو بمنزلة التصوف في العلوم الإسلامية.

ويتفق حاجي خليفة مع الرأي القائل بأن الصوفية يمكنهم بفضل الرياضة الكثيرة الثقيلة أن يسيروا بالأرواح في عالم الأشباح، ولكنه يرفض إظهار بعض المدعين الكاذبين قيامهم باللقاء والمعاملات الروحية في العالم الحقيقي[7].

---

(1) انظر: هداية الإخوان، مكتبة السليمانية، قسم الحاج محمود أفندي رقم 4587، الهدية السادسة في بيان مناقب الشيخ السيواسي، ولى الدين أفندي، رقم 1864

(2) انظر: كشف الظنون، شرف الدين يالتقايا، معلم رفعت الكليسلي، ج2، 1010

(3) انظر: فذلكه، ج2، 204

(4) انظر: ميزان الحق، نشر أبو الضيا، 52

(5) انظر: عبيدي، تذكرة الشكوفه جيان، مكتبة جامعة استانبول، رقم 3923، ص9أ

(6) انظر: سلم الوصول، 271 أ

(7) انظر: ميزان الحق، نشر أبو الضيا، مبحث حياة الخضر ص 17

ومع ذلك لم تكن قناعاته لصالح التكايا؛ لأن تلك التكايا أصبحت ملجأ للكثير من الجهلاء من النساء والأطفال، ومن ذلك ما ذكره في سلم الوصول عن ضريح الشيخ قراجه أحمد الخراساني: "الشيخ قراجه أحمد الخراساني، وكان معروف المقامات والكرمات، مشهورًا بين العوام ذكره من مشايخ الدولة الأورخانية، وقد أحدثوا بعده زاوية منسوبة إليه ببلدة قسطنطنية؛ فصارت مأوى الجهلة من النسوان والصبيان"[1].

لقد خاض حاجي خليفة حربًا ضد كل أنواع التعصب، ورجا الله بأن يهدي المتعصبين إلى الإنصاف، وأوضح أن التعصب سيوقع الناس في فتنة، وتناول المسائل التي يمكن أن تظهر في كل عصر، ويمكن أن تؤدي إلى فتنة بل وحرب داخلية بين الأهالي بسبب التعصب. وسعى إلى إظهار عدم فائدة هذا التيار بطريق العقل والنقل، وعمل على إعاقته. وكان كتابه "ميزان الحق" هو نتاج جهوده تلك.

حاجي خليفة والتاريخ:

ومن خلال ما عرفناه من حاجي خليفة نفسه ومن طلابه الذين تعلموا على يديه، علمنا أنه كان مغرمًا بالكتب وقراءة الكتب، وكان يشتري بكل ما معه من أموال الكتب، حتى أنه اشترى بجزء كبير من الأموال، التي ورثها عن أحد أقاربه كتبًا. وكانت كتب التاريخ والطبقات والوفيات من أكثر الكتب التي يطالعها حاجي خليفة، وكان يرجع إلى العديد من المصادر التاريخية؛ لإيضاح نقطة تاريخية ما، وأوضح في كتاب "كشف الظنون" عندما كان يتحدث عن كتابه الفذلكه، أنه طالع ما يقرب من 1300 كتابَ تاريخ، يقول "وأما الكتب المصنفة في التاريخ فقد استقصيناها إلى ألف وثلاثمائة فنذكره هنا على الترتيب المعهود".

وقد أورد شري زاده حكاية تؤكد صدق كلام حاجي خليفة في هذا الموضوع، وأنه كان مطلع على الأحداث التاريخية من خلال معلوماته الشخصية، والكتب التي طالعها، يقول: "سأل يحيى أفندي شيخ الإسلام – ذات يوم – حاجي خليفة عن صحة المعلومة التي تقول بأنه يمتلك أكثر من ألف مجلد في التاريخ، فأجابه حاجي خليفة بأنه بالفعل يمتلك أكثر من ذلك، فلما أومأ يحي أفندي برأسه في إشارة منه على أنه لم يصدق كلامه، فوجئ بحاجي خليفة في اليوم التالي يحضر إليه ومعه عشرة بغال، كل واحد منها محمل بثلاثمائة مجلد في التاريخ، هذا بخلاف الكتب التي لم تكن مجلدة، وتركها في المنزل".

---

(1) سلم الوصول 8 ب

وقد خصص حاجي خليفة الفصل الثاني في كتابه الفذلكة المكتوب باللغة العربية للتعريف بعلم التاريخ لغة واصطلاحًا، وموضوع التاريخ وأهميته. وأورد اقتباسات من كتب التاريخ التي ألفت قبله، واتفق معها كلها في أن موضوع التاريخ هو تناول الشخصيات الماضية من أنبياء ورسل وحكام وأولياء وشعراء، وغيرهم. وأوضح أن هدف هذا العلم هو الوقوف على أخبار السابقين، وأخذ عبرة منهم، واجتناب الأحداث التي أثبتت التجارب التاريخية أنها ستضر أو ستؤدي إلى الضرر. ولكنه أوضح أن أحسن تعبير صادفه عن تعريف علم التاريخ هو الذي ذكره جنابي في مقدمة كتابه؛ حيث قال "إن علم التاريخ يأتي على رأس كل العلوم، وبه يمكن التعرف على كتاب الله، وقدرته ورحمته[1]".

ويرى حاجي خليفة أنه يجب على رجال الدولة، ومن هم في السلطة، تتبع الأخبار التاريخية ومعرفة أخبار من قبلهم. من ناحية أخرى، رأى أن الأخطاء التي قام بها قادة الجيش في الحروب؛ إنما سببها عدم تتبعهم ومعرفتهم بكتب التاريخ. وعندما كان يتحدث عن فاجعة عثمان الثاني، أوضح أن بعض المؤرخين اختصر تلك الحادثة؛ لأنها تدعو للحزن، وكان حاجي خليفة ضد ذلك؛ لأن وظيفة التاريخ عنده هي بيان وقوع الحادث. وبالتالي، يلزم على الكاتب ألا يخلّ بالموضوع، الأمر الذي جعله يورد ملخصًا لكتاب أُلف لهذه الحادثة بالذات، وألحق به بعض الإضافات من المصادر التاريخية الأخرى، ودافع عن تركه لأحاسيسه جانبًا، وأنه التزم الحياد في ذكرها، فقال: "وأدينا حق التحرير، وأوفينا بأخبار تلك الواقعة".

حاجي خليفة والجغرافيا:

وقد شغف حاجي خليفة بالعلوم الأخرى غير التاريخ ومنها الجغرافيا؛ حيث رأى أن كتب الجغرافيا الموجودة في الغرب وعند اليونانيين، قد فاقت الحد جدًّا في هذا الموضوع. أما المؤلفين المسلمين، فكان يشوبهم نقص المعرفة في هذا العلم، وكتبهم مليئة بالأخطاء والاضطرابات؛ فقرر أن يؤلف كتابه "جهاننما" من أجل تلافي هذا النقص الموجود في الشرق.

وقد أوضح حاجي خليفة أن فائدة هذا العلم - أي علم الجغرافيا - هي إلمام الشخص العادي بكافة المعلومات عن الأقطار الموجودة في العالم، وهو جالس في أحد أركان بيته في سكون وراحة، مثله مثل أكبر الرحالة في العالم الذي جابوا البلدان، وقضوا معظم حياتهم في التجول في الأمصار والأقطار.

---

(1) كشف الظنون/ ج1، 271

التشريح والفلك:

وقد شغف حاجي خليفة – أيضًا – بغير ذلك من العلوم، وشرح فائدتها من حيث إيضاح الحقائق الموجودة في الكائنات، وذكر أن من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو في معرفة الله عنين[1].

كما أوضح فائدة علم الهيئة في مناقشة النظريات الخاصة بكروية أو بيضاوية الأرض.

العلوم ونهضة المجتمع:

وإلى جانب تلك الآراء المختلفة لحاجي خليفة عن العلوم، فهو ينظر إلى العلم على الإطلاق بأنه وسلة لنهوض المجتمع ووسيلة لاستمراره. وأن أهمية العلماء في المجتمع كالقلب في الجسد، وبالتالي فهو يرى أنه لا يوجد شيء يفوق العلم أبدًا. ولم يُفرق في أي وقت بين إرشاد العلم في إيضاح الأحداث.

آراؤه النقدية:

وإلى جانب تلك الآراء المثبتة لحاجي خليفة، كانت له– أحيانًا – آراء نقدية لبعض الكتاب، كما هو الحال في نقده لكتاب مرآة العوالم لعالي أفندي؛ حيث يقول:

"مرآة العوالم تركي مختصر لعالي أفندي، ذكر فيه ابتداء الخلق، وما قيل في ذلك من الأوهام والأباطيل، التي نشأت من الجهل وقلة العقل، وعدم الوقوف على النقل الصحيح كما في كنه الأخبار من الهذيان والإكثار"[2].

كما وقف بشدة أمام الأخطاء التي تنشأ من المترجمين، وأحيانًا المؤلفين.

لقد وسّع حاجي خليفة حدود معرفته بالكتب الكثيرة، التي قرأها في شتى العلوم، وكان يستخدمها كلها حينما يحين وقتها. ومن ذلك على سبيل المثال، أنه لم يقبل ما ذكره المسعودي عن طرز بناء سور لمدينة واقعة في البحر لمسافة ميلين؛ لأن ذلك كان مخالفًا لقانون وهندسة الأبنية، التي تتم داخل الماء، وهذا على حد ما استشهد به من المعماري الذي قام ببنائه، ويؤيد ذلك ما أورده أثناء حديثه عن أمر خسرو باشا ببناء قلعة كول عنبر.

---

(1) إلهام المقدس، نور عثمانية 4075، ورقة 1

(2) كشف الظنون، ج2، 1649

ومما يُفهم من بعض أعمال حاجي خليفة، أنه استفاد من المصادر الغربية؛ لإكمال النقص الموجود في الكتب المدونة بالعربية أو بالتركية، وبالنظر إلى ما قاله "وقد قام الحقير بترجمة الأطلس مينور إلى اللغة التركية" نعلم أنه استفاد من المصادر المكتوبة باللغة اللاتينية، وترجم بعضها إلى اللغة التركية.

الترجمة:

وبخلاف تلك الترجمات التي ذكرها حاجي خليفة في أعماله، توجد له عدة ترجمات أخرى، ومنها المقالة الثامنة لكتاب ماتورا، وهو شرح لفلسفة أرسطو، وغيرها من الأعمال الأجنبية الأخرى. وبخلاف تلك المصادر الغربية التي استفاد منها في كتابه جهاننما، له كتاب آخر باسم "ماوريقا ديكموندي" على طرز كتاب "مسالك الممالك" بدون صور، نقل وترجم بعض أقسامه من كتاب لورينزو، وقد قام حاجي خليفة بتصحيح ونقد تلك الكتب ما أمكن، واستخدمها.

وبخصوص المعلومات التي أوردها صاحب الأطلس عن الدولة العثمانية، فبالرغم من أنه نقلها كما هي إلا أنه أصلح وفصّل فيها الكثير بما تيسر له أثناء كتابة جهاننما.

وفي مقدمة كتاب جهاننما، أعطى حاجي خليفة معلومات مختصرة عن المصادر التي استخدمها، وأوضح – أيضًا – آراءه النقدية، وأخطاء هذه المصادر كما هو معتاد عنده. كما أوضح – أيضًا – أن الترجمة التي قام بها شريف أفندي لكتاب أحمد بن سهل البلخي غير علمية بالمرة، وقد رأى حاجي خليفة عدم جواز اقتباس المعلومات، التي يقتنع قارئها بأنها مكذوبة.

أعماله:

1 – الفذلكه باللغة العربية:

اسم هذا الكتاب الذي وصفه حاجي خليفة بأنه التاريخ الكبير[1] (فذلكه أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار) [2]، وقد عرفه حاجي خليفة في كتابه الفذلكه الذي كتبه باللغة التركية بأنه (فذلكه التواريخ)[3]. وقسمه إلى أربعة فصول، الأول منها: في

---

(1) انظر: تقويم التواريخ، مخطوطات مختلفة، خاتمة الخاتمة.

(2) انظر: للاطلاع على النسخة المخطوطة الوحيدة، انظر: مكتبة بايزيد العامة رقم 10318، 436، 8 أ.

(3) انظر: الفذلكه، نور عثمانية، رقم 3153. أما كشف الظنون (الجزء الأول ص 291).

بيان الفصول والأبواب الموجودة بالكتاب، والثاني: في بيان معنى التاريخ وموضوعه وفائدته، والثالث: يتضمن قائمة مرتبة أبجديًّا بالكتب التي ألفت في هذا الموضوع. وقد صرح حاجي خليفة بأن هذا الفصل يحتوي على 1300 اسم كتاب [1]. ولكن مع الأسف ناقص من النسخة العربية الوحيدة المخطوطة؛ حيث أن عدد الكتب التاريخية التي ذكرها حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون تبلغ 914 كتابًا[2]. وهذه القائمة تتضمن كل الكتب التاريخية المعروفة التي كُتبت باللغات العربية والفارسية والتركية. أما الفصل الرابع: فهو خاص بالقواعد التي يجب على المؤرخ معرفتها، وكذا الشروط التي يجب أن يراعيها.

ويذكر حاجي خليفة في كتابه "ميزان الحق" أن هذا الكتاب كان ملخصًا لمائة وخمسين دولة ذكرتها المصادر التاريخية. وبالرغم من أنه أوصى بتبييض نسخة لشيخ الإسلام يحيى أفندي ليقدمها للسلطان، إلا أنه لم يقم بذلك؛ لذا فإن النسخة الوحيدة الموجودة حاليًا بخط المؤلف على شكل مسودة لم يتم تبييضها، ويذكر شهري زاده في كتابه (نو بيدا) أنه كان ينوي ترجمته إلى اللغة التركية، والنسخة الوحيدة المخطوطة منه موجودة في مكتبة بايزيد العامة برقم 10318.

2 – الفذلكه التركية:

تبدأ من عام 1000هـ إلى عام 1065هـ، وهي بمثابة الذيل للفذلكة العربية، وقد صرح حاجي خليفة بأنه كتبها باللغة التركية؛ ليفهمها أهل استانبول[3]. والنسخة المخطوطة منه الموجودة في مكتبة نور عثمانية برقم 3153 ورقم 1065 – 1066 بمكتبة فيينا [4]، والكتاب عبارة عن كتاب وقائع صُنف على حسب السنوات. وفي نهاية كل سنة، يذكر ملخصًا عن رجال الدولة، الذين توفوا في تلك السنة والعلماء والشعراء والمشهورين وأعمالهم. وقد استفاد المؤلف من المصادر التاريخية المختلفة في العصور التي لم يلحق بها[5].

---

(1) انظر: تقويم التواريخ، مخطوطات مختلفة، خاتمة الخاتمة.

(2) انظر: كشف الظنون، ج1، ص 271.

(3) Fezleke, Nurosmaniye Kütüphanesi, nr 3153, 1a.

(4) Takvim al - tavarih, Süleymaniye, Haci Mahmut Efendi Kitabları, nr 4840, 1a.Aynı kütp, Esad Efendi, nr 2399, 1a.

(5) F.Babinger, Die Geschichtschreiber der osmanen, s. 174.

وينتهي الكتاب بثورة إبشير باشا عام 1065هـ، وقد سار نعيما على نفس نهج الفذلكه، واستفاد منه في مواضع كثيرة نقلها كما هي [1]. كما قام فينديقلي محمد أغا بعمل زيل للكتاب[2].

وقد طُبع الفذلكه التركي على شكل مجلدين في مطبعة (جريدة الحوادث)[3] وله نسخ مخطوطة كثيرة [4]. أما نسخة المؤلف، فموجودة بمكتبة عاطف أفندي باستانبول برقم 1914 ومن بدايتها وحتى الورقة 204 مكتوبة بخط يد حاجي خليفة، وكما هو الحال في أي نسخة مخطوطة للمؤلف، نجد في تلك النسخة أيضًا أماكن ممسوحة، وأخرى قام بتصحيحها في الهامش. وعند مقارنة هذه النسخة بالنسخة المطبوعة، يتضح لنا أن كثيرًا من تلك التصليحات غير موجود بالنسخة المطبوعة.

أما عن النسخ الأخرى الموجودة للكتاب، فتوجد في مكتبات:

طوب قابي سراى رقم 208، طوب قابي، قسم روان رقم 1186 – 1187، طوب قابي قسم السلطان أحمد رقم 389، طوب قابي، قسم الخزينة رقم 1311، نور عثمانية رقم 3152 – 3153، مكتبة مللت قسم علي أميري رقم 448، وقسم علي باشا حكيم أغلو رقم 785، مكتبة الفاتح رقم 4444، مكتبة راغب باشا رقم 1036، مكتبة مولا مراد قسم الحميدية رقم 910، خسرو باشا رقم 440 – 441 – 442، السليمانية قسم أسعد أفندي رقم 2399.

3 – تحفة الكبار في أسفار البحار

ألفه حاجي خليفة بسبب حملة كريت، التي بدأت عام 1645م الموافق 1055هـ. وتناول فيه الحملات البحرية العثمانية منذ العهود الأولى وحتى عام 1067هـ[5]، وشرح فيه الأخطاء التي وقع فيها القادة البحريون سواء كانت نقصًا في الإجراءات أو خطأ في

---

(1) Ayn. Esr. c.1. s. 236.

(2) F.Babinger. Ayn esr. 245.

(3) Silahdar Tarihi. neşr. Türk Tarih Encümanı. ist 1928. c.1. s. 2.

(4) للاطلاع على المخطوطات الموجودة في مكتبات استانبول، انظر: فهرس المخطوطات التاريخية التركية، نشر وزارة التعليم القومي، استانبول 1944، ملزمة2، ص 161.

(5) Müteferrika basması 5b.

التنفيذ. وكيف كانت تلك الأخطاء سببًا في هزيمة الأسطول العثماني، وهو ما جعل الدول الأجنبية تشعر بالفخر والقوة.

وقد أورد حاجي خليفة أنه ألّف هذا الكتاب لينقذنا من تلك الأخطاء، وتكون لنا عبرة، الأمر الذي جعله يورد بعد كل حملة من الحملات، وخاصة حملة كريت عظة ووصية لعدم الوقوع في مثل هذا الخطأ وتفاديه، والحيلولة دون الوقوع فيه[1].

ثم اختتم الكتاب بفصل سمَّاه الوصايا ذكر فيه 40 وصية [2]. ويذكر إبراهيم متفرقة أنه قام بضم بعض المحسنات للتوضيح أثناء طبع الكتاب[3]، تم طبع الكتاب في غرة شهر ذي القعدة عام 1141هـ، وهو ثاني كتاب يُطبع في المطبعة، وكانت طبعته الأولى من الحجم الصغير، وتحتوي على أخطاء في صفحات الفهرس وصفحتين أخرتين، وقد أضاف متفرقة للكتاب أثناء طبعه، أربع خرائط، هي: خريطة للعالم، وخريطة للبحر الأبيض والبحر الأسود، وخريطة للجزر العثمانية في البحر الأبيض، وخريطة بحر الأدرياتيك والبلدان الواقعة عليه. كما وضع بوصلتين تُظهران 32 نوعًا من الرياح، أحدهما بلغة المسلمين الذين يبحرون في البحر الأبيض والأسود، والأخرى بلغة الهند والسند والفارسية في مياه المحيط الشرقي. والخرائط الموجودة بالكتاب هي نفسها الموجودة بكتاب جهاننما[4].

والقسم الأول من الكتاب خُصص للفتوحات البحرية قبل زمن حاجي خليفة، وقد رجع فيها حاجي خليفة إلى مصادر، مثل: تاج التواريخ، وروضة الأخبار، وتاريخ فتح خانية، ومرآة الممالك، وكتاب بحرية؛ فكان الكتاب بمثابة الملخص لهم. على سبيل المثال، الجزء الخاص بالقائد خير الدين باشا بارباروس مأخوذ كما هو من كتاب غزوات خيرا الدين لسنان جاوش[5]؛ ولأن الفصول الأخيرة من هذا القسم تحتوي على الوقائع الخاصة بعهده، فإنه لا شك أنه استغنى عن الرجوع إلى المصادر الأخرى.

(1) Müteferrika Basması, 21b, 25 a, 37, 39 b, 41b, 42a.

(2) Ayn esr, 72.

(3) Ayn, esr, Mukaddime

(4) F.Babinger, Sambuler Buchwesen, Leipzig 1919, s. 12.

(5) Mütefarrika Basması, 12a. Hammer, GOR, c.3, s. 164.

وقد قُسم الكتاب إلى تسعة فصول، وقسمين، والقسم الأول من الكتاب خُصص للفتوحات البحرية – كما ذكرنا آنفا – القسم الثاني ويتضمن سبعة فصول عن الأسطول العثماني والترسانة العامرة، وأوضاع البحر. وأوضح حاجي خليفة في خاتمة الكتاب أن السبب في تجرؤ العدو على الهجوم على الدولة العثمانية هو الإهمال والتقصير في اتخاذ الإجراءات اللازمة للفساد المالي والخزينة والجنود. كما يؤكد الكتاب على أن الأمور كانت منتظمة في عهد السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني؛ لأن الجميع كان يسير على الطريق القويم، إلا أنه بعد أن حادوا عن هذا الطريق، كانت النتيجة أن ساءت الأمور.

النسخ المطبوعة من كتاب "تحفة الكبار في أسفار البحار":

طبعة متفرقة، وهي طبعة من الحجم الصغير، الورقة بها مزدوجة بأبعاد 2+75+7، وبها خمس خرائط. وطبعت عام 1141هـ. أما الطبعة الثانية طبعة المطبعة البحرية باستانبول عام 1329هـ، وهي من القطع الكبير بأبعاد +166+12 2، وبها العديد من الرسومات والخرائط الملونة.

النسخ المخطوطة من كتاب "تحفة الكبار في أسفار البحار" (1):

مكتبة طوب قابي سراي، قسم روان، رقم 1192. وهي نسخة حاجي خليفة. بها خرائط كبيرة، واثنتان من الرسومات الملونة بعد الورقة الخامسة عشرة. وبنفس المكان، أي مكتبة طوب قابي نسخ مخطوطة أخرى تحمل أرقام 1188 – 1189 – 1190، وأرقام 1640 – 96ب – 183أ، مكتبة آيا صوفيا رقم 3126. مكتبة نور عثمانية رقم 3219 – 3221. مكتبة مللت قسم رشيد أفندي 642 – 681. مكتبة السليمانية، قسم داماد إبراهيم باشا 908. مكتبة راغب باشا، قسم توفيق يحيى أفندي رقم 259. ويوجد بتلك النسخة تسجيل (تاريخ قاندية المسمى تحفة الكبار) وقد ذكر بروكلمان أن هذا التسجيل يوحي بأن هذا الكتاب هو عمل آخر لحاجي خليفة. مكتبة مولا مراد، قسم لاله إسماعيل أفندي رقم 310، مكتبات استانبول فهرس المخطوطات الجغرافية والتاريخية 1944، ملزمة 2، ص 165.

(1) للاطلاع على بعض النسخ المخطوطة الموجودة في مكتبات أوروبا وتركيا، انظر: بابنجر، المؤرخون العثمانيون، ص 202.

التراجم:

للترجمة الإنجليزية، وقام بها جيمس ميشيل، وهي باسم – The History of the Mar time of the turks لندن 1831م. وقد زعم المترجم أنه ترجمها من النسخة الأصلية المكتوبة باللغة الفارسية!! وترجم منها من أولها إلى نهاية الفصل الرابع فقط، وكتب مقدمة في 13 صفحة[1].

الترجمة الفرنسية[2].

4 – تقويم التواريخ:

ويذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب بمثابة الجدول الزمني (التقويم) للوقائع التاريخية المذكورة في الكتب التاريخية، منذ هبوط آدم وحتى عام 1058هـ[3]، حتى أنه عدَّه جدولًا زمنيًّا لكتب التاريخ التي كتبها هو، وخاصة كتاب الفذلكه العربي[4]. أتمه في شهرين عام 1085هـ، وبالرغم من أن شمعداني زاده يزعم بأن المؤلف – أي حاجي خليفة – أكمله بعد ذلك؛ ليصل حتى عام [5]1067، إلا أن هذا خطأ؛ لأن الواضح من نسخة كُتبت عام 1073هـ[6]، ونسخة أخرى كُتبت عام 1102هـ من نسخة المؤلف الأصلية[7]، أن المؤلف ذكر صراحة أنه لم يكتب الوقائع إلا لعام 1058هـ فقط. وفي نهاية العام، الذي أُلف فيه الكتاب، قُدم للصدر الأعظم قوجه محمد باشا بواسطة شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي؛ مما أدى إلى ترقية المؤلف إلى درجة كاتب ثان[8].

---

(1) F.Babinger. Sambuler Buchwesen. s. 12.

(2) F.Babinger. Sambuler Buchwesen. s. 12.

شوقي، تحفة الكبار وحاجي خليفة، استانبول 1932، رسالة تاريخية، جامعة استانبول، مكتبة الندوات التاريخية (Tarih semineri kütüphanesi)، ص 90.

(3) Müteferrika Basması. Mukaddime.

(4) Mizan al - Hak. 140.Kaşf el –Zunun. c.1. s. 469.

(5) Takvim al - tavarih Zeyli. Millet Kütüphanesi. Ali Emiri. Tarih nr 131. 1b.

(6) Veliyüdin Efendi Kütp. nr 2410. Kapak sahifesi.

(7) Ayn yerde. nr 2409. 68 a.

(8) Mizan al - Hak. 140.Takvim. Müteferrika Basması. Mukaddime. s. 246.

لقد جمع حاجي خليفة خلاصة الكتب التاريخية التي قرأها في ثلاثة أجزاء، يقول حاجي خليفة في ذلك:

"وذكرت فيه التواريخ المستعملة، ثم الوقائع مجدولًا، وجعلته نسختين في ثلاث كراريس، كل صحيفة منها خمسين سنة، ونسخة في نحو عشْر كراريس، كل صحيفة منها عشر سنين، فصار كالفهرس لكتب التواريخ، ولفذلكتي خاصة"(1).

وللكتاب ذيول كثيرة أول اثنين منها(2)، الذيل الذي كُتب حتى تاريخ محمد شيخي أفندي شيخ محمد البخاري(3)، والذيل الذي قام به إبراهيم متفرقة حتى عام 1146هـ(4).

وقد قام إبراهيم متفرقة بطباعة النسخة الأصلية والذيلين معا في 1146هـ في كتاب يبلغ 247 صحيفة من القطع الصغير المزدوج(5)، وقد أكمل شمعداني زاده هذا الذيل في كتابه "مرآة التواريخ" حتى عام 1191هـ، كما أتم علي سعاوي الذيل من عام 1147هـ، حتى عام 1227هـ، وأضاف إليه حواشي ومقدمة، ولكنه لم يتمكن إلا من طباعة 128 صفحة فقط في باريس من تلك النسخة(6). ومن الصعب تحديد أصحاب معظم النسخ المخطوطة الموجودة في مكتبات استانبول، فكلها على شكل ذيول كُتبت على يد كتّاب مختلفين في الفترة من 1058 وحتى 1148 هـ.

أما النسخ المخطوطة من ذلك الكتاب، فتوجد في:

- مخطوطات مكتبة طوب قابي سراي.
- مخطوطة خزينة الأمانات.
- مخطوطات مكتبة السليمانية.

(1) Kaşf el –Zunun، c.1. s. 469.

(2) Babinger، Geschichtschreiber der osmanen، 196.

(3) Takvim al - tavarih Zeyli، Millet Kütüphanesi، Ali Emiri، Tarih nr 131، 1b.

(4) F.Babinger، Sambuler Buchwesen، s. 16.

(5) Müteferrika Basması، Mukaddime.

(6) Babinger، Geschichtschreiber der osmanen، 196. Bursalı Mehmet Tahir، Osmanlı Müellifleri، c.3، s. 126.

- مخطوطات مكتبة مللت.
- مخطوطات مكتبة بايزيد العامة.
- المخطوطات الموجودة في الأماكن الأخرى.

5 – القانون نامه:

بالرغم من أن حاجي خليفة ذكر في كتاب "ميزان الحق" أنه كتب القانون نامه في عام 1064 هـ، إلا أنه لم يعط أي معلومات عن الكتاب. وقد ذكر شهري زاده في كتابه "نوبيدا" [(1)] أنه عبارة عن كتاب جمع فيه حاجي خليفة كتب القوانين نامه المفصلة والمتوسطة، أما محمد طاهر البورصوي فيذكر أنه كتاب في التشريفات العثمانية القديمة، وكان باسم "قانون نامه التشريفات"، وكان ينقسم إلى قسمين[(2)]. وبالرغم من أن إفادة محمد طاهر البورصوي تدل على إنه رأى الكتاب، إلا أن عدم ذكره له بين مؤلفات حاجي خليفة أثناء تعريفه له في كتابه (المؤلفون العثمانيون)[(3)]؛ يدل على إنه استند في معلوماته تلك إلى شهري زاده[(4)]، أو أي مؤلف آخر.

6 – ترجمة تاريخ الفرنكي:

هو ترجمة للكتاب المسمى (التقويم) لجون كاريون، وقد نُشرت منه بعض المقتطفات في جريدة تصوير الأفكار في الأعداد من العدد 55. وقول مرتمان في الموسوعة الإسلامية طبعة ليدين، وقول بابنجر في كتابه Geschichtschreiber der Osmanen بأن هذا الكتاب هو ترجمة لتاريخ Chalcondyle قول خاطئ[(5)].

وقد ذُكر هذا الكتاب في "ميزان الحق" باسم تاريخ فرنكي فقط، وذكر حاجي خليفة أنه ترجمه بمساعدة الشيخ محمد الإخلاصي، وذلك من أجل نقله وضمه للتواريخ التركية [(6)]. وقد كانت الترجمة 188 صفحة بعدها تأتي الذيول الملحقة بالكتاب. الذيل

(1) Istanbul Üniversite Kütp. T 3291. 19b .

(2) Müverrihin i - osmaniyeden Ali ve Katip çelebinin tercüme Halleri. Selanik 1322. s. 40.

(3) c.3. s 124.

(4) Ayn yerde.

(5) Adnan Adıvar. Osmanlı Türklerinde ilim. s. 129.

(6) Tuhfat al - kibar. Müteferrika Basması. 7b.

الأول ويتناول السلطان القانوني، وإخراج المسلمين من أسبانيا في ذلك الوقت بالقوة، وإجبارهم على الردة عن الإسلام، وقد استُل هذا الذيل من تاريخ الراهب هوراتيوس تورساليانو، ثم يأتي بعد ذلك الذيل الثاني والثالث [1].

7 - تاريخ قسطنطينية وقيصري (رونق السلطنة):

طبقًا للمعلومات المختصرة الواردة في كتاب ميزان الحق والمعلومات الموجودة في المقدمة، أن هذا الكتاب (تاريخ القسطنطينية) أو (رونق السلطنة) أيضًا مترجم. وأن حاجي خليفة كتبه بطريق الانتخاب والترجمة من الكتاب الكبير، ويتضمن الأحداث والوقائع، التي جرت في الشرق وحتى عام 1579م. والكتاب الأصلي كُتب على يد عدة مؤلفين، وقد طُبع الكتاب الأصلي الذي ألفوه في فرانكفورت عام 1587م.

ويتحدث الكتاب عن الفتح الإسلامي، وانقراض دولة البلغار، وحرب المغول، وحصار قونية، وسلطان قونية قليج أرسلان، والبيزنطيين، والسلاجقة والحملات الصليبية، والفتوحات الإسلامية بعد فتح صاروخان، وحرب البوسنة وداتشيا، والوقائع التاريخية التي جرت أيام البيزنطيين والعثمانيين. والقنوات المائية الموجودة في استانبول، والبساتين، والأخشاب، والحرائق، والزلازل التي وقعت في استانبول [2].

8 - إرشاد الحيارى إلى تاريخ اليونان والروم والنصارى:

رأى حاجي خليفة أن ما كُتب في المصادر الإسلامية عن الدول الأوروبية وعن حكامها، ما هي إلا أكاذيب وخرافات وأشياء تدعو للسخرية، ورأى أنه بدلًا من الموافقة على تلك الخرافات من باب التعصب الأعمى؛ أن نقف على أخبار وأحوال تلك البلدان وشؤونها؛ لأن الكتابَ المسلمين لا يعرفون أي شيء عن تلك البلدان المجاورة لهم، وفي نفس الوقت أعداء لهم، الأمر الذي جعله يؤلف هذا الكتاب الذي يقع في 85 ورقة، وقد كان المصدر الأساسي له كتاب أطلس مينور الذي ترجمه حاجي خليفة، وبعض المصادر التاريخية.

وقد بدأ حاجي خليفة تأليف هذا الكتاب في الرابع عشر من شهر كانون الثاني عام 1654م، وأشار إلى أنه يحتوي على معلومات لا توجد في الكتب العربية والفارسية والتركية التي قرأها. والكتاب ينقسم إلى قسمين، ومقدمة. القسم الأول

---

(1) Bursalı Mehmet Tahir. Katib çelebi. s. 130.

(2) Babinger. Der osmanen. s. 200.Osmanlı Müellifleri. c.3. s. 130.

عن الأديان الأوروبية، والثاني عن قوانين وعادات الحكام الأوربيين. وقد قسّم كل قسْم إلى قسمين آخرين، أوضح فيهما شكل الإدارات في البلدان الأوروبية، مثل: الديمقراطية، والأرستقراطية، والجمهورية، وأصول الانتخابات، وعلاقة تلك الدول بالعثمانيين [1].

9 - سلم الوصول إلى طبقات الفحول:

كتاب طبقات باللغة العربية مرتب أبجديًّا. وينقسم الكتاب إلى قسمين، الأول: عن الرجال المشهورين بأسمائهم، والآخر: عن الرجال المشهورين بكنيتهم أو ألقابهم، وكل حرف به يعد بابًا. ويعد هذا الكتاب بمثابة الفهرس لمؤلفي الكتب التي ذكرها في كتابه كشف الظنون. ويعد حاجي خليفة القسم الثاني من الكتاب هو الأهم والأكبر من وجهة نظره؛ حيث صرح بأنه كان يشعر بالحاجة إليه فعلًا. وقد اتخذ حاجي خليفة كتاب تحرير اللباب للسيوطي أساسًا له في كتابة هذا الكتاب، وهو يتضمن كل أسماء المؤلفين- تراجم أحوال عنهم- المشهورين في الشرق. وقد أضاف حاجي خليفة الكثير إلى ما أورده السيوطي في كتابه المذكور، وفرّق بين ما أضافه هو إلى كتاب السيوطي وبين ما أضافه السيوطي إلى ابن الأثير، وبذلك تم الكتاب في ليلة القدر عام 1053هـ[2].

تزيد عدد المصادر التي أخذ منها عن المائة كتاب، كان يذكرها كلما تحين الفرصة، ومعظمها عن التراجم [3].

وقد تم الكتاب في أواخر ذي الحجة عام 1058هـ[4]، والنسخة الوحيدة المخطوطة منه على هيئة مسودة. وبتلك النسخة نجد في بعض الأماكن أسماء قد كُتبت، ولكن لا توجد لها معلومات، وتزيد تلك المسألة في نهايات الكتاب خاصة في حروف (ع- غ- ف - ق - ك)، ولوجود فيشات ملصقة بالنسخة لا تعود للمادة المذكورة في نفس

(1) Mesut Koman، irşad al –hiyara، Konya halkavi aylık Kültür dergisi، Mayıs 1945، sayı79، s. 20.

(2) Sullam al –vusul، 553 a.

(3) bak mesela 60b، 61 a.

(4) bak s. 567 b.

الصفحة، يتضح لنا أن حاجي خليفة كان قد أعد تلك الفيشات عن تلك المواد مسبقًا. كما قام بتلخيص بعض المواد بنفسه في بعض الأحيان[1].

وهذه النقطة هامة؛ لأنها تعطينا فكرة عن أسلوب عمل حاجي خليفة، وكيف كان يؤلف الكتب. وبآخر الكتاب، خاتمة بها فوائد متفرقة، أورد فيها معلومات عن لطائف العلماء، والعلماء الذين اشتهروا بكثرة مؤلفاتهم[2]، ومن اشتهروا بالذكاء المفرط من الشباب والشيوخ. وقد قام مستقيم زاده بإكمال الكتاب حتى وقته – أي حتى عام 1175هـ[3]، على شكل إضافة أنساب وألقاب وملخص الأشخاص، الذين كتبهم في كتابه. والنسخة المخطوطة الوحيدة محفوظة بمكتبة شهيد علي باشا برقم 1877. كما توجد نسخة أخرى في المكتبة الخديوية في القاهرة، ولكنها نسخة ناقصة عبارة عن 222 ورقة فقط، تنتهي بمادة بخت النصر[4].

10 – جهاننما:

يستحوذ هذا الكتاب على أهمية كبرى؛ نظرًا لأنه فتح بداية عهد جديد في الفكر العثماني في الساحة الجغرافية، وهو نقطة تحول في تلك الساحة أيضًا؛ لأنه يمثل تحولًا من الفكر الشرقي إلى الفكر الغربي. وبالرغم من عدم وجود ولو نسخة واحدة أصلية مكتملة لهذا الكتاب، إلا أن طبعة إبراهيم متفرقة ترجمت عدة مرات إلى اللغات الأوروبية. وقد استفاد العديد من الرحالة الغربيين سواء من النسخة الأصلية المكتوبة باللغة التركية، أو من النسخ المترجمة في تحديد المواقع الجغرافية في رحلاتهم في آسيا الوسطى في النصف الأول من القرن التاسع عشر. كما وسّع الكتاب بدرجة كبيرة زاوية الفكر عند شريحة عريضة من المثقفين في تركيا، وساقهم إلى تأليف العديد من المؤلفات الجغرافية الأخرى.

---

(1) bak 137 a.

(2) Cevdat, Muallimler Mecmuası, sene 5, 1926, sayı43 - 44, s. 180.Bursalı, a.g.e.c.3 s. 128

(3) Macallat al - nişab, Halet Efendi kitabları, nr 628, 447 a.

(4) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الهلال 1931، ج3، ص 310.

وكان الكتاب بمثابة النجاة من ضيق الأفق الفكري الشرقي في العصور الوسطى، والانفتاح على الفكر الغربي المستنير في هذا المجال.

وقد قال حاجي خليفة– وهو يحدد فائدة علم الجغرافيا – بأنه يُمكّن الشخص وهو جالس في مكانه من التجول في الكرة الأرضية كلها في لحظة واحدة، وكأنه رحالة قضى عمره كله يجوب الأرض ويطالع الكتب الجغرافية. وأوضح حاجي خليفة بأنه قرأ كتب الجغرافيا، وكتب المسالك والممالك، ورسم الخرائط للعالم، ووجد أن المعلومات التي قرأها في الكتب المؤلفة باللغات الفارسية والعربية والتركية ليست كافية، ومختلطة. لذا؛ نوى أن يقوم بخلط كل تلك المعلومات التي قرأها ويؤلف منها كتاب في الجغرافيا باسم (جهاننما)، وقد بدأ المؤلف في الكتاب مرتين. ولم يترك الكتاب في المرتين كاملاً.

ويتكون الكتاب من قسمين، الأول: عن البحار والأنهار والجزر فقط، أما القسم الثاني: فيتناول اليابسة، وبها البلدان مرتبة تربيًا أبجديًّا، والبلدان التي اكتُشفت بعد القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[1]، وقد ذكر حاجي خليفة في مقدمة جهاننما[2] أو في مقدمة[3] الأطلس مينور، الذي ترجمه ونقله إلى جهاننما، أنه بعد أن ينهي المقدمة والقسم الأول سيتناول البلدان (على الجانب الآخر للأناضول من حد الروم)، وبعد أن يشرح – بشكل إجمالي – بلاد البندقية والفاتيكان وفرنسا، سيشرع في ذكر جزر البحار الغربية [4]؛ ولأنه لم يجد معلومات قط عن إنجلترا وهيبرانيا ونيوزلندا، فقد الأمل تمامًا في إتمامه للقسم الثاني من الكتاب. وبالتالي ترك الكتاب بأكمله.

ومن الواضح أن حاجي خليفة بدأ في تأليف نسخة جهاننما الأولى في عام 1058هـ (1648م)[5]. وكان من حظه أن قام جيرهارد ماركتور بإهدائه نسخة من كتاب الأطلس مينور، التي قام بترجمتها إلى اللغة التركية بمساعدة راهب فرنسي أعلن إسلامه وهو الشيخ محمد

(1) Kaşf al –zunun، c.1. s. 622. Adıvar، a.g.e. s. 121.

(2) Mll، nüshası، Topkapı sarayı، Revan nr 1624، 1b.

(3) ayn yer.

(4) Topkapı sarayı Kütp، Revan nr 1624، 160b.

(5) Mizan al –hakk، ist 1306، s. 143.

الإخلاصي[1]. وعندما أتم حاجي خليفة ترجمة ثلثي هذا الكتاب، بدأ في كتابة وتبييض النسخة الثانية من جهاننما، وذلك في أواسط شهر المحرم عام 1064هـ (مارس 1644م)[2].

وبخلاف الأطلس مينور والأطلس ماجور[3]، ترجم حاجي خليفة - أيضًا - كتاب Fabric Mundi لكالابريالي لورينز[4]، وغيرها من الكتب الأخرى التي استفاد منها حاجي خليفة في ذكر الأماكن، التي لم يتمكن من العثور عليها في المؤلفات الموجودة عنده[5].

كما يذكر حاجي خليفة - أيضًا - المؤلفات الشرقية بشكل نقدي، ومنها كتاب مناظر الأولين[6]، كما استفاد بطريق الترجمة من الرحلة المسماة عجائب اللطائف والكتب التي نقلت عنها[7]. أما معلوماته عن جاوا وسومطرة وسيلان والجزر الأخرى المجاورة، فقد نقلها من كتاب المحيط لسيدي على رئيس[8]. وبخلاف المصادر التي ذكرها حاجي خليفة في المقدمة، أورد - أيضًا - المصادر التاريخية التي استفاد منها كلما دعت الحاجة إلى ذكرها، وأحيانًا كان يصحح بعضها.

ومخطط كتاب جهاننما في النسختين الأولى والثانية مختلف في النسختين، كما أن المصادر بهما ليست مرتبطة ببعضها[9]. وقد توفي قبل أن يتم الكتاب. ولكنه كان قد وصل بالبلدان إلى الدولة العثمانية، وكانت إيالة وان هي آخر مكان يتناوله في الكتاب[10]. وقد طُبع الكتاب لأول مرة في 10 محرم 1145هـ على يد إبراهيم متفرقة، وكان ترتيب الكتاب في المطبعة الحادي عشر. وكان من الطبيعي أن يقوم متفرقة بطبع الكتاب في

(1) F. Taeschner، Zur geschichte des Cihannüma، MSOS، 1926، s. 102.

(2) Adnan Adıvar، a.g.e. s. 122.

(3) Müellif nüshası، ayn yerde.

(4) Ayn yer، 3b.Adıvar، a.g.e. s. 123.

(5) Cihannüma، ayn yer، 4a. Adıvar، a.g.e. s. 123.

(6) Babinger، Ein türkischer stiftungsberif des Nerkesi، MOG، c.1. Wien 1922، s. 151.

(7) Basma Cihannüma، 165.

(8) Adıvar، a.g.e. s. 71.

(9) Basma Cihannüma، 123.

(10) Müteferrika Basması 422.

مجلدين أحدهما عن آسيا، والآخر عن أوروبا بالإضافة إلى الأقسام، التي لم يتمكن حاجي خليفة من إكمالها [1].

على أي حال توجد مقالات متعددة كتبها F.Taeschner في هذا الموضوع لمن يريد الاستزادة بمعلومات مفصلة عن شكل النسختين ومحتوياتهما[2].

11 - لوامع النور في ظلمة الأطلس مينور:

وهو الكتاب الجغرافي الثاني المهم لحاجي خليفة. وهو ترجمة للأطلس مينور الذي ألفه ماركتور وهونديوس. وقد ترجمه حاجي خليفة إلى اللغة التركية بمساعدة الشيخ محمد الإخلاصي [3]. بدأ حاجي خليفة في ترجمته في أواسط شهر المحرم عام 1064هـ، ولم يقم بعمل أي اختصارات أو إضافات سوى بعض الحواشي التي كان يضطر لشرح اسم أو موقع غامض بها [4]. وبالرغم من أنه قدم بعض الإيضاحات من خلال تلك الحواشي، إلا أن المعلومات الأساسية أو الأفكار التي قدمها المؤلف، إنما هي بمثابة الرفض أو النقد [5] ويُفهم من الاعتذار الذي صرح به حاجي خليفة في الكتاب عن الأسلوب، أنه لم يترجمه بقصد الترجمة، وإنما كان كمادة لكتابه جهاننما[6]، لذا؛ فإن أسلوبه لا يخلو من الألفاظ الركيكة والعبارات المضطربة. وأغلب الظن أنه قام بهذا الاعتذار باسم الشيخ محمد الإخلاصي الذي كان له الدور الأكبر في الترجمة؛ لعدم معرفته الجيدة باللغة التركية.

يبدأ الكتاب من منطقة القطب الشمالي ونيوزلندا. وهو على شكل جغرافي يتناول بلدان أوروبا وجبالها وأنهارها، كما توجد بعض المعلومات التاريخية، وشكل الإدارة في تلك البلاد. وبالنسبة للمعلومات الواردة في الكتاب عن آسيا وأفريقيا وأمريكا، نجدها غير مفصلة بنفس القدر الذي تناول به بلدان أوروبا [7].

(1) Tezyil al - tabi. s. 422.

(2) Die geographischen literature der osmanen. ZDMH. 1923. s. 31.

(3) Adıvar. a.g.e. s. 122.

(4) levami al - nur. Koprülü Mehmet Paşa. Fazil paşa ktp nr 178. 1b.

(5) Nurosmaniye Kütp. nr 2999. Müellif nushası. 316 b.

(6) isim için. Topkapı. Revan nr 1624. 2b.

(7) Nurosmaniye Kütp. nr 2998. Müellif nushası. 2a.

12 – إلهام المقدس في الفيض الأقدس:

وهي رسالة كتبها حاجي خليفة أثناء اشتغاله بعلم الهيئة[1]، فقد وجهت ثلاثة أسئلة فقهية إلى شيخ الإسلام بهائي أفندي، وهي عن تحديد أوقات الصلاة والصوم في البلدان التي يوجد بها فرق كبير بين أوقات الليل والنهار بسبب كروية الأرض، ولما لم يجب شيخ الإسلام عن تلك الأسئلة؛ كتب حاجي خليفة إجابات عنها في تلك الرسالة، وتلك الأسئلة هي:

- تحديد أوقات الصلاة والصوم في بلدان الجزء الشمالي من الأرض.
- إمكانية سطوع وغروب الشمس من مكان واحد في العالم كله.

إذا توجهنا إلى أي مكان، هل سيكون هناك مدينة أخرى غير مكة في جهة القبلة؟

وقد أجاب حاجي خليفة على السؤال الأول بما ذكره فقهاء الفقه الحنفي، أما السؤال الثاني، فقد أجاب عنه من كتاب سدرة المنتهى لتقي الدين أبي بكر محمد. أما السؤال الثالث فأجاب عنه من خلال تعريف الإمام خسرو للقبلة. ولكنه قبل أن يشرع في الإجابة على تلك الأسئلة ذكر بعض التعريفات البسيطة الخاصة بعلم الهيئة، وذلك حتى يسهل الأمر على قارئ الكتاب. وقد صحح في آخر الكتاب رأي شيخ الإسلام بهائي أفندي [2].

13 – كشف الظنون عن الأسامي والفنون:

كتبه حاجي خليفة في عشرين سنة، وهو قاموس ببلوجرافي كبير، أورد فيه أسماء كل الكتب التي قرأها بنفسه، أو التي رآها في المكتبات أو حوانيت الكتب، ورتبها ترتيبًا أبجديًّا، وقد أورد المؤلفات التي لها أسماء وذكر مكانها ومؤلفها وتاريخ تأليفها، والكتب المتعلقة بها، كما أخبر بشروحها وحواشيها، كما سجل في الكتاب الأماكن التي مرّ بها، والأماكن التي سيمر بها في المستقبل.

أما الكتب التي لم تكن تحمل أسماء فقد نسبها إلى مؤلفيها، أو إلى العلم الذي تنتسب إليه [3]، كما كان يوضح أبواب وفصول المؤلفات ويشير إلى مقدماتها، وقد تناول

(1) Cihannüma basması, lahika, s. 21.

(2) Nurosmaniye nr 4075. 1b. Cihannüma basması, 375, Mizan al –hakk 143.

(3) Kaşf –al zunun, c.1, sütun 2, fi ahval el ulum.

حاجي خليفة في مقدمة الكتاب أهمية العلم وتقسيماته، ونبذة تاريخية عن العلوم، وذكر أسماء كل العلوم، وعرّف بموضوعاتها.

وقد استفاد حاجي خليفة من كتاب مفتاح السعادة لطاش كوبرو زاده، وخاصة في مقدمة الكتاب، بالإضافة إلى أنه كان يذكر بوضوح المؤلفين الذين رجع إليهم مثل مؤلفي الطبقات وابن السبكي[1].

وثمة بعض الأخطاء النحوية والاصطلاحات الفنية التي يصعب فهمها في الكتاب، وكذا وجود بعض المؤلفات لم يذكر معلومات كاملة عنها، وهذه الأشياء بالطبع لا تقلل من قيمة الكتاب[2].

وقد ورد بالكتاب 14500 اسم كتاب ورسالة، 10000 منها ذُكر فيه اسم المؤلف، والشارح إن وُجد.

تم طبع الكتاب على يد فلوجل في الفترة من عام 1853 إلى عام 1858 على هيئة مجلدين، هما النص العربي والترجمة اللاتينية له، وكانت تلك هي الطبعة الأولى في ليبزيج، أما الطبعة الثانية فكانت في سبع مجلدات في لندن[3].

14 - تحفة الأخيار في الحكم والأمثال والأشعار:

كتاب في المحاضرات، رُتب على الحروف الأبجدية، وهو كتاب موسوعي، سمير للخلوة على حد تعبير المؤلف. جُمعت مادة الكتاب من مصادر مختلفة باللغات الفارسية والعربية والتركية، وقد فكر حاجي خليفة بأن يجعله على شكل مرتب يتضمن كل معاني الفنون، وأن يكون على نسق كتاب الجماني. والكتاب يشتمل على الأشعار والأمثال ومعلومات عن المباحث المتنوعة، ومعلومات عن الحيوانات، والنبات، والطيور، واللطائف[4] ونكات أدبية، وفلسفية، ومعلومات عن إدارة الدولة وعن الأسرة. وقد رتبه على نفس الطرز التي رآها في كتب المعاجم، فكان يذكر الكلمة وما يندرج تحتها من

(1) Kaşf – al zunun, Flügel neşri, Mukaddima, 13.

(2) Kaşf – al zunun Şerefüddin Yaltkaya ve Muallim Klisli Rifat, Mukaddima 12.

(3) nşr Flügel, Mukadima 1 - 13. Babinger, der osmanen, a.g.e. s. 198.

(4) على سبيل المثال، انظر: مادة بكر وبكارة.

معلومات ونكات، من ذلك على سبيل المثال كلمة أوائل، أدرج تحتها كل الأوائل من الشعراء والشعر، والقضاة وغير ذلك، ولا يعتبر الكتاب مجرد تسلية لقضاء وقت جميل، وإنما هو كتاب هام لما يحويه من معلومات هامة في موضوعات مختلفة [1].

15 - الدرر المنتشرة والغرر المنتشرة:

هي مجموعة ألفها حاجي خليفة من المختارات التي انتقاها من المباحث والموضوعات المختلفة والنقاط المفيدة، أثناء قراءته لكتب الوفيات والطبقات التي استخدمها لتأليف كتاب ببلوجرافي. ولم يورد في مقدمة هذه المجموعة اسمًا خاصًّا لها، بل قال عنها الدرر المنتشرة والغرر المنتشرة والظواهر المختلفة وجواهر غير متألفة تشتمل على فوائد وافية. والمجموعة تشتمل على موضوعات مفيدة ومختلفة انتقاها من الكتب، مثل:

استقبال القبلة، وآداب الطعام، والافتقار والذل، والجنين في بطن المرأة، واليقين والطمأنينة، وشرط صحة الملوك، والصلاة في جوف الكعبة، وعقوق الأستاذ، والمسألة السراجية، وموضوع العبادة، والسر المكتوم، وعيادة المريض، وذم الشعر، وتعصب الذهبي، وفتنة الأشعرية والحنفية، وإنكار الكرامات، ومزج الخمر بالماء، والشطرنج، وبغداد، والجواب الظاهر، والخوف والرجاء، والقناعة، ولذة التقبيل، والإفطار، ورد القاضي لكتاب السلطان، والافتخار بالبخل.

وقد استخرج تلك المسائل من كتب بعض المؤلفين، أمثال: الغزالي، والحارث المحاسبي، والشافعي، والإصطخري، وأبو ثور، وابن جرير، وابن سريج، وأبو القاسم، والقشيري، وابن السبكي، والذهبي.

والمجموعة عبارة عن 243 ورقة، الورقة الواحدة بها 24 سطرًا، من الحجم المتوسط أبعادها 8.5 × 16 سم. وهذه المجموعة هي التي ذكرها حاجي خليفة في كتابه "ميزان الحق" بأنها مجموعة في نوادر الطبقات والتواريخ [2].

16 - دستور العمل في إصلاح الخلل:

في عام 1063هـ الموافق 1652 - 1653م عُقد الديواني الهمايوني لبحث سبل مواجهة الأزمة المالية، وعجز الميزانية في الدولة العثمانية، وذلك بسبب قلة الدخل وزيادة

(1) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، ص 317.

(2) Süleymaniye Kütp. Lale ismail Aga ktp nr 694.

المصروفات بشكل كبير، ومحاولة إيجاد حل لتلك الأزمة، وبحث مسألة جمع ضرائب السنة المقبلة مقدمًا، حتى يتم تدارك تلك الأزمة، وقد اشترك حاجي خليفة في هذا الديوان.

وبناءً على ما سمعه في الديوان، وعلى خبرته العريضة بصفته رجلًا قرأ التاريخ، وله خبرة في السفر والحضر، فقد ألف كتابًا صغيرًا في هذا الموضوع، كان يتكون من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة[1]. وقد سمَّاه دستور العمل لإصلاح الخلل، وكان أمله كبيرًا في أن يستفيد رجال الدولة من هذا الكتاب.

وفي مقدمة الكتاب، ذكر حاجي خليفة أن حياة المجتمع مثل حياة الإنسان تنقسم إلى فترات وعهود [2]، وأن لكل عهد علامات خاصة به، وأن الدولة العثمانية قد دخلت في طور التوقف، وذكر علامات ذلك، وأنه أصبح لازمًا عليه أن تتخذ الإجراءات اللازمة لتدارك هذا الوضع، وأن العلاج ينقسم إلى قسمين روحاني وجسماني، ولكل مرحلة وعهد علاج خاص به، وفي الفصل الأول تناول حياة الرعية، وأن السلطان يدير المجتمع بواسطة رجال الدولة، وأن هذا المجتمع يتكون من أربعة أركان رئيسية، هي: العلماء، والجند، ورجال التيمار، والرعية. وأن الأربعة أركان المذكورة إنما تستفيد من بعضها البعض، كما تستفيد العناصر الأربعة الموجودة في جسم الإنسان من بعضها، ولو حدث هذا التفاهم والتعاون بين الأركان الأربعة لحدث تناغم وانتظام في المجتمع.

وقال إنه رأى كل القرى خربة أثناء حملاته التي استمرت 12 عامًا. وعدد أسباب ذلك وهي الضرائب الباهظة والرشوة والانحرافات التي تفشت في المجتمع. وأنه ما لم يتم تدارك ذلك؛ سيكون الظلم والثورة سببًا في خراب الدولة.

أما الفصل الثاني: فتحدث فيه عن الجند، وقال إن عدد الجنود في تزايد مستمر، وهو ما يعمل على زيادة مصاريفها، وبالتالي يجب خفض عدد الجند إلى النصف، والإجراءات التي يجب أن تتبع في ذلك.

أما الفصل الثالث، فخاص بالخزينة، وأوضح كيف زادت مصاريف الخزينة العامرة حتى عام 1060هـ الموافق 1650م. وفي الخاتمة، ذكر التدابير التي يجب اتخاذها

(1) Dustur. Nurosmaniye Kütp. nr 4075. 30 a – 35 b. Naima Tarihi c.1. s. 53.

(2) Arapça fezleke. 991.

لتفادي مثل تلك الأزمة، كما أشار في آخر الكتاب إلى أن هذا الضعف الذي بدا يظهر في الدولة، إنما يعود بجذوره إلى حادثة تيمورلنك [1].

17 - **رجم الرجيم بالسين والجيم:**

وهو كتاب يتضمن بعض المسائل الفقهية الغريبة، التي أصدرها شيخ الإسلام في عام 1064 – 1065هـ. ومن الواضح أن هذا الكتاب غير موجود اليوم[2].

18 - **شرح تفسير البيضاوي:**

قرأ حاجي خليفة تفسير البيضاوي على معلمه مصطفى أفندي الأعرج [3]، وبدأ في كتابة شرح له على نسق قره كمال في عام 1052هـ/ 1642م، وكان يكتب كل يوم صفحة[4].

ولأنه لم يورد أي معلومات أخرى عن هذا الكتاب، فإما أن يكون الكتاب قد كُتب وفُقد، أو يكون حاجي خليفة قد توقف عن كتابته بعد البدء فيه.

19 - **شرح المحمدية:**

كتب حاجي خليفة هذا الشرح لكتاب المحمدية لعلي قوشجي بناءً على طلب تلميذه مولانا محمود ابن العالم أحمد الرومي الآق حصارلي. وقد كانت ثمة علاقات مودة وألفة بين حاجي خليفة وبين تلميذه هذا، وكان الشرح يتناول الجبر والمقابلة، ولوفاة هذا التلميذ عام 1058هـ؛ ترك حاجي خليفة هذا الشرح، ولم يبيضه[5]، ومن الواضح أن النسخة المخطوطة منه قد فُقدت أيضًا.

20 - **جامع المتون من جل الفنون:**

ذكر بابنجر خطأً أن هذا الكتاب يحتوي على كليات وفنون أدبية وتاريخية مجموعة على شكل الاقتباس من 300 مجموعة [6]، إلا أنها عبارة عن مجموعة ألفها حاجي خليفة

(1) Bursalı Mehmet Tahir، Osmanlı Müellifleri، c.3، s. 129. Almanca tercümesi için bak babinger، ayn yer.

(2) Mizan al –hakk، 144.Şeyhi، Vakai al vuzala Veliyyüdin Efendi Kütp nr 2361، c.1 s. 131.

(3) Mizan al –hakk، 135.

(4) ayn eser، s. 136.

(5) Sullem al –vusul، 42 a.Mizan al - hakk 139.Adıvar a.g.e. s. 128.

(6) Babinger، der osmanen، a.g.e. s. 201.

من خلاصة وشروح 27 كتابًا قرأها أو درّسها [1]. ثم أضاف لها بعد ذلك (مقدمات نافعة) على حد تعبيره لتكون تذييلًا أو تتمة للكتاب. وتلك المقدمات، هي: مقدمة في علم التفسير من إتمام الدراية، تعليم المتعلم، بداية الهداية في التذاكر، مقامات الحريري في الأدب، جهينة الأخبار في التواريخ [2].

والأقسام الأولى من الكتاب بخط يد حاجي خليفة، أما بقية أقسام الكتاب فهي بخط يد قرنبادي مصطفى أفندي المعروف بالطالب. والنسخة الوحيدة المعروفة من الكتاب محفوظة بمكتبة طوب قابي سراي بقسم خزينة الأمانات برقم 1763، وهي نسخة من 666 ورقة [3].

21 – ميزان الحق في اختيار الأحق [4]:

آخر عمل لحاجي خليفة، ألف في شهر صفر عام 1067هـ، والكتاب يتناول الموضوعات، التي كانت مثار الجدل والنقاش في عهده، ويقول حاجي خليفة عن هذا الكتاب "لقد ألفت هذا المختصر لإرشاد الناس إلى الاعتدال" [5]. يبدأ الكتاب بمقدمة عن أهمية العلوم العقلية، ثم يتناول بعد ذلك مباحث مختلفة. ويدافع حاجي خليفة في الكتاب عن العلوم العقلية، ويضرب أمثالًا من علوم الجغرافيا والهندسة والفلك [6].

كما أوضح أن الناس منذ بدء الخليقة منقسمون إلى مذاهب وفرق، وكل فرقة متعصبة لرأيها، ومقتنعة بأنها الصواب.

---

(1) Süleymaniye Kütp، Lale ismail aga ktp nr 694.

(2) -. bak 5 a.

(3) Bursalı Mehmet Tahir، Katip çelebi، s. 129

(4) Süleymaniye Kütp، Beşir aga nr 554، vr 2a.

(5) Mizan al - hakk، s. 133.

(6) Adıvar، a.g.e. s. 119.

أما المباحث التي يتناولها الكتاب فهي:

1 - المبحث الأول تناول فيه حياة الخضر، وشرح ماهية الحياة وأنها تقوم على المادة، وأنه يمكن للواصلين أن يروا بعض الأموات بطريق الرياضة. وأوضح أن تفسير حياة الخضر على هذا الشكل تفسير صحيح.

2 - مبحث التغني.

3 - مبحث الرقص والدوران.

4 - التصلية والترضية.

5 - التبغ.

6 - القهوة.

7 - الأفيون وسائر المكيفات.

8 - مسألة إيمان أو كفر والدي الرسول.

9 - إيمان فرعون.

10 - الاختلافات الواقعة بخصوص الشيخ محيي الدين بن عربي.

11 - لعن يزيد.

12 - البدعة.

13 - زيارة القبور.

14 - صلاة القدر والبراءة والرغائب.

15 - المصافحة.

16 - الانحناء.

17 - الأمر بالمعروف.

18 - الأمة وتعني هل يجوز لشخص من أمة محمد أن يقول أنا على ملة إبراهيم.

19 - الرشوة.

20 - مبحث في أبي السعود أفندي ومحمد أفندي البركلي.

21 - مبحث في قاضي زاده والسيواسي.

وقد اختار حاجي خليفة في تناوله لكل تلك المباحث طريق الوسطية والتسامح، وعدم إيقاع الناس في العنت، وأنه من غير الصواب التعصب في تلك الأمور. ومن

ذلك على سبيل المثال، عند تناوله لمسألة السلام، رأى أن يكون الأحرى فيها دائمًا تتبع العرف والعادات؛ لأنه من الحماقة الانشغال بصرف الناس عما اعتادوا عليه.

أما في خاتمة الكتاب، فقد تحدث حاجي خليفة عن نفسه من قبيل الحديث بالنعمة، ورؤيته للنبي – ﷺ – في المنام، وإرشاد الرسول له، ثم تأتي بعد ذلك الوصايا، وهي وصايا للحكام والطلاب والواعظين [1].

وقد نشرها شناصي متفرقة في جريدة تصوير الأفكار، ثم طبعت بعد ذلك ثلاث مرات، الأولى: عام 1281هـ[2] والثانية: 1286هـ[3]، والثالثة: 1306هـ[4].

وقد علِمنا أن لحاجي خليفة – أيضًا – رسالة في التبغ، وكتاب آخر باسم تكملة ابن خلدون، وبالرغم من أن هذا العمل الأخير يوجد في الفهرس، إلا أن ما فهمناه من قيد حاجي خليفة أنه مسح هذا العمل، وأضافه بعد ذلك.

---

(1) Fetvanın aslı Miza al - hakk، Süleymaniye Kütp، Bagdadlı Vehbi Efendi ktp nr 1747/ 760، vr 1a.

(2) 23 Ramazan 1280، sayı 175.

(3) Babinger، der osmanen، s.

(4) mortmann، islam Ansiklopedisi، Katip çelebi maddesi.

تحفة الكبار

في

أسفار البحار

الحمد والشكر لله خالق الأرض ورب الأرض والزمان، الذي أيّد جنود الإسلام بمضمون النص الكريم: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] وأيدهم بتخويف أعداء الدين بوعد النظم المبين ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[2] وجعل النصر والظفر منوطًا بالصبر والثبات بقوله ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[3].

والتحية والورد المبارك على سيد الأنام محمد المصطفى - ﷺ - المستحق للصلاة والسلام، الذي بشر الأمة المباركة بدرر كلامه (ستفتح عليكم الأمصار). والسلام والرضى الدائم على آله وأصحابه الكرام، الذين هم تحفة الأنام إلى يوم القيامة، وبعد.

فقد تحقق في عام 1055هـ فتح جزيرة كريت من الفتوحات الإسلامية، التي تحققت مصداقًا للكلام المعجز النبوي، وفي خلال عشر سنوات، أصبحت سائر القلاع والبقاع في الجزيرة المذكورة تحت تصرف المسلمين، فضلًا عن قلعة قانديا التي كانت مركزًا للجزيرة المذكورة، وبحسب الباعث المذكور حدثت أحداث ووقائع كثيرة في البر والبحر، ولوجود بعض القصور في الأسباب، والفتور في التدبير؛ تغلب الكفار في بعض المعارك البحرية، وهو ما اقتضى غيْرَةَ المسلمين الذين هم أصحاب دين النصرة، وبموجب قول المتنبي فارس الشعراء:

لا خَيْلَ عِندَكَ تُهْديهَا وَلا مالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ

قام حاجي خليفة مسوّد هذه الأوراق بجمع ما قاله سلاطين السلف عن حروبهم مع الملاعين في هذا الشأن، ولماذا قهروهم، ورأي وأقوال القادة البحريين والقراصنة عن حروبهم، ورأي بعض العقلاء وأصحاب هذا المجال، والتدابير التي اتبعوها، والأسطول والحملات؛ وذلك بهدف تأييد جانب الدولة العلية، وتشتيت جمع أعداء الدين.

---

(1) سورة الصافات، الآية 173.

(2) سورة آل عمران، من الآية 151.

(3) سورة الأنفال، من الآية 45.

وسميته "تحفة الكبار في أسفار البحار".

وبعد إتمامه؛ قدمته إلى ركاب حضرة السلطان ولي النعمة المسمى على اسم رسول الله، سلطان البرّين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان، السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان، خلّد الله ملكه، وأيد سلطنته إلى انتهاء الزمان، وآمل أن يتم النظر إلى مفهومه، والالتفات إلى نفعه.

وهذا، سيكون على مقدمة مختصرة، وقسمين، وخاتمة.

مقدمة

إن الأمور التي نحن بصدد بيانها متوقفة على تعيين الأماكن وتصوير الحدود.

التمهيد

لا يخفى أن فن الجغرافيا واحدٌ من الأمور اللازم العلم بها لمن هم يدبرون شئون الدولة، وإن لم يتم التعرف بأحوال الكرة الأرضية جملة؛ فلن يتم التعرف على شكل البلدان المحروسة وحدودها، وكذا أشكال البلدان الواقعة على حدودها وفي الأطراف، ويجب العلم بها؛ لأنه عند إرسال الجنود أو الحملات إلى مكان ما، فسيتم اتخاذ التدابير طبقًا لها، كما أن التجوال في بلدان الكفار وتدابير حفظ وحماية حدودها سيكون سهلًا بتلك المعرفة المذكورة.

والمشورة مع الأشخاص الذين ليست لديهم خبرة في هذا الفن ليست كافية، حتى ولو كانوا من أهالي هذا المكان؛ لأنه يوجد الكثير من أهالي الأماكن يعجزون عن تصوير وتحقيق مكانهم.

والدليل الكافي والبرهان الوافي على أهمية هذا العلم، هو أن الكفار المنحوسين تقيدوا به واعتبروه؛ فاكتشفوا به العالم الجديد، واستولوا على بنادر الهند والسند، وقوم مخذولون مثل البنادقة اقتصرت رتبة الدوقية عليهم بين ملوك الكفار، أما فيما بينهم فهم صيادون. وقد أتى هؤلاء القوم إلى مضيق الممالك المحروسة، وأصبحوا أعداءً لدولة عظيمة الشأن تحكم الغرب والشرق.

وحتى بيان الأماكن المراد الخروج إليها من هذا المقام؛ علينا أولًا أن نقسم الكرة الأرضية إلى دائرتين، بعدها نرسم البحر الأبيض والبحر الأسود في صحيفة أخرى، ثم نحدد حدود البندقية والنمسا، وسيظهر لنا في أول الأمر وضع الكرة الأرضية، كما سيتحصل لنا علم إجمالي بحدود البلدان المحروسة، وبعدها نستعد من أجل الشروع في التدابير الخاصة بالحملات البرية والبحرية، كما سيتم العلم بموقع مدينة البندقية وقلعة زاردة وجزيرة الخليج، ولكن على أن يتم رسم كافة البحار واليابسة على الكرة الأرضية في هاتين

الدائرتين، على أن يكون في الدائرة الأولى نصف الأرض والربع المسكون القديم، وفي الدائرة الثانية النصف الآخر ما يطلقون عليه العالم الجديد المكتشف بعد ذلك.



ها هي الكرة الأرضية ببرها وبحارها، كما خطت في داخل هاتين الدائرتين، الدائرة الأولى هي نصف الكرة الأرضية وهو الجزء المعروف، والمعمور منه، أما النصف الآخر فهو الجزء الذي اكتشف فيما بعد، والذي يعرف بالدنيا الجديدة.

اكتشاف الكرة الأرضية وتوضيحها

إن الكرة الأرضية التي تدور في وسط الكون بواسطة الانجذاب أو الدفع، فيها أماكن برزت من عنصر الماء من مكان لآخر، وقد أظهر البارعون في فن الجغرافيا هذه الأماكن في خطوط الأماكن، التي تم تلوينها باللونين الأحمر والأصفر في داخل الدائرتين. واللون الأصفر يدل على اليابسة، والألوان الحمراء الصغيرة تشير إلى الجزر. واللون الأزرق يدل على البحار. والخط الممتد من وسط الدائرتين هو خط دائرة الاستواء. والدائرتان الحمراوان على جانبيهما علامة على الميل الكلي، وإشارة إلى نهاية مدار الشمس في الجنوب والشمال. وخططت غير هذه الخطوط خطوطًا تدل على المدار القطبي والدوائر الطولية والعرضية في الأصل. وتعيين موقع مكان ما على الكرة الأرضية يتوقف على حساب خاص بمعرفة الخطوط الطولية والعرضية وقواعد معينة.

وقد وضحنا ذلك في كتاب (جهان نما) الذي يعتبر كتاب أطلس كامل. ووضحنا ذلك كله بالشرح والتفصيل. ويلزم هنا معرفة أن في كل دائرة ثلاثمائة وستين درجة، وفي كل درجة مسافة ثلاثة منازل، وعلى هذا يكون عدد المنازل في جميع جهات الكرة الأرضية ألفًا وثمانين منزلًا. وبناء على هذا، فإن من يذهب من الجهة الغربية يعود من الجهة الشرقية، وقد ثبتت هذه القضية بالتجربة.

ثم يقسم علماء هذا الفن خريطة العالم إلى أربعة أجزاء، مضيق (البحر الأبيض) مضيق (البحر الأسود) ومضيق(بحر آزوف)، وافترضوا من شمال نهر (تن) خطًّا وهميًّا يصل إلى المحيط، وأطلقوا على الأراضي الباقية في الجهة الغربية منه (أوروبا)، والأراضي التي ظلت في شماله (آسيا)، كما أطلقوا على أراضي الحبشة، ومصر، التي يفرقهما ويفصلهما البحر الأبيض والبحر الأحمر (أفريقيا)، كما أطلقوا على الدنيا الجديدة اسم (أمريكا)، وللدولة العثمانية نصيب من ثلاثة أجزاء في العالم، ولما أردنا أن نبين هذه الحصص بحدودها؛ فإننا رسمنا الجزء الأوروبي مع البحر الأبيض والبحر الأسود في صفحة واحدة، وأشرنا إلى حدود الجزء. وعند الحاجة فهذه الصفحة تكفي أن تكون مرشدًا.


صورت ممالك محروسه وفرنكستان

توضيح الصفحة

والبحر الأبيض الذي خطط في هذه الصفحة أكبر البحار الستة في العالم المأهول ما عدا المحيط الأطلسي ومضيق جبل طارق بن زياد، الذي يقع على خط الطول عند الدرجة الخامسة عشر. وفي الدرجة الثلاثين من الخط العرضي، حيث يمتد البحر الأبيض المتوسط إلى الجهة الشرقية حتى يصل إلى سواحل الشام حتى درجة الثلاثين من الخط الطولي، وتقع في السواحل الجنوبية منه: (فاس) (تلمسان) (الجزائر) و(تونس) و(المهدية) و(جربة) و(طرابلس الشام) و(طرابلس الغرب) و(إسكندرية مصر - ودمياط)، وتنتهي سواحل البحر المتوسط المغربية والعربية في (العريش)، وفي سواحله الشرقية (غزة) و(عكا) و(بيروت) و(طرابلس) و(الشام) و(باياس)، وفي سواحله الشمالية (سلفكة) و(آنامور) و(علائية) و(أنطاليا). ويلف من (رأس تكير) إلى أن يصل إلى (إزمير) حتى يصل إلى المضيق. وكل هذه أطراف بلاد الأناضول، وينتهي أمام جزيرة (بوزجا أطه).

ومن داخل المضيق إلى مضيق استانبول بحر صغير يمتد سبعمائة ميلًا، وفي سواحل هذا البحر: (قبوطاغي) (ميخالج) (مودانية) مضيق (كمليك) مضيق (ازميد) (إستانبول) (جكمجة) و(غاليبولي)، وفي داخله (مرمرة) وجزر (الأمير علي) و(قزل اطه لر). وبعد المضيق سواحل (روم ايلي) حيث (اجه اوواسي) و(انز) و(قواله) و(آيانوروز) (لونقوز) (كسنديره) و(خليج سلانيك) وخليجا (قولوز وإزدين) و(أغريبوز) و(آتته) و(الموره) ورأسا (أنابولو) و(منكشة)، ولهذين الرأسين نفس قيمة (رأس تكير) في الأناضول.

وهذه الأماكن ممرات وزوايا لمرور. وعندما يدخل من البر إلى البحر نحو جزيرة (كريت) فطرفاها الشرقي والغربي، ورأسهما يمتدان نحو رأسي (أنابولو) و(منكشة)؛ حيث توجد معظم جزر البحر الأبيض بين هذين الرأسين، لذا يطلق على هذا المكان ما بين الجزر. وقد أخذت جميع هذه الجزر من أهل (البندقية) وجنوة، ولم يظل في يد البنادقة إلا جزيرة (استنديل) في الوسط.

وكانت هذه الجزيرة قد أخذت قديمًا من (البنادقة)، إلا أنها بدلت بجزيرة (منكشة) لاقتضاء الظروف، وقد كتبت أسماء هذه الجزر وأشكالها. وبما أن هذا التوضيح يحتاج إلى وقت ومساحة، فإنه قد تُرك؛ لأن الغاية البحث عن سواحل (ألبانيا والبوسنة) ووصفها.

وعندما نعود من رأس (منكشة) إلى سواحل (الموره) مارًّا برؤوس (مانيا وموتون وخلوميج) وانتهاء بـ (بادرا)، وتمتد هذه المسافة ما يقرب من مائتي ميل لجزر البندقية على سواحل الموره، وجزر البندقية التي توجد مقابل السواحل المذكورة، هي:

جزيرة جوقة على بعد خمسة عشر ميلًا من الجهة الجنوبية من رأس منكشة، ومحيطها ستون ميلًا، ولها قلعة محكمة.

جزيرة (زاكليسيا) وتقع على بعد خمسة عشر ميلًا من رأس هولوموج في الجهة الغربية، ومحيطها ثمانون ميلًا، وهي جزيرة جبلية، ولها قلعة محكمة.

سواحل بلاد الأرناؤوط

تكتب هذه البلاد في الأطلس (ألبانيا)، وتقع على مدخل خليج (إينه بختي) على بعد ستة وخمسين ميلًا من (بَرَوَزَه)، ومن هناك إلى (أولونيه) ستون ميلًا، ومن هناك إلى (دراج) مائة ميل، ومن هناك إلى (نووه) مائة ميل. وعند الدوران من ميناء (الخبير) لجزيرة (آياماوره) التي توجد مقابل هذه السواحل، توجد قلعة (بروزه) في مدخل خليج (ناردا)، وهناك (باراجا) في مكان عالٍ عن البحر، وهي تابعة للبندقية. وخلفها جبل (مازارك) الصخري. وفي الجهة الشمالية منها مياه جارية وطواحين مائية وقرى. ويوجد بعد ذلك (جناق ليماني) وهو ميناء شهير مقابل لجزيرة الخليج، وقد بني هناك الآن حصنٌ.

وبعد المرور من هذا المكان، نجد بحيرة ذات أسماك كثيرة، وأمامها قلعة، ويقال إن أحد أبطال هذه البلاد قد استردها من البندقية. ومن بعدها نحو الشمال، رأس (دراج) قلاع (إسكندرية) و(أولكون) و(باري) و(بودره) و(نووه). وهذه القلعة في مدخل خليج (كوتور)، الذي يشتهر بـ (قاستيل نووه) بمعنى القلعة الجديدة، ويمتد الخليج في الداخل نحو ثمانية عشر ميلًا، وفي نهاية الخليج قلعة (كوتور) التابعة للبندقية، وفي داخل بلاد الدولة العثمانية، وإنها في قاع جبل ويجري نهر من ناحيتها، وهي قلعة محْكَمة، ولم يهتم أحد بفتحها.

الجزر القريبة من هذه السواحل

أولًا: جزيرتا (كفالونيا) على مدخل خليج (إينه يختي) إحداهما جزيرة (كفالونيا) الكبرى، وهي جزيرة معمورة محيطها مائة وخمسون ميلًا. وكانت قلعتها قد أخذت من قديم، إلا أنها وقعت في يد البنادقة بعد فتح (موتون)، وتقع على الجهة الشمالية الغربية

على بعد عشرين ميلًا من (زاكليسا)، وأما كفالونيا الصغرى فهي جزيرة بدون قلعة، وتقع في الجهة الشمالية الشرقية. والمسافة من كفالونيا إلى ميناء التين من (آياماوره) ستة أميال، وجزيرة (بخشلير) أمام بارغا ذات محيط ثلاثين ميلًا، وهي جزيرة ذات جو صحي نقي، ويقدر بعدها عن الشاطئ ثمانية أميال. وتوجد جزيرة الخليج في سواحل (مازاراك) التابعة لمركز (أولونيه)، وتبعد عن (بارغا) أربعين ميلًا، وميناؤها (جاناق) يبعد عن قلعتها ستة أميال ومحيطها مائة وتسعون ميلًا، وهي جزيرة عامرة شهيرة. وقد بنيت قلعتها الحصينة المتينة في داخل البحر مقابل الساحل، وتتصل في جهة واحدة مع اليابسة.

وقد انتقلت هذه الجزيرة من الحكام النصارى في الماضي عن وراثة لامرأة، وفي سنة 813 الهجرية (الموافق 1411/ 1410) الميلادية استولى عليها البنادقة، واغتصبوها من تلك المرأة، وحكموا قلعتها وقوّوها، وجعلوها مفتاحًا لبحر الخليج ومرفأ وموضع اجتماع لأسطولهم وجنودهم. ولما كانت هذه الجزيرة في الأصل مرقبًا لبحر الخليج؛ لذا عرض القبطان (كمال رئيس) فتحها عدة مرات على المرحوم السلطان سليمان، قائلًا: إن هذه الجزيرة بمثابة عيون البندقية. وفيما بعد، حاصر السلطان المذكور تلك الجزيرة من البر والبحر، وسنذكر ذلك في مكانه.

وقلعة الخليج - كما هو مذكور في الإدارة البحرية - قلعة متينة محكمة محيطها يقرب من ثلاثة أميال، وفي حيها الخارجي ثمانية عشر ألف بيت، وبرجها في داخلها وهي على تلين صخريين، وهما قلعتان مبنيتان بناهما البنادقة. كما حفروا من تحتها ملاجئ وطرق تساعد على الهروب عند اللزوم وعلى تبادل المعونات من قلعة لأخرى، ويحيط البحر بالأبراج. وأمام القلعة مرسى للسفن تدخلها سفن السياحة، وتظل السفن الحربية الكبيرة خارجها، والمسافة بين رأس جزيرة الخليج والساحل مضيق طوله ميل ونصف ميل. وعند اللزوم يمر الجنود من هذا المضيق وهذه القلاع، التي ذكرناها إنما هي من قلاع (البنادقة) المشهورة.

وثمة جزر أخرى كثيرة في داخل بحر الخليج. أما بحر الخليج فيمتد من هذه الجزيرة بمسافة ستين ميلًا إلى أسفل من قرب (آلونه) من مضيق بين (قره برون) إلى رأس سانتا ماريا في ساحل (بوليا)، وهذا المضيق يمتد ستين ميلًا، ويمتد هذا البحر الذي يطلق عليه خليج (البندقية) عرضه مائة وخمسون ميلًا. ويبلغ طول بحر الخليج سبعمائة ميلًا حتى يصل إلى مدينة (البندقية)، وفي سواحل هذا البحر الشرقية (بلاد الأرناؤوط) والهرسك والبوسنة و(كرواتيا)، وفي غربها بلاد الفرنجة (إيطاليا) و(لونبارديا) و(آنقونا) و(يوليا) وسواحلها.

سواحل الهرسك والبوسنة، وعلى الشمال بمسافة 18 ميلًا قلعة (دورقتك) بعد المرور من قلعة (نووه)، التي مرّ ذكرها، والتي تقع في مدخل مضيق (قوتور)، وهذا المكان ملك لطائفة تدفع الخراج للدولة، وتتصل نواحيها بـ (غيله) و(موستار) من محافظة (الهرسك)، وتبعد شيباتيك من هذه القلعة مائتي ميلًا و(غيله) مرسى على نهر موستار، وله ربان. ويطلق على الأماكن المواجهة لها (براج) و(لوزنيا). وهناك جزيرتان طويلتان للبنادقة، وأسفل (غيلة) (اسبلت) وهو ميناء مشهور في يد (البنادقة)، وهو مرسى (بوسني) و(كيليس) قلعة محكمة على اليابسة وفي مكان مرتفع. وقد استولى عليها منذ قريب (البنادقة)، ويجب العمل على استردادها. وفي أسفلها (شيبانيك) قلعة متينة على ساحل البحر. وأمامها ميناء واسع، ويأتي من الجهة الشمالية نهر ويصب في هذا الميناء، وفي الجهة المواجهة لليابسة من هذه القلعة جبل يشرف عليها. وكان (تكه لي باشا) قد ضرب القلعة من فوق هذا الجبل.

و(زادرا) قلعة محكمة أسفل (شيبانيك) بعشرين ميلًا، وأكثر جهاتها يحيط بها البحر ويتصل باليابسة بطريق ضيق فقط، وفي وسط هاتين القلعتين حيث يصب نهر (درمه) (اسكرادين)، وهذا النهر يفصل بين محافظتي كيليس وكاركا. وقد استولى (البنادقة) على قلاعها.

توضيح الأماكن التي في حدود الكفار

في الساحل السفلي من (ذادره) قلعتا (نووي) و(سين) وهما في يد (النمساويين) ويمتد خلفها في البر إلى (أبروسته) (بهكه) تودورنووي (بانالوا) (قوستانيجة)، وهي حدود الكروات، وتبعد مدينة البندقية عن (زادره) مسافة مائة وخمسين ميلًا. وبينهما مدينة وبلاد النمسا على شكل مربع جهاته الثلاث بحر، وجهة يابسة. وفي أطراف هذه البلاد وداخلها قلاع كثيرة ومدن يحكم بعضها (البندقية) والآخر في يد (النمسا)، وأسفل تلك البلاد إقليم (فريولي) الذي يطلقون عليها بلاد (فورم جولي) وبحيرة فوروم، وهي ولاية كبيرة بمعنى سوق يوليوس قيصر، وتقع بعض هذه البلاد خلف مدينة البندقية، ومنبعها نهري (ساواودروا) في داخل هذا الأقاليم، وفيه كثير من القلاع والمدن وأكثرها في يد البندقية. وإذا أراد البنادقة الحملة والنزهة يذهبون إلى هذه المدن.

قلاع ومدن هذه الأقاليم مكتوبة في أطلس مينور الذي ترجمناه إلى اللغة التركية. ومدينة البندقية يطلق عليها فنيسيا التي تعني كثير العدد. والبندقية مدينة تتكون من ستين جزيرة صغيرة، وقد أنشئت في نهاية بحر الخليج في منطقة ذات برك، وتعلو مياهها وتنخفض في كل ست ساعات. وأصبحت الجزر التي في الجهة الشرقية والجنوبية مثل السدود تقي المدن من اقتحام البحر. وفي أربعة عشر مكانًا، لها طريق إلى البحر. وقد أحيطت هذه المدينة بالجدران والقلاع. ولما كانت أماكنها التي في داخل البحر متينة قوية بعيدة عن الأضرار، وأمينة، وبين المنازل طرق وقنوات، وفي كل طريق يمكن المشي أو ركوب القارب للانتقال من منزل إلى آخر.

وفوق هذه المياه ما يقرب من أربعمائة وخمسين جسرًا من الحجارة أو الخشب ويطلق على الطريق الواسع من هذه الطرق قناة. وهذه القناة تقسم المدينة إلى قسمين، وفي وسط القناة جسر يعد من العجائب، وتظل ثمانية آلاف قارب تجوب المدينة ليلًا ونهارًا وفوق بعضها ظلل، وهي مكلفة يطلق عليها الجندول، ومحيط المدينة ثمانية أميال ولها أحياء، وباروتيا يبلغ عددها أربعة وستين ومبانيها الرسمية والخاصة عالية وكثيرة التكاليف، وقد أُسرف في تزيينها ولا سيما كنيسة (سان ماركو) وهي مبنى عجيب غريب، و(سان ماركو) هذا أحد رواة الأناجيل الأربعة، وقد بنيت الكنيسة بحجارة خاصة قيمة، وقد بُذلت الجهود في تزيين مبناها، وزُينت أكثر أماكنها بنقوش ذهبية ووضعة في مخزنها أشياء قيمة غالية بمثابة الوقف. وقد خدعوا الحمقى مدعين أن المدينة وقلاعها الأربع وسفنها وقفٌ على هذه الكنيسة، وجلبوا هذا في سلسلة ربطوا بها الكبار والصغار لأنفسهم.

وللمدينة ثلاثة أسواق متصلة بعضها ببعض، وفي ميدان السوق الكبرى الكنيسة التي ذكرناها. وقد نُصب عمودان طويلان في جهة السدود، وقد وضعت فوق أحدهما شارة (سان ماركو)، وعلى الآخر تمثال (سان تيادوروس) وهو من قديسي النصارى، وشارة (سان ماركو) أسد مجنح، وبما أن (سان ماركو) كان رجلًا ليس قويًا، فقد اتخذ هذا التمثال شارة له للتعبير عن صفات القديس المذكور. وقد اختير ما بين العمودين مكانًا لطلب من استحق ذلك. وفي داخل المدينة مخزون للذخائر يطلقون عليه (أرسنال)، ويحيط به قلعة محيطها ميلان.

وهناك يُصنع كل ما تحتاج إليه حملات البحر يوميًّا، ويجدد ويصب فيه المدافع، وهناك يعرضون على الناس بقايا الأساطيل الخربة، وما استولوا عليه من قراصنة البحر والسفن والأعلام.

أحوال الناس

ويعيش في مدينة البندقية ما يقرب من ثلاثمائة ألف نسمة، وهم على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: من يطلقون عليهم (باتريس) بمعنى المسنون، وهم الذين يديرون شئون البلاد وأمور الدولة، ويقال لرئيسهم الدوق، وهؤلاء يهتمون بتسيير الأمور والحل والعقد، ولكنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئًا بدون أخذ رأي الشعب.

ويطلق على الذين في المرتبة الثانية: (استادينو) ويقومون بالأعمال الكتابية ويحافظون على النظام، ويأتي في الدرجة الثالثة: الصناع والتجار، وكانت دولتهم في وقت ما دولة القناصلة إذ أطلق على رئيس الدولة (تري ينبوس) بمعنى رئيس القبيلة، وذلك بعد ميلاد عيسى – عليه السلام – بخمسمائة وخمسة وخمسين عامًا.

وقد دامت هذه الحكومة مائتين واثنين وخمسين عامًا إذ أصبحت الدولة (دوقية) في سنة سبعمائة وسبع. وتاريخ تدوين هذا الكتاب أوائل سنة ألف وسبع وستين الهجرية (الموافق 1657/ 1656 الميلادية). وقد مضى على إنشاء دوقية (البندقية) تسعمائة وخمسين عامًا، وقد مدح (مركاتور) مؤلف كتاب أطلس هذه المدينة كثيرًا إذ قال إنها أشهر مدن الدنيا، وهي ميناء العالم المشترك يأتي من أرجاء الدنيا مختلف الأجناس حيث يتجرون، ولا يحصى كثرة أهلها ووفرة أمتعتها وكثرتها، لذا يطلق عليها النصارى جنة الدنيا. وفي الواقع، أنها تحملت في ظروف ألف عام مصائب كثيرة وكوارث جمة، إلا أنها لم تقع في أي وقت من الأوقات في يد الأجانب ولم يحكمها الغرباء.

ويقول كاتب آخر متأثر بالفرنجة عن قلاع البندقية أو بناء المدينة نفسها: إنه طبقًا لأقوال بعض المؤرخين أن مدينة البندقية أُنشئت لأول مرة عام أربعمائة وعشرين ميلادية، وأن سكان مدينة (باتويا) تركوا مدينتهم عقب هجمات طائفة (انكروس) عليهم، وأنشئوا في تلك الجزر مدينة البندقية.

وتأتي معظم الأنهار من إقليم (لونيار ديا)، وتصب في البحر بالقرب من المدينة

وتأتي أطعمة المدينة (البندقية) بالقوارب من هذه المدينة (باتويا). وهنا تمت خاتمة الروايات عن الكتب الأفرنجية.

أما (بيري رئيس) فيقول في كتاب (البحرية): إن السفن التي تريد الوصول إلى (البندقية) تمر أولًا بمدينة (برسنه) ومدينة (البندقية) على مسافة مائة ميل بعدها. ولا يذهب إليها بدون مرشد؛ لأن مياهها ضحلة، ويؤخذ مرشد من تلك المدينة حتى يُهتدى إلى الطريق، ويذهب المرشدون مع السفن إلى أن تلوح قناديل أبراج اسقنديل (وماركو) وهما برجان عاليان يظهران للمسافر أولًا، ثم تلقَى المراسي في المكان الذي تلوح فيه المدينة، يأتي من المدينة مرشد آخر في زورق، ويرشد السفينة سائرًا أمامها، ويمنع المرشد الذي أتى من الخارج أن يقوم بمهمة الإرشاد، ولأن مضايق السد تفتح وتغلق وفق المد والجزر وبهذه المدينة سفن سقاية إذ يحملون عليها الماء مثل الدنان ويبيعونها بالكيل.

وحول هذه المدينة أسماك كثيرة، وفيها قوارب صيد خاصة ذات مصاف وثقوب، وتسير هذه القوارب حاملة أسماكًا حية في داخل الماء، ويبيعونها، وفي الجهة الشرقية من المدينة جزيرة تسمّى (موران) تُصنع فيها الأشياء الخاصة بالزجاج.

سواحل إيطاليا وفرنسا وأسبانيا

بعد المرور من مدينة البندقية، تأتي قلاع (آنقونه) و(بشتيه) و(مافرودونيا) و(برنديز) ورأسا (ترانده وسانتا ماريا)، وهنا ينتهي مدخل خليج البنادقة، ويلف من هناك نحو الغرب حيث (ترانتة) وخليج (رشنه) رأس (قوترون)، اسيرته، ونتي ورأس ريجي، ومقابلها مدينة (مسينه) من جزيرة (صقلية)، وبينهما تيار مائي مثلما في مضيق استانبول. ومن هناك، تأتي رأس مضيق (أنابولو) (ونهر روما)، بينما المدينة في داخل اليابسة قليلًا.

ثم تأتي قلاع (بنتن) و(ليفورنا)، وهما جزء من إقليم (فلورنسا) وهي دوقية مستقلة متصلة بدولة البابا. في الأسفل من هناك وأيضًا، توجد (جنويز) وهي حكومة مستقلة ذات حدود مع (ميلان). ومن بعد ذلك، تأتي (صاغونه)، (تسية)، (اقوامورت) و(مارسيليا)، وكلها من السواحل الفرنسية، وبربينان ودوانيا وبرشلونة وطرتوزه، ورأس قرطاجنة، ومقابل مالقة وسبتة وجبل طارق من السواحل الأسبانية. مكتوبٌ في الأطلس أنها سواحل

قاته لوينا وارفونيا والنسيا أندلسية، وأن سواحل الرومللي وبلاد الفرنجة كما كتب البعض في الكتب الصغيرة ثمانية آلاف وسبعة وأربعين ميلًا.

وتبلغ المسافة بين سواحل (الأناضول) والبلاد العربية والمغرب (قد ورد في كتاب الفذلكة وكتاب جهان نما كيفية فتحها والاستيلاء عليها) خمسة آلاف وعشرة أميال، فيكون مجموع المسافات ثلاثة عشر ألفًا وسبعة وخمسين ميلًا. وجزر (سردنيه قورسقه ميورقه) و(يابسة) و(مالطة) و(كريت) و(قبرص) و(رودس) من الجزر المشهورة في البحر الأبيض المتوسط.

وقد فتحت الجزر كلها ما عدا (رودس) في الماضي، أما اليوم فهي يد الكفار، ما عدا (قبرص ورودس). ولم يتم فتح (كريت) بعد. فلييسر الله العظيم فتحها قريبًا.

وهنا تم القسم الخاص بالمدخل، وسنبدأ بعد ذلك بصدد ما في القسم الأول.


صورت روم ايلى واناطولى وجزيره لر
حلب
شام
قره دكز
اناطولى
روم ايلى
بغدان
افلاق
اق دكز
ايتاليا

القسم الأول

يتحدث هذا القسم عن الأساطيل والفتوحات والمعارك البحرية، التي تمت في الماضي، والتي جُمعت من كتب التاريخ، وخُصصت لتكون قدوة ونبراسًا للأجيال القادمة، ويشتمل هذا القسم على أجزاء متعددة.

هذا الجزء خاص بربابنة الدولة العثمانية في أدوارها الأولى، وحملات بعض السلاطين، وقواد البحرية ومعاركهم البحرية إلى أن ظهر (خير الدين باشا) على ساحة الأحداث.

تنبيه: ليس بخافٍ أن هذه الدولة التي سيستمر حكمها إلى الأبد، قد شُغلتْ في أوائل عهدها حتى زمن السلطان محمد الفاتح - رحمه الله - بالحروب والضرب والمعارك في البر، فهدمت قلاع الأعداء واستولت عليها. ولم تبدأ في الحملات البحرية والتحارب مع الطائفة الإفرنجية. وفي الحقيقة، يحكي البعض أنها قد هجمت على بعض السواحل وبعض الجزر القريبة في عهد السلطان مراد الثاني، ولكن هذه الروايات لا يُوثق بها. ولزم بعد فتح استانبول وبعد أن أصبحت الدولة صاحبة البرين والبحرين؛ التفكير في بناء السفن والأساطيل؛ للاستيلاء على القلاع التي في سواحل (أوروبا) (والأناضول)، ولزم - أولًا - محاصرة حصون استانبول من البر، ولما وجد أن هذا العمل ليس بذي جدوى في الاستيلاء على استانبول؛ اتجه التفكير إلى الهجوم على المدينة من الناحية البحرية، وشرع في إعداد السفن اللازمة لذلك.

وحتى يتم إنجاز هذه المهمة؛ تم تعيين سليمان بك بالطه أوغلو، وبناء على قوله؛ تم صنع سفن جديدة خلف سوتلوجه، وبناء على ما هو في (تاج التواريخ) أنه قد نظم سفنًا خلف حصن الروماللي. وكان أول ربّان للدولة العثمانية (سليمان بك) وهذا لأن التواريخ لم تكتب شيئًا عن أوضاع ترسانة (غاليبولي) قبل الفتح.

واليوم يذكر مرفأ قريب من الحصن باسم هذا الربّان، وقد كُتب في التاريخ المذكور أعلاه أن الخليج الذي يفصل بين استانبول (وغالاطه) قد أُغلق بمد سلاسل حديدية متينة، وبذلك جعل عبور السفن من هناك مستحيلًا؛ لذا صدر الأمر السلطاني بدفع السفن من

ناحية الحصن الجديد، والعمل على إمرارها من خلف (غالاطه). عندئذ، أخذ البارعون في علم جرِّ الأثقال تدابير تذهل الإنسان، إذ جروا السفن من البحر إلى البر، ووضعوها فوق زلاقات قد عولجت بالزيوت، وأجروا السفن في البر حتى أنزلوها إلى البحر. وصنعوا في داخلها متاريس وملئوها بالأبطال الذين هجموا على الحصون، وأدهشوا الكفار وأذهلوهم. وكان لهذا التدبير العظيم شأن كبير في الاستيلاء على المدينة. وحملات البحر المنظمة وربابنتها بعد هذا الفتح الخاقاني، كانت وفق النظام الآتي:

حملة اينوز

وقد قدم قاضي (قراجيق) وأهالي (ابصاله) و(قره)؛ طلبًا إلى السلطان يشتكون فيه من شرور كفار اينوز، ولما عرف ذلك السلطان وصحَّت نيَّته على قطع دابر هؤلاء الكفار؛ استدعى (خاص يونس) إلى باب الدولة، وقال له: لقد قررت فتح اينوز قطعيًّا، ويجب عليك أن تجمع الجنود الحاضرين، وتحشدهم على عشرة سفن حربية، وتسرع إلى تلك الجهة، ولا تخبر أحدًا باتجاه سَيْرك قبل أن تصل إليها. وأنا أيضًا سأخرج بالجنود الذين سيكونون بشرى النصر إلى الطريق من البر.

وركب (يونس بك) السفينة بناء على الأمر السلطاني، واقتحم البحر، وهبت الرياح الطيبة، ودفعت السفن نحو هدفها، فواصل إلى هدفه في وقت قصير، وحاصر الحصن، ولم يتأخر في إظهار أعلام السلطان التي تبشر بالنصر. فلما رأى الكفار ذلك؛ استولى عليهم الرعب، وقاموا بتسليم الحصن طالبين الأمان. وكانت هناك قلعة في جزيرة تسمى (طاش اوز) مقابل (اينوز)، فاستولى (يونس بك) على القلعة بأمر السلطان.

حملات آماصره وسينوب وطربزون

وقد ذهب السلطان (محمد خان) بنفسه إلى فتح (حصن آماصره) الذي في ساحل البحر الأسود في سنة 864 هجرية، بعد أن أرسل إليها الأسطول، وبعدما استولوا على (حصن آماصره) رغب في فتح (سينوب)، التي كانت في يد (إسماعيل بك بن اسفنديار) فأعد الوزير الأعظم (محمود باشا) مائة قطعة من السفن الحربية، التي تسير في سرعة الريح بأبطال جائشة كأمواج البحر، قائلًا: إن هناك حملة نحو (طرابزون). واتجه نحو (سينوب). كما سار الجنود برًّا – وهم شارة النصر – وحاصروها من البر والبحر. وقد سلم (إسماعيل بك) الحصن فيما

بعد والتجأ للسلطان، وبعد ما أخذوا (قسطموني)، توجهوا نحو فتح (طرابزون) ولما وصل الأسطول من البحر وظهرت الأعلام علامات النصر من البر، سلموا الحصن طالبين الأمان.

ويكتب في التاريخ الأفرنكي الذي ترجمناه إلى التركية من اللغة اللاتينية أن (إسماعيل بك) استصنع في الفترة القريبة سفينة مستديرة، وكانت حمولتها تسعمائة ثمن طنًّا. وقد أرسل السلطان هذه السفينة إلى استانبول، وكان ملك (آراغوينا) و(الفونز) كان قد استصنع سفينة كبيرة في تلك الأوقات، وكانت حمولتها أربعة آلاف ثمن طنًّا.

وأخذ أهالي البندقية يصنعون سفنًا كبيرة بعد تصالحهم مع الجنوبيين، كما أن الفونز الذي سبق واستصنع سفينتين أخريين، ولم يكن قد صنع حتى ذلك الطريق سفنًا عظيمة مثلها. ولكنهم لم يستطيعوا أن يستخدموها، وخرّبوها واضعين إحداهما فوق الأخرى. وبعد ذلك، بنى (السلطان محمد) سفينة عظيمة حمولتها ثلاثة آلاف ثمن طنًّا. وعندما كانوا ينزلونها في البحر غرقت، وفرّ معمارها. ويستخدم معيار (فوجي) ويساوي ثمن طن اصطلاح يزينون بها السفن التي تبحر في المحيطات.

حملة ميدللي

ولما عاد السلطان في سنة 866 الهجرية (1462/ 1461م) أراد أن يستولي على جزيرة (ميدللي)، وأتوا إلى ناحية غاليبولي بجنوده بإعداد الأسطول السلطاني، فأتى إلى هناك الأسطول من (استانبول)، وفردت السفن أشرعتها، واتجهت نحو تلك الجزيرة. كما أن السلطان – بنفسه – عبرَ من ممر غاليبولي بجنوده الخاصة وعساكر الأناضول، وأتى إلى (آيازمند)، وألقت السفن العظيمة مثل الجبال مراسيها حول (ميدللي)، ولما شرع الجنود في الحرب جاء حاكم الجزيرة إلى الباشا، وطلب الأمان، وسلم الجزيرة، وأرسل إلى البلاد بعدما أخذ أمواله وأهله وأولاده، واستولى السلطان على الجزيرة، ووُزعت على الفاتحين، وظل الرعايا في مكانهم، وبعد ما سجلت أحوالهم وأسماؤهم؛ رجعوا إلى منازلهم.

حملة آغريبوز

عندما عاد السلطان في سنة 872 الهجرية (1468/ 1467م) من حملة قارامان، عرض عليه أن جنرال البندقية حمل على جزيرة (اينوز) بأكثر من سفينة حربية وأسر

قاضيها وخطيبها وكثيرين من أهاليها ونهب خيراتها، عندئذ أعطى السلطان محافظة (غاليبولي) (لمحمود باشا) حتى يجهز الأسطول السلطاني، ووضعت جميع السفن التي على السواحل العثمانية تحت إمرته. ولما ظلت جزيرة (غاليبولي) وهي من الجزر اليونانية في يد الفرنجة، كان المسلمون يعانون كثيرًا من هذا الوضع.

وكان سكان الجزيرة يساعدون الجنرال على شروره، لذا دفع القائد الجنود إلى جزيرة (آغريبور) ووصلوا إلى حدودها، وأحاط الباشا الذي فتح القلاع بأكثر من مائة سفينة الجزيرة من أماكنها المناسبة. وجعل السفن في المكان الذي قطع من الجسر الطويل وربط بين طرفي الجسر المقطوع، وجاء الجنود إلى سفوح الحصون واتخذوا لأنفسهم المتاريس. وفي هذه الفترة، جاء الجنرال بثمانِ قطعة حربية لمدّ يد المعونة إلى الجزيرة، ولما رأى جموع المسلمين أمر بإلقاء مراسي سفنها، ونظر من بعيد متحسرًا حزينًا، وكان قصده عندما يحمل الجنود المسلمون على الحصون أن يهاجم هو أيضًا من هذه الناحية؛ حتى يؤجل الاستيلاء على الحصون. وبعث بقوارب حتى يعرف يوم هجوم المسلمين، وكان خادمٌ ارتد عن دينه، واتجه نحو الأعداء، وقد لقي الجواسيس الذين أرسلوا بالقوارب ذلك المرتد، وساقوه إلى الجنرال فكشف له أنه سمع الدلّالين ينادون بأن الهجوم سيكون في اليوم الثالث، فانتظر الجنرال ذلك اليوم، وأعد التدابير لمواجهة ذلك الهجوم.

أما من هذه الجهة، فعندما عرف أن الأمر قد كُشف؛ قرر التعجيل بالهجوم على الحصون، فنبَّه المنادون في تلك الليلة الجنودَ أن الغد يوم الغنيمة، ولما جاء الصباح هجم الجيش - الذي يعتمد عليه في النصر - على الحصون، ونفذوا إلى داخلها من الفتحات التي أحدثوها دون أن يتركوا للكفار فرصة لفتح عيونهم، وقيدوا الصالحين للعمل بالسلاسل وحطموا الباقي، وقد نال الغزاة كثيرًا من الأموال والغنائم، وعندما رأى الكفار الرايات تتلألأ فوق الأبراج في منتصف النهار؛ تألموا وتحسروا وبسطوا أشرعة سفنهم، ووجهوا دفات سفنهم نحو العودة والهروب.

ودخلت تلك الجزيرة المتينة تحت حكم السلطان، وكانت هناك قلعة يُقال لها (قزل حصار)؛ حيث خزائن الكفار، ففتحت أيضًا، وأُخذ ما فيها من أموال لتوضع في الخزانة العامرة، وعادوا إلى العاصمة فرحين مبتهجين.

حملة كفه وآزاق

قد ظلت بلاد (كفه) التي في سواحل البحر الأسود مدة طويلة في يد الفرنجة، ولما كانت في منتهى الإحكام والمتانة؛ لم يستطع خانات الأتراك والتتار فتحها رغم قربها منهم.

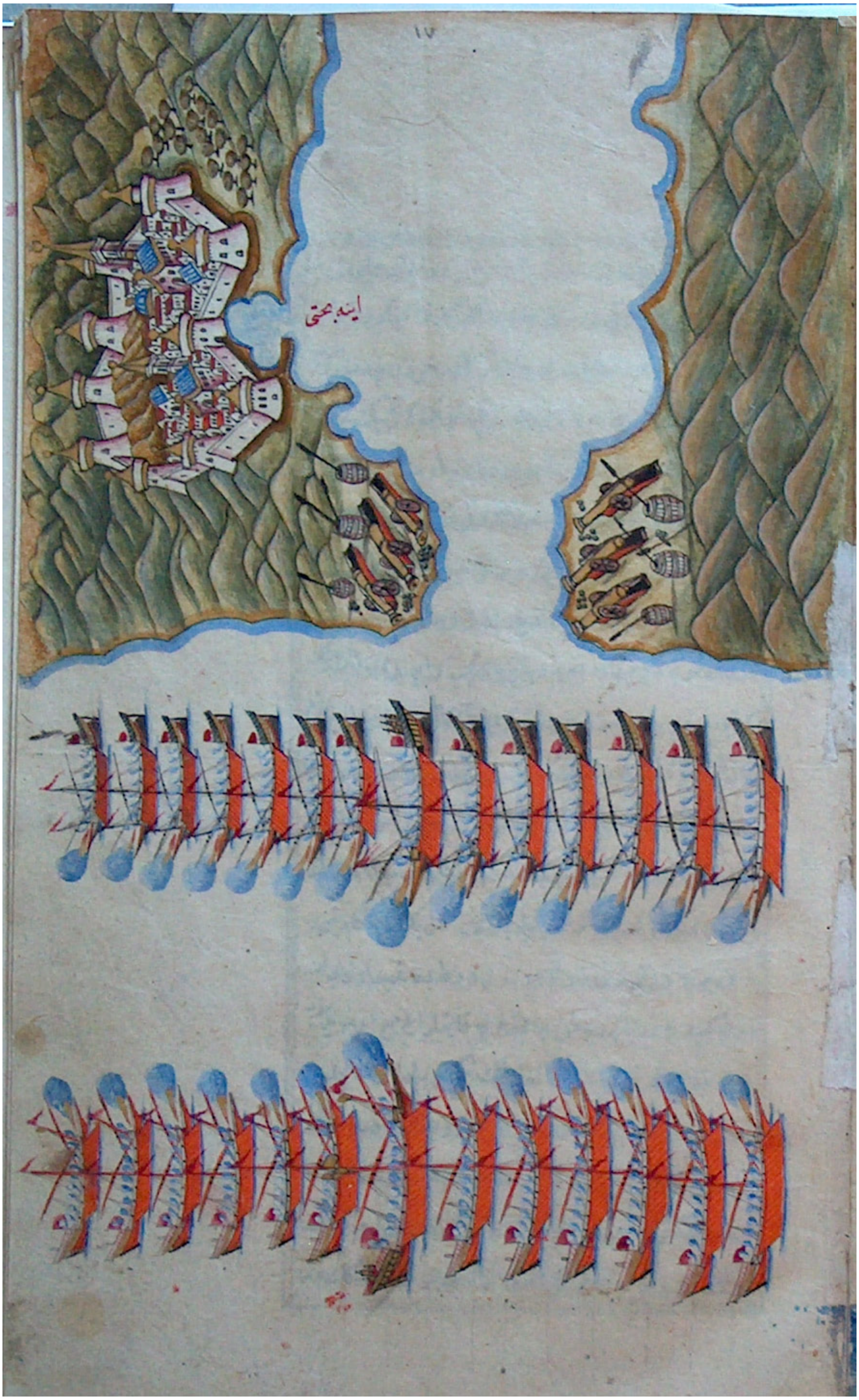
وأراد السلطان القوي محمد خان أن يستولي عليها في سنة 880 الهجرية (1475 / 1476 ميلادية)، كما أن (كدك أحمد باشا) فاتح البلاد قد جهز أنواعًا مختلفة من السفن الحربية يبلغ عددها ثلاثمائة سفينة، وأعد لها كل ما يلزمها من المؤونة وجنود الإنكشارية أمام السلطان. وقد أثنى عليه السلطان، ودعا له، وأرسله إلى ناحية (كفه)، ووفقًا للاحتفال العثماني صاحب الأعيان والعلماء (كدك أحمد باشا) من الديوان العالي إلى المرسى، وأركبوه في سفينته وودعوه. وفرد الباشا أشرعة سفنه ووصل إلى (كفه)؛ إذ ساعدت الرياح الطيبة السفن في وقت قصير، وحاصر (كفه).

وملّ الكفار من أرواحهم وسلموا الحصن، وتركوا خزائنها هدية كما هي، وساروا نحو البر، واتهم الباشا بعد فتح (كفه) بالاستيلاء على الأراضي التي حولها.

وكان آزاق ميناء البلاد الصقلية وممر البلاد الشمالية، وقد تم الاستيلاء عليه. ثم حوصرت (منكوب)، وفتحت بقوة السيف والتدابير الحسنة.

قد نال أهل كفه الدولة من الله، إذ أصبح تاريخ فتحها (880).




اينه بختى

حملة بوليا

وقد أُبعد (كدك أحمد باشا) عن عمله بسبب ما قبل هذه الحملة، وسجن، وعندما عاد السلطان من حملة (الإسكندرية) استدعاه، وأعطى له محافظة (أولونيه).

ولما جاء إلى استانبول في سنة 884 هـ (1479 / 1480)؛ صدر الأمر السلطاني بالاستيلاء على (ولاية بوليا) لقربها من (أولونيه)، لذا قرر إعداد الأسطول السلطاني وجمع الجنود لهذه الحملة.

وقد أعطى الباشا مستلزمات الحملة وأخذ يجمع الجنود الشجعان من رجال الأناضول والروملي وجنود البحرية والإنكشارية حتى بلغ عددهم عدة آلاف. ووصل الباشا إلى ساحل (بوليا). وفي أول حملة استولى على حصن (تراندِه)، ثم استولى على كثير من الحصون: بعضها بقوة السلاح، والآخرين برضا أهلها.

ووضع فيها رجالًا من عنده، والتجأ إلى الولاية المسماة (دايقه) حيث حاكم (أسبانيا) وأخذ منه الجنود، وظل حاكمًا فترة ما في (بوليا)، ولما بلغه ارتحال السلطان عن دنيانا خرج إلى الطريق قاصدًا استانبول ومعه هدايا قيّمة من أموال تلك البلاد الثمينة.

وبعدما قام بواجبات التهنئة للسلطان الجديد بمناسبة توليته العرش، نودي بالعودة إلى (بوليا)؛ للاستيلاء على قلاعها وحصونها الباقية، ولكنه لم يستطع ذلك؛ لأن الكافر المسمى برايكا انتهز فرصة غياب الباشا عن البلاد، وجاء بأربعين قطعة من السفن وعليها الجنود إلى (بوليا) سنة 886 هـ الموافق (1481 / 1482) وهجم على الحصون فجأة، واستولى عليها، وقتل كثيرًا من الجنود الذين كانوا يحرسونها وأسر الآخرين. وظل يتجول في البحر فترة للقبض على الباشا، إلا أن الباشا سلم من شرّه، وخرج إلى البر سالمًا، ورجع هؤلاء خائبين.

حملة موته

لما عاد السلطان العالي القدر من حملة (الإسكندرية) إلى (استانبول) سنة 884 هـ (الموافق 1480/ 1479م) أرسل (قوجه إيلي) بثلاثين قطعة من السفن المشحونة بجنود شجعان متسلحين إلى حصن (موته) الذي يقع بجانب بحر (آزاق) وبالقرب من (كفه) وظل في يد الكفار حتى فتحه.

وكان كدك أحمد باشا قد استولى على الحصون المهمة وترك هذا الحصن، ولما أحاط

الجنود هذه المرة بالحصن قطع الكفار الذين يحتلون هذه القلعة الأمل عن دفاعها فسلموا القلعة طالبين الأمان. وكان هذا الحصن مرفأ عظماء الروس والبولنديين والبلاد الشمالية.

بناء حصن بوزجه

لم تكن في جزيرة (بوزجه) القريبة من الساحل قرى ومدن، لذا أصبحت ملك الجنود الذين يجولون في البحار. فبنى فيها حصنًا محكمًا بالأمر السلطاني، وسمح للذين يريدون أن يسكنوا فيها بذلك، ورفع عنهم الضرائب الديوانية، فأقبل الناس وأقاموا فيها وكان ما حول (ليمنوس) خاليًا من الناس عندئذ؛ فزاد العمران.

حملة رودس

لما كان أذى الكفار الذين يقيمون في جزيرة (رودس)، التي تقع قريبًا من ساحل (منتشة) عظيمًا؛ كان الاستيلاء على هذه الجزيرة مهمًّا. لذا قد أسرع إليها سنة (885 هجرية)، وبعث الأسطول الهمايوني تحت قيادة (مسيح باشا) وعليه ما يقرب من أربعة آلاف من جنود البحرية وجنود السلطان الخاصة. وكان في الأسطول غير السفن الإستانبولية ستون قطعة من السفن الحربية من (غاليبولي) المليئة بالمدافع وبالبنادق، وانتقل الأسطول كله حتى وصل إلى جزيرة (رودس). وحاصروا القلعة من البحر والبر، واهتموا - أولًا - بالاستيلاء على القلعة التي يطلق عليها مضيق العرب من ناحية البحر؛ لأن الجنود كانوا متأذين من هذا البرج. وكانت هذه القلعة أثرًا من آثار النصر للجنود الذين أتوا في عهد معاوية بن أبي سفيان، وظلت دون الفتح، وكان أحد البروج الذي يدافع عن القلعة.

وأمر (مسيح باشا) بإقامة جسر في البحر؛ حتى يتم الوصول إلى تلك القلعة، وحاصروها من البحر بالسفن. ولما تسابق الجنود عند السير فوق هذا الجسر وازدحموا؛ انهار الجسر وغرق أكثر من ألف منهم في البحر. ولكن هذا لم يُثْن من عزمهم وفكروا في محاصرة الجزيرة ورفعت سبعة أعلام إسلامية فوق أبراج الحصن، وامتلأ خارج الحصن بالمحاربين وطمع المقاتلون في الغنائم، وأخذوا في السلب والنهب. ولما رأى (مسيح باشا) ذلك؛ أخرج المنادين ينادون أن أموال خزانة (رودس) من الأموال الخاصة بالحصة السلطانية فلا يغتنمها أحد. ولما وصلت هذه الكلمات الباردة إلى آذان المقاتلين؛ امتنع الجنود في خارج الحصن عن القتال وظل الجنود الذين في داخل الحصن دون العون،

وانتهز الكفار هذه الفرصة وهجموا على الجنود الذين في داخل الحصن من مكان ما، وقتلوا الكثيرين منهم. وهناك استشهد حاكم قسطموني (سليمان باشا).

وكان بخل (مسيح باشا) وطمع الجنود سببًا في الفشل والانسحاب من الجزيرة صفر اليدين. وأعلموا الدولة بذلك واستأذنوا في محاصرة (بودروم)، ولم يستطيعوا فتحها. وعندئذ سرح الجنود وجاء إلى استانبول فجُرِّد من قيادة البحر، وأُعطيت له محافظة (غاليبولي)، فتوجه بالسفن إلى تلك الجهة.

حملة أولونيه

أرسل (السلطان بايزيد) في سنة 889 هـ (1484م) أسطوله إلى البحر الأسود وسار بنفسه من البر، وفتحوا حصون (كلي) و(أق كرماني)، ومات ملك المجر سنة 897هـ (1491 / 1492م) فعرض عليه علي باشا الخادم حاكم سمنديرة أن والي (بلغراد) كان قد وعد بالخضوع للدولة؛ لذا اتجه السلطان لتلك النواحي.

ولما كان احتمال كذب الوعد قائمًا وأراد السلطان ألا يعود خالي الوفاض؛ فأرسل إلى الربان (جويويو سنان باشا) يأمره أن يتجه إلى (أولونيه) بثلاثمائة سفينة حتى يهاجم السواحل الألبانية ويغتنم منها ما يستطيع غنيمته؛ ولذا لم يستولِ على (بلغراد). وعندما أعد السلطان لوازم الحملة وتوجه إلى ناحية (صوفيا)، بعث ملك المجر الجديد رسولًا وطلب منه العفو، فوجَّه الزمام ناحية (بلاد الأرناؤط). ووصل إلى (ديه ولنه) عن طريق (مناستر)، وأرسل (داود باشا) ليستولي على تلك الجهات، وعاد بعدما اغتنم كثيرًا من الأماكن، وخرَّبها.

كما أن الأسطول قد هجم على كثير من الأماكن من الناحية البحرية، واغتنم كثيرًا من الأموال، ونكَّل بمن تمرَّد وتجرأ على العصيان.

حملة إينه بختي

أصدر السلطان (بايزيد الثاني) أمره الذي لا يرد، أن تُصنع سفن مثل التماسيح استعدادًا للاستيلاء على نواحي (الموره)، وعين قائدًا لذلك الأمر هو (داود باشا الثاني) الذي كان رئيس البحرية. وكان قد استصنع سفينتين حربيتين، وكان طول كل واحدة منهما سبعين ذراعًا وعرضها ثلاثين ذراعًا، وكانت أعواد أشرعتها وأعمدتها قد صنعت بأن ربطت عدة جذوع وأشجار مع بعضها، وكان قطرها أربعة أذرع، وكان من السهل لأربعين مقاتل أن

يحاربوا حول السفينة بالنبال والبنادق. وكان العمال ورؤساء العمال من رجال السلطان خاصة، وكانت المؤن واللوازم المستخدمة من البلاد العثمانية. وقد أنفق كل واحد منهم عشرين فلوريًا. وبناءً على أقوال بعض العارفين أن مهندس هاتين السفينتين كان عاملًا بارعًا يسمى (ياني)، وكان قد رأى في البندقية كيف تصنع السفن واكتسب مهارة في ذلك.

وكانت توجد صابورتان لكل واحدة من هاتين السفينتين، إحداهما صابورة (القاليون) والأخرى صابورة (مافونا)، وإلى جانب كل واحدة منهما اثنان من العيون قد وضعت في كل واحدة منهما مدافع ثقيلة، وقد صنعت فوق سطحها العالي شبكة، ووضع على كل جانب منها خمسة وعشرون مجدافًا، وكان يجدف كل واحد منها تسعة أشخاص ولم تكن هذه المجاديف إلا لرفع مقدمة السفينة في المواني، وليست لتسييرها. وكان في مؤخرة السفينة قاربان وصنعت كمؤخرتها لمؤخرة السفن الحربية. وقد وضع على كل واحدة منهما ألفان من الجنود والجدافين، وأسندت رياسة وقيادة إحداهما (لكمال بك)، والأخرى (لرئيس براق) وأضيف إليهما أنواع أخرى من السفن مشحونة بالأبطال، وأرسلت إلى جهة (إينه بختي). وكان عدد السفن ثلاثمائة سفينة، كما أن السلطان غادر استانبول، ووصل إلى (أدرنه) في شوال سنة 904هـ الموافق (أبريل 1499م)، وبعث أمير أمراء الرومللي (مصطفى باشا) لمحاصرة (إينه بختي) وأرسل الكفار الذين يحرسون الحصن خبرًا، يقول.. إن حاكم (البندقية) نبهنا بألا نسلم الجزيرة طالما لا تجد السفن العثمانية مجالًا لمحاصرة الجزيرة، فتصرفوا وفقًا لهذا.

وحاصر (مصطفى باشا) الحصن من الناحية البرية، وانتظر قدوم السفن. إلا أن الرياح هبت من الجهة المعاكسة؛ فظلت السفن على البحر ما يقرب من ثلاثة أشهر، ولما اقترب الأسطول من المورة وهبت رياح أخرى معاكسة؛ استطاع الأسطول أن يدخل في مرفأ الجزيرة التي أمام (متون) حيث ظل عشرين يومًا، وكلما خرج جنود الأسطول على البر باحثين عن الماء والطعام؛ كانوا يرتدون على أعقابهم أمام هجمات الكفار.

وقد ساءت حالاتهم من العطش من جهة، وكانوا مضطرين لمقاومة سفن الأعداء من جهة أخرى، فبعث حاكم المورة (خليل باشا) رسولًا إلى السلطان يخبره بسوء أحوال الأسطول ورجاله.

وجاء الرسول إلى السلطان، بينما الجيش في سهل (جتالجه)، وبناءً على ذلك أصدر السلطان أمره إلى (رسك أوغلي أحمد باشا) بأن يسرع إلى (المورة) الجنود المختارين من جنود الأناضول؛ لتقديم العون للسفن، فأسرع (أحمد باشا) ووصل إلى (موتون)، وحينئذٍ هبت الرياح المواتية فخرج الأسطول من ذلك المرفأ، وذهب إلى (مقصد)، وأخذ (أحمد باشا) السفن معه ودخل في السفن مع جنوده في (هولوموج).

حرب القبطان براق رئيس

لما وصل الأسطول السلطاني إلى جزيرة براق متجاوزًا (أوراايني)؛ خرج أسطول الكفار أمام سفن الغزاة المسلمين، وكانت أحقار الكفار قد تجاوزت الحدَّ لما أصابهم من الأضرار من جرّاء أعمال كمال رئيس. ولما كان (كمال بك) حاكم (يكيشهر) على سفينة (براق رئيس) ظنوا أنها سفينة كمال، فحملوا عليها بشدة، ووقع الكثيرون من الجانبين في البحر وغرقوا. وكان على سفينتين حربيتين كبيرتين ألفان من الكفار، كما كان على سفينتين أخرتين ألف كافر، فتوسطوا سفينة براق رئيس، ولم تتحمل السفينتان الصغيرتان ضربات المدافع؛ فغرقتا وغرق أكثر الكفار، والذين حاولوا أن ينجوا من الغرق أُخذوا أسرى بعدما اصطادوهم بالمحاجن، وقد التصقت هاتان السفينتان الحربيتان بسفينة (براق). وطالت المعركة عندئذ صب (براق بك) على سفينتي الكفار النفط، وأشعل النار بهما فغرقتا مع من عليها من الكفار. وبذل (براق رئيس) كل جهوده لفصل سفينته عن سفينتي الأعداء، فلم يمكنه ذلك؛ فاحترق في النهاية مع سفينته. وقد استشهد في هذه المحنة (كمال بك) و(براق بك) قره حسن مع خمسمائة من الأبطال. وقد جُمع المحاربون الذين وقعوا في البحر بالقوارب من تلك السفينة، وأمكن إنقاذ سبعمائة شخصًا.

وقد احترقت سفينتا الكفار مع من عليهما وغرق الكل، كما قتل سبعمائة كافرًا، كانوا يسبحون فوق البحر بسبب سفالتهم.

وقد أسرت باخرة حربية أخرى جاءت لمساعدة السفينتين وقُيد جميع رجالها. وأطلق على تلك الجزيرة التي وقعت بقربها المعركة (جزيرة براق)، وكان مائة وخمسون سفينة للكفار قد أغلقت مدخل خليج (إينه بختي) ووضعوا على جانبي المضيق المدافع، واستعدوا لإغلاق الباب أمام المحاربين.

ولما جاءت السفن الإسلامية وأرادت المرور من الخليج سلطوا عليها المدافع. وهنا، استشهد كثيرون من العظماء المشهورين.

وخلاصة القول، قد حدثت معارك عظيمة مع الكفار مرة أو عدة مرات عندما خرج الأسطول من المرفأ القريب (من متون)، ومرة أخرى عندما دخل إلى خليج (إينه بختي). وفي النهاية، كان الله مع جيش المسلمين وكتب النصر للمسلمين الذين شتتوا السفن الحربية الكافرة. وهكذا ذهب الأسطول السلطاني إلى أمام (إينه بختي) وحاصر الحصن من الجهة البحرية، وخرج الأبطال الذين في داخل السفن ونصبوا راياتهم فوق أبراج الحصن. وعندئذ بعث المحاصرون مفاتيح القلعة إلى (مصطفى باشا) بناءً على وعدهم السابق. وغادروا الجزيرة سنة 905هـ الموافق (1499 / 1500م)، وقد أبلغ فتح الحصن إلى الدوائر الحكومية، وخرج (أحمد باشا) من السفينة، وصدر الأمر السلطاني بقضاء الأسطول السلطاني موسم الشتاء في مرفأ (أموريك) القريب من (كرمه). كما غادر الجيش السلطاني الجزيرة متوجهًا إلى مشتاه في أدرنة.

حملات متون وقرون

استُولي على معظم جزيرة (الموره) في عهد السلطان الغازي محمد خان الأول، وظلت حصون متون وقرون على الساحل في يد الكفار. وصدر الأمر السلطاني إلى (مصطفى بك) حاكم (بروزه) أن ينضم إلى الأسطول بعدما يجهز أربعين قطعة من السفن الحربية. وقد استصنع (مصطفى بك) في منتصف الصيف عشرين سفينة وأوشك على إتمام العشرين الأخرى، إلا أن سفن الكفار قد أتت في ليلة مظلمة بغتة وأحرقت السفن.

وبذل (مصطفى بك) جهده لتكملة السفن التي تم بناؤها. وفي هذا الحين، وصلت الأخبار إلى أسماع رجال الدولة بأن البولونيين والتشيك والمجر وفرنسا اتحدت فيما بينهما على الهجوم على البلاد العثمانية الدول الثلاث الأولى من البر، والأخيرة من البحر. وصدر الأمر السلطاني ليعقوب باشا والبكوات المشهورين على أن يسرعوا بالخروج بعشرة آلاف من جنود المشاة وبعشرين ألفًا من الفرسان؛ لإصلاح وتعمير السفن التي تقضي الشتاء في (إينه بختي) ومساعدتها، والوصول إلى أمام متون في الصيف.

كما أن السلطان قام من (ادرنه) في سنة 905هـ، وفي أوائل رمضان الموافق أبريل (1499م) وصل إلى (الموره) ولما أبلغ وصول (يعقوب باشا) بالسفن إلى (متون) للهجوم عليها فاستراحت السفن ثمانية عشر يومًا في (لندار)، ثم تحركت ووقفت أمام حصن متون فحاصرها الجنود من البر، وأخذوا يطلقون المدافع لتدمير القلاع، فجعلوا أبراجها وأسوارها في مستوى الأرض. وعندما أوشكوا على فتحها جاء أسطول الكفار واشترك في المعركة، واستولى الجنود المسلمون على سفينتين من سفن الفرنجة، وقيّدوا من في داخلها من الكفار في مواجهة الحصن. وأغرقوا سفينة من سفنهم، وأحرقوا كثيرًا من سفنهم الأخرى. وبينما كانوا على وشك الاستيلاء على الحصون، جاءت من (البندقية) أربع سفن حربية حاملة الذخائر الحربية وعدة آلاف من الجنود المسلحين بالبنادق. وبغتةً، مرت هذه السفن من بين السفن الإسلامية ووصلت إلى داخل الحصن، وبعدما أفرغوا ما في داخل السفن أحرقوا تلك السفن الأربع. ولما أبلغ هذا الأمر إلى الباب السلطاني غضب السلطان من مراقبي الأسطول وأمر بالهجوم على القلعة، بينما الأعداء مشغولين بتوزيع المؤن والذخائر التي وصلت إليهم. وعندما أخذ جنود أمير أمراء الأناضول (سنان باشا) يصعدون على الأبراج من الفتحة التي فتحها الباشا في السور، أخذ الجنود الآخرون يسيرون من هنا لهناك. وفي وقت العصر، عندما أخذت الشمس تميل للغروب، هجموا على الأعداء، وتقاتلوا معهم قتالًا لم ير له مثيل.

ولما احترق الحصن واستولى عليهم الذهول، هجم الجيش المسلم عليه، وأعملوا السيف في الكفار. وقد كان هذا الفتح في 14 المحرم من سنة 906 الهجرية الموافق 11 يوليو (1500م).

وأرسل (علي باشا) من البر، وذهب وقائد البحرية من البحر ليفتح (قرون). وفضّل (علي باشا) محاصرة (أناوراين)، وقد سلم من في داخل الحصن بشرط أن يؤذن لهم بمغادرته. ووصل من هناك إلى (قرون) فطلب سكانه الأمان وسلموا الحصن، وأخذوا أموالهم وأولادهم وارتحلوا إلى بلاد الفرنجة، وعاد السلطان إلى استانبول. وبينما كان (علي باشا) عازمًا على الخروج لفتح (استفه)؛ أُخبر أن الكفار وجدوا طريقًا لاسترداد (أناوارين)، فهجم عليه وأنبأ إدارة الدولة بما تم، وطلب عدة سفن حربية ليقطع الطريق على الأعداء في البحر. فأرسل السلطان ثلاثين قطعة حربية تحت قيادة الربّان كمال. ولما وصل إلى (أناوارين) هجم

على سفن الأعداء في الميناء. وفي أول حملة استولى على ثماني قطع من سفن الكفار؛ قضي على من في داخلها، وصعد الأبطال الذين رافقوا الباشا فوق الأبراج وأسروا حراسها، وجعلوا ما يقرب من ثلاثة آلاف كافرًا طعامًا للسيوف، واستولوا على الحصن.

حملة مديللي

أرادت (البندقية) أن تنتقم لخروج حصون (إينه بختي ومتون وقرون) من يدها؛ فاستغاثت بملك فرنسا طالبة المعونة. فجهز الملك سفنًا، وجعل ابن أخيه ربانًا قائدًا لها، وأشركها في أسطول (البندقية)، وجاءوا كلهم بكامل أسطولهم إلى ميناء (مديللي). وكان عدد السفن الحربية مائتي قطعة، وذلك في ربيع الأول من سنة 907 الهجرية (الموافق سبتمبر 1501م)، ولما عرف ابن السلطان (قورقود) ذلك أرسل مربيه مع ثمانمائة من الأبطال إلى (آيازمند)، وقد ذهب من هناك لمساعدة (قاريسي بك) مع بعض الجنود في ليلة مظلمة، وخرجوا جميعًا بعدد من السفن الحربية. وشقوا صفوف الأعداء، ودخلوا الحصن واستشهد بربة. ولما سمع السلطان هذا الخبر المخيف؛ أمر أمير الأمراء (الأناضول) (سنان باشا) ينضم إلى الأسطول بجنود إقليمية. ولما وصل (أحمد باشا) في جمادى الأولى (الموافق ديسمبر 1501) بالقرب من (مديللي) حمل الكفار على الحصن، وتقدم قائد الفرنسيين جنوده ليكون أول الداخلين في الحصن إلا أن أحد أبطال المسلمين هجم عليه وقتله، وعلق رأسه على البرج.

ولما رأى جنوده الفرنسيون رأس قائدهم معلقًا هربوا، وتُرك تعمير الحصن وإصلاحه لأمير أمراء (الأناضول).

وعاد (أحمد باشا) إلى (استانبول)، وكان (أحمد باشا) هذا قد أصبح قائد البحرية بعدما كان وزيرًا عظيمًا في سنة 912هـ (1506 / 1507م)، واستمر في منصبه هذا خمس سنوات. وفي سنة 917هـ (1511 / 1512م) أصبح وزيرًا عظيمًا مرة أخرى.

سبب فرض الضرائب الاستثنائية

يقال إن الضرائب الاستثنائية فرضت هذه المرة بسبب جنود البحر والجدافين، وقبل ذلك لم تفرض الضرائب على الرعايا. وما زالت هذه الضرائب سائرة حتى وقتنا هذا. وتؤخذ من الرعية سنويًا.

الهدنة

ولما عرفت سفن (البندقية) أنها لن تستطيع أن تقاوم السفن الإسلامية (العثمانية) في البحر؛ سكتت مضطرة بعد هزيمة (مديللي)، ولم تحاول أن تسعى لأخذ الثأر. ومن جهة أخرى، رأى البعض أفضلية الهدنة بسبب الضرائب، فلم يهاجم – بعد هذا – البلاد الأخرى بالأسطول برًّا أو بحرًا، واكتفى بالدفاع عن الدولة العثمانية.

وقد ظهرت في الشرق ملوك (إيران)، وظهرت اضطرابات الشيعة، كما أن السلطان (بايزيد) تقدم في السن وانزوى جانبًا، وأرخى رجال الدولة الأمور. كلُّ هذه الأسباب؛ فتحت الطريق إلى أن تسوء حالة الدولة.

ولما اعتلى السلطان (سليم) عرش الدولة، اتجه إلى سياسة الاهتمام بالجهة الأكثر ضررًا، فأراد أن يتخلص من الشيعة الذين كانوا أكثر سوءًا من الكفار ذاتهم، كما أراد أن يستولي على (بلاد الشام ومصر)؛ فترك ناحية الكفار في هدنة.

وقد عد الكفار (البندقية) و(المجر) هذه الهدنة منَّة لهم؛ إذ تخلصوا من مخالب الأبطال، وكان ذلك غنيمة لهم فلم يتحركوا.

ولما جاء الدور إلى السلطان (سليمان) بعدما توفي السلطان سليم، أخذ في فتح البلاد التي يلزم ضمها إلى الدولة، سواء أكانت في البر أو البحر. وهكذا فتح الباب إلى الحرب في البر والبحر.

وترك الهدنة التي فرضت لمصلحة الدولة في عهد آبائه، وعد فتح (رودس) أكبر آماله في الغزوة الثانية.

إعداد الأسطول في عهد السلطان ياووز سليم لفتح رودس

لما وصل السلطان سليم إلى استانبول بعد فتحه مصر سنة 923هـ (1517م) رأى في سنة 925هـ (1519م)، أنه يلزم أن يكون طريق البحر مفتوحًا لحمل محاصيل أقاليم البلاد إلى استانبول، فعرض الوزراء العقلاء على السلطان الذي فتح البلاد أن يستولوا على قلعة (رودس)، التي كانت مأوى القراصنة. وأخذوا يعدون الأسطول السلطاني ويجمعون جنود البحارة، وكان رجال الدولة يرفعون أصواتهم بالحملة إلا أن السلطان لم يكن يحبذ مثل تلك الحملة. وذهب يومًا – صدفة – مع رجال دولته المهتمين لزيارة أبي أيوب الأنصاري، ولما وصوا إلى قبة عالية متصلة بتكية (ياودود)، وقفوا جميعًا وقروا الفاتحة لأنها كانت مقبرة مدينتها.

ولما نظر إلى جهة البحر، رأى سفينة آتية خاصة بالربان، فغضب وقال: "بإذن مَنْ أنزلوا هذه السفينة إلى البحر!؟" ولم يقر الحملة بعد!

وأمر بقتل الربان (جعفر أغا). قال له الوزير الأعظم (بيري باشا) إنها من السفن الحربية الجديدة قد أنزلت في البحر لتجريبها، وبصعوبة استطاع أن يسكن غضب السلطان. ثم التفت نحو وزرائه غاضبًا، وقال: بينما جواد عزيمتي متعود على فتح البلاد والأقاليم، فأنتم تريدون أن تستخدموه في هدم قلعة! ومن أهم الأشياء للاستيلاء على القلاع البارود، ما كمية البارود الموجودة عندكم؟ وما المدة التي يكفي لها؟ وهل أعددتم المأكل والمشرب؟.

فأخبره الوزراء بالمأكل والمشرب والملبس والذخيرة، إلا أنهم تركوا الأخبار بكمية البارود الموجودة لليوم التالي وساروا خَجْلى. وفي اليوم التالي، أخبروا السلطان أن عندهم بارود يكفي لثلاثة أشهر أو أربعة. فقال لهم السلطان – يعاتبهم –: إننا لم نستطع أن نزيل العار الذي لحق بنا في عهد جدي السلطان محمد بعد!، هل تريدون أن تضاعفوا هذا العار؟ إذا لزم الأمر وذهبنا إلى هناك ورجعنا صفر اليدين، فثقوا تمامًا أن واحدًا منكم لن يبقى حيًّا!، وكيف يكفي البارود الموجود عندكم لأربعة أشهر لأخذ تلك القلعة؟ فإذا استولى عليها في ضعف هذا الزمان يعد مهارة، إنني لا أستطيع أن أخرج للغزو بمثل هذه التدابير الفارغة، ولا أسمع قولة أحد في الذهاب إلى هناك. وليس لنا حاجة إلى الحملة على الجهات الأخرى. وهكذا ختم كلامه.

وفي الحقيقة، قد تحققت هذه الرغبة في الوقت الذي حدده بعد جهود شاقة وعمل متواصل. وبعد النطق بهذه الكلمات المعجزة بستة أشهر ارتحل عن دنيانا – رحمه الله رحمة واسعة.

حملة رودس في عهد السلطان سليمان

بمجرد تولي السلطان (سليمان) عرش السلطنة في سنة 926هـ (1520م)، أمر بصلب الربان وقائد البحرية (جعفر بك) حتى يكون عبرة للآخرين؛ إذ ثبت ظلمه ومد يده إلى حقوق الغير، وعين مكانه (بيلاق مصطفى باشا).

ولما كان (فتح رودس) من أمور الدولة المهمة رجع من فتح (بلغراد)، وجاء إلى (استانبول) في ذي القعدة من سنة 920 (الموافق يوليو 1514م)، وصدر الأمر السلطاني

بأن يُعد في أيام الشتاء أسطولٌ، وكل ما يلزمه من مؤن، فلما اجتمع أربعون ألفًا من الجدافين وعشرون ألفًا من جنود البحرية؛ أصبح الوزير الثاني (مصطفى باشا) أمير البحر.

وخرج إلى الحملة نحو رودس ومعه 700 قطعة حربية من مختلف السفن، والتحق به الربان (بيلاق مصطفى باشا) بالسفن التي جهزها في غاليبولي، كما أن ملجأ الناس – وهو السلطان – عبر إلى (اسكدار) في الثامن من رجب سنة 928 (الموافق يونيو 1522)، واتجه إلى (رودس) من البر، كما أن أمير أمراء ولاية (الروماللي) عبر بجيوشه من (غاليبولي)، وانضم مع جيش الأناضول في هضبة (موغلا) إلى الجيش السلطاني. وفي الثالث من رمضان (الموافق 2 يوليو)، عبر السلطان من (مرمريس) إلى الجزيرة المواجهة. وكان الأسطول من قبل ذلك قد وصل إلى القرب من (رودس)، فأمر (مصطفى باشا) ربانًا يُسمى (قارا محمود) بأن يذهب بعدة سفن إلى جزيرة (هاركه) لمحاصرتها.

أما الأسطول، فقد أبحر إلى جزيرة (رودس) ووقف أمام حديقة تسمى (جم)، وبعدما تعرف على الأمور أبقى السفن الثقيلة للقيام بحراسة المضيق، ومضى الباشا المذكور بثلاثمائة من السفن الحربية، ووقف أمام قلعة (رودس). ووصلوا إلى مرفأ (اوكوزبورني)، وأخرجوا المدافع التي في السفن إلى البر.

وحاصروا الحصن من البر والبحر في الخامس من شهر رمضان (الموافق 29يوليو). وقامت معركة عظيمة بالمدافع، وبعد أسبوع انضم إلى الجيش العثماني الأسطول الذي أرسل بالنحاس إلى مصر، وحملت أربع وعشرون قطعة من السفن الحربية البارود والقنابل، وكانت تحت قيادة (بالي بك) من أمراء مصر.

واشتعلت نار الحرب في أواخر شوال (الموافق سبتمبر 1522)، ولما ضايق (برج العرب) الجيش كثيرًا جاء الأمر السلطاني بالهجوم على الحصن. وإن كان الجيش في الحملة الأولى قد عبَر خنادق الأعداء، وركز الأعلام فوق الأبراج والاسوار، إلا أن الكفار قد قاموا بهجوم مضاد، وردُّوا الجنود دون أن يحققوا شيئًا. وقد استصوب الوزراء أن يعلي الجنود أطراف الحصن ويرفعون أكوام التراب، وطالت المعركة والقتال والضرب خمسة أشهر. وفي النهاية، استطاع جنود المسلمين أن يعلوا التراب، وأصبحوا

لا يعطون فرصة لمن في داخل الحصن للتحرك بمدافعهم وبنادقهم، واستطاعوا بهذا أن يجعلوا علو السد الترابي بمستوى جدار الحصن.

ويأس الكفار، وفي الخامس من صفر سنة 929هـ (الموافق 26 ديسمبر 1522) طلبوا الأمان وسلموا الحصن، وأعطى أمانًا لأرواح الكفار وأموالهم، وأذن لرئيس الكفار (ميفال ماستوري) أن يذهب حيثما شاء. فغادر الجزيرة وأقام في جزيرة (مالطة). وقامت في هذه الفترة عاصفة شديدة شتتت السفن التي في الميناء فاصطدم بعضها بالبر، والآخر بالصخور.

ثم استولى على الجزر التابعة لرودس، وهي: (تختالوز ولندوس) و(استانكوي) و(بودروم حصار)، وضُمت إلى الدولة العثمانية. وبعدما أصلحت الجزيرة ورممت وجددت وجهز ما يلزمها، بعد ذلك عبر السلطان بعزة ووقار إلى ناحية منتشة في الرابع عشر من صفر (الموافق 2 يناير 1523م)، ومن هناك إلى استانبول.

حملة الرئيس سليمان

لم يحدث أن ذهب الجنود العثمانيون الذين قاموا بملاحم وانتصارات عظيمة في أزمان السلاطين السابقة إلى بحر الهند، إلا أن السلطان عيَّن أحد القراصنة المسمى (سليمان رئيس) لتلك الجهات ربانًا وقائدًا، وأمده بعشرين قطعة بحرية إلى (اليمن) عن طريق (ميناء السويس)، وذلك في سنة 932 الهجرية (الموافق 1525/ 1526م)، ووصل الرئيس إلى سواحل اليمن وعدن، وأخذ يهاجم من يريدون شرًّا للدولة والدين، وينهب أموالهم. فخاف رؤساء القبائل العربية وعرضوا خضوعهم، وقدموا كثيرًا من الهدايا والهبات، وتعهدوا بإرسال الضرائب.

حملة أحمد بك كمانكش

أعطيت رياسة أمور البحر في هذه الفترة لأحمد بك، الذي سبق ذكره. وكان هذا الربان ضخمًا جسيمًا قويًّا، إذ كان يستطيع أن يمسك بيده شاة وهو يسبح!

وكان بارعًا في رمي السهم حتى أن له منزلة وعلامة في ميدان إطلاق السهام، وسافر في 940هـ (الموافق 1533) بثمانين قطعة بحرية إلى البحر الأبيض المتوسط، وبعدما اغتنم الجزر وبعض السواحل، رجع عائدًا إلى الترسانة الأميرية، وظل ربانًا إلى أن جاء (خير الدين باشا) من الجزائر، وتولى القيادة البحرية، ثم توفي.

القسم الثاني

أيام خير الدين باشا الأولى

ليس خفيًّا أن (خير الدين باشا) كان شخصًا صاحب كرامات، وأدرك درجة الولاية، وهو البطل الذي كُتبت ملاحم حول أعماله وغزواته، وقام بأعمال عظيمة. لذا أكرمه (السلطان سليمان) أعظم إكرام؛ طلب منه أن يكتب له غزواته، ويرسلها إليه، فقام أحد الأشخاص الذين صاحبه في غزواته بالكتابة عن أحوال هذا البطل في أثناء غزواته، ونقل أقواله؛ فأصبحت كل هذه الكتابات كتابًا، وأرسل إلى (السلطان سليمان خان). وها نحن ننقل تلك المناقب موجزة.

اسم الباشا (خضر) وأبوه (يعقوب) وهو ابن أحد الفرسان، ولقد تطوع في فتح (مديللي)، وظل في تلك الجزيرة، وكان له أربعة أبناء هم: (إسحاق وأروج وخضر وإلياس).

وكان كل واحد منهم يشتغل بالتجارة بواسطة السفن، وأقام (اسحاق) في (مدللي) حيث استقر. وكان أورج قد سافر إلى مصر وطرابلس الشام، وكان خضر يعمل في (سلانيك) و(سروز)، ولما كان (أورج) مع أخيه (إلياس) في طرابلس؛ خرج أمامهم كفار (رودس) واستشهد (إلياس) في المعركة، وأسر (خضر)، وظل في الجزيرة فترة من الزمن، ثم نجا من الأسر. ولما كان السلطان قورقود في (أنطاليه) استأذن منه ليقوم بالقرصنة بثمانية عشرة سفينة، وأخذ ينهب سفن الكفار حول جزيرة (رودس)، ثم ذهب إلى ساحل (بوليا)، وكم تقابل مع السفن الحربية وتقاتل معها، وأخذ فريسته، وقضى الشتاء في (الإسكندرية)، ثم ذهب إلى جزيرة (جربه)؛ حيث وضع كل ثقله. ورغب في الحملة على بلاد الكفار. وحينما تولى السلطان (سليم) العرش اختفى أخوه قورقود خان؛ لذا منعت سفن البحر الأبيض من السفر، وأخذ (خير الدين رئيس) السفن من جزيرة مديللي وهجم على (الغرب)، وكان أخوه (اورج) قد وصل إلى جزيرة (جربه) فتقابل معه هناك، وعزما على القيام بالغزوات، وذهب إلى (تونس) وطلب من حاكمه

مكانًا. وكانت تونس في ذلك الوقت في يد أبناء (جعفر)، فأشير عليه بأن يمضي إلى قلعة (حلق الواد) بشرط أن يعطي لهم خمس الغنائم.

غزوات أورج رئيس وخير الدين باشا

ولما حان وقت الحملة، جهز هذان سفينتين، وخرجا إلى البحر من حلق الواد، وحملا على سفينة تحمل القمح من (جنوه)، واستوليا عليها.

وبعدما سارا قليلًا، تقابل بسفينة كبيرة كالقلعة، وكانت تحمل (قمح) فاستوليا عليها أيضًا بدون أن يتركا لها فرصة للحرب أو الهروب. ورجعا إلى (تونس)، وأخرجا خمس الغنائم واقتسما الباقي بينهما، ثم خرجا بثلاث سفن إلى البحر، ورأيا سفينة أسبانية فأحاطا بها وجرَّاها بالحبال، وكان داخلها واحد من أمراء الكفار فتقاتلوا طويلًا، ثم أسر. وبعد ذلك، ذاع صيتهما على سواحل البحر الأبيض المتوسط واشتهرا، وملأ القلوب بالرعب. ولما ذهبا بأربع سفن إلى جهة (بجلية) في جهة (طرابلس)، هجم عليهما أسطول الكفار، فثبتا برجولة وحاربا ببطولة. وفي النهاية، انتصرا على أسطول الكفار، وأخذا سفينتين، فأغرق (اورج رئيس) بالمدفع إحدى السفينتين، فهرب باقي الكفار مدحورين.

وبينما كان اورج رئيس يتمشى في خارج القلعة خرج الكفار من القلعة، وهجموا على سفنها، بينما لحق بهم اورج رئيس، وبذل كل جهده لتشتيتهم فأصابته قنبلة من القلعة في يده. وحمله (الرئيس خضر) إلى السفينة واهتم به، ثم قطعوا يده فضعف ضعفًا شديدًا، ثم أرسل بعض سفن القرصان إلى (تونس). أما (الرئيس خضر) وقد باغت ميكورا ونهب قراها وفتح عدة أبراج، وحصل على غنائم كثيرة. وبينما كان عائدًا بغنائمه، خرج أمامه ربان كورسيكا بثمان قطع حربية، وهاجمهم فحاصروا سفينة الربان، وقامت معارك شرسة ومات كثيرون. وفي النهاية، انهزم الكفار وعادوا، وكانوا قد استولوا على سفينتين فطاردهم (خير الدين رئيس) وأجبرهم على تركها، ثم عادوا إلى (تونس)؛ حيث قضوا الشتاء. واستقر الرئيس (أورج) هناك.

غزوة خير الدين رئيس

خرج (خير الدين رئيس) إلى البحر في موسم الشتاء، وحصل في شهر واحد على ثلاثة آلاف وثمانمائة أسيرًا، وعشرين سفينة. وعاد بغنائم لا تحصى ولا تعد، واحتفظ بالأسرى، ووزّع بقية الأموال بوفرة على أبطاله.

وفي الصيف، خرج مرة أخرى جاعلًا نفسه ربانًا لسبع قطع من سفنٍ للمتطوعين، وسار في مقدمتهم في سفينته، وهجموا على مدينة في سواحل الكفار وحصلوا على ألف وثمانمائة أسيرًا، وفرضوا عليهم جزية سنوية قدرها ألف قطعة ذهبية، وتفرقت سفن المتطوعين إلى الأطراف لكسب الغنيمة، وأوقد الرئيس (خير الدين) قنديل سفينته، فاتبعته أربع سفن تجارية، ولما أصبح الصباح رأى أنها سفن أجواخ، فغيَّر دفة سفينته وأحاط بها، وأخذ السفن الأربع وعاد إلى (تونس)، ووجد في هذه السفن ثمانية آلاف قطعة من أجواخ البطانة، وكان خير الدين رئيس قد صادف سفينة تجارية، ولكنه أضاع أثرها ليلًا. فصادفتها السفن المتطوعة واستولت عليها. وكانت سفينته فرنسية محملة بالخشب، وضم هذه السفينة (محي الدين رئيس) ابن أخت (كمال رئيس)، وبعثها مع الهدايا إلى الباب العالي، فأرسل له السلطان سفينتين حربيتين وخلعة. وبعد هذا، لم تسطع أي سفينة أن تقف أمام الرئيس (خير الدين) لقتاله.

حملة بجاية وفتح (شرشال سيسيل)

خرج (خير الدين رئيس) وأخوه (أورج رئيس) بعشر قطع من السفن؛ ليستردوا قلعة (بجايه) التي كان الكفار قد استولوا عليها، فحاصروا - أولًا - حصنًا صغيرًا على طريقهم يسمى (سيسيل شرشال) وفتحوه بسهولة، وأسروا مائة كافر في داخله، وقيدوهم بالسلاسل، وتركوا خمسين شخصًا في داخلها للدفاع عنها ومراقبتها، وثلاث قطع من السفن.

ثم وصلوا إلى (بجايه) وأخرجوا الجنود والمدافع إلى اليابسة، وكان لهذه المدينة حصنان، فحاصروا أحدهما وفتحوه عنوة في اليوم الرابع. وسمحوا لعشرين ألف من جنود العرب كانوا قد أتوا لتقديم العون بنهب الحصن. وكانوا قد أسروا خمسمائة من الكفار، ثم أحاطوا بالحصن الثاني. وبعدما ضربوه بالمدافع عشرين يومًا نفذ البارود، فطلبوا العون من سلطان (تونس) فلم يقدم العون. وجاء الأسطول المعادي بمائتي سفينة، ووضع في الحصن

أكثر من عشرة آلاف من المقاتلين، فاستولى على مقاتلي المسلمين اليأس، وكانت سفنهم قد دخلت في نهر، فجف ماؤه وظلت السفن في البر، وكان إنزالها في البحر مستحيلًا؛ فأحرقوها وتوجهوا عن طريق البر إلى (سيسيلية). وكانت المسافة ما بين الحصنين ستين ميلًا، وساقوا الأسرى المذكورين معهم. وكانت سفن (خير الدين رئيس) أربعًا وعشرين سفينة. وظل الرئيس (أورج) هناك، وأما الرئيس (خير الدين) فذهب إلى (تونس) بأربع سفن، واشترى من هناك أربع سفن، وخرج مع سبع سفن من المتطوعين إلى البحر، كما أن (محيي الدين قور أوغلو رئيس) انضم إليه بأربع عشرة سفينة، وذهبوا إلى سواحل الكفار بثمانٍ وعشرين قطعة من السفن، ورأوا بالقرب من (جنوه) ثماني قطع من السفن محملة بالقمح فأخذوها - بعون الله تعالى - بدون ضرب ولا حرب. وبينما هم راجعون صادفوا اثنتا عشرة سفينة محملة بالجوخ، فبعث بعشرين قطعة من السفن الحاملة للبضاعة إلى تونس، أما هو فذهب إلى جانب أخيه.

ذهاب أورج رئيس إلى الجزائر

كانت توجد قلعة في الجزيرة التي أمام حصن (الجزائر)، وكانت السهام تصل إليها من المدينة. وقد هجم عليها كفار (أسبانيا) واستولوا عليها، وسجنوا سكان المدينة كلهم، وقد خضع الجزائريون لهم مضطرين، وأخذوا يدفعون لهم إتاوة سنوية ويمرون من مياههم، وقد أثر في بعض منهم جور الكفار عليهم أشد تأثيرًا، وكتبوا إلى الرئيس (أورج) يطلبون عونه، ويستدعوه إلى مدينتهم. وقد وصلت رسالتهم إلى الرئيس (أورج) وهو في (سيسيل)، ولما فهم ما في الرسالة قال على الرأس والعين، وخرج غازيًا في سبيل الله. ووضع حرسًا في جزيرة (سيسيل) وكتب إلى أخيه، واستودعه الجزيرة، وذهب إلى (الجزائر).

ولما كانت المدينة لا حاكم لها استطاع أن يدخلها بسهولة دون قتال. كما أن الرئيس (خير الدين) أرسل لأخيه مائتين وثمانين جنديًّا من البر، وذهب إلى (تونس). وبينما كان يقتسم مع (قورد أوغلو) الغنائم، جاءت سفينتان من قبل السلطنة كما جاء أخوه (اسحق) بسفينته من مديللي، وتقابلوا هناك.

انهزام الفرنسيين في تونس

منذ أن ظهر الرئيس (خير الدين) استولى الضيق الشديد على الكفار الذين على السواحل وفي الجزر، وقلَّت طاقاتهم ونفذ صبرهم، كما قلّت قدرتهم على اتخاذ القرارات. وحدث أن استولت الحمية على الفرنسيين فأخرجوا ثلاثين قطعة من السفن الحربية وثلاثين قطعة من السفن الأخرى وبعثوا بها إلى (تونس). ووصلت إلى مرسى تونس (بنزرت) وألقت مراسيها. وكان قورت أوغلو هناك فأخرج سفنه الحربية الخفيفة، وحاصر السفن الفرنسية.

فهجم الكفار على سفنه وأخذوا أربعًا منها. ولما حاولوا الهجوم على الحصن، قاومهم أبطال (تونس) وأجبروا الكفار بعد معركة شديدة على الرجوع إلى سفنهم والهروب بها. وظلت ثمان قطع من سفنهم في الميناء، ولما أمكنهم إخراجها انهزموا وخرجوا إلى البحر حتى وصلوا إلى حلق الواد. وكان الرئيس حاضرًا هناك ينتظر قدوم الكفار، وتحرك برجولة. وكان كلما أراد الكفار الخروج إلى البر، قاومهم، وحالَ دون خروجهم بعد معركة شديدة، فاضطروا للعودة يائسين خالين الوفاض. وكان (السلطان سليم) في هذه الفترة قد فتح مصر، فذهب إليه قورت أوغلو بهدايا كثيرة وعرض عليه خضوعه، وقص عليه حربه مع فرنسا. كما أن (الرئيس خير الدين) وضع على أربع قطع بحرية خمسمائة شخصًا ومدافع، وبعثها مع أخيه الكبير (إسحاق) إلى (الجزائر). وقضى هو الشتاء في (تونس).

هجوم سفن الكفار والقبائل العربية على حصن الجزائر

لما عرفت القبائل العربية والكفار دخول (أورج رئيس) بالقوة إلى (الجزائر) أعدوا أربعين سفينة إرشاد ومائة وأربعين قطعة بحرية، وأرسلوا عليها 15 ألفًا من الكفار إلى الجزائر، وكما أن جنود العرب تحركوا من البر وأتوا في جموع وعسكروا حول مدينة (الجزائر)؛ كان أورج رئيس مستعدًّا للحرب مع الجنود، فتحارب – أولًا – مع جنود العرب حربًا شعواء. وبعون الله؛ هزم العرب وأجبرهم على ترك ما يقرب من اثني عشر ألفًا من جمالهم، فهربوا منهزمين. ثم جاء الأسطول من البحر، ووقف الكفار في مكان قريب من الحصن، فنشر في البر جنوده، وأخرج مدافعه وحاصر القلعة. وكانت القلعة

على وشك الانهيار بينما كان أورج بك مشغولًا بسد الثقوب والفرج، فهجم الكفار ونصبوا عَلَمهم، ولما حمل أبطال (أورج بك) على جموع العدو، قاومهم الأعداء، فكانت معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون.

ونكست راية الكفار وهربوا من خارج الحصن إلى السفن، فتعقبهم أبطال الجزائر عند هروبهم، وقتلوا منهم كثيرين حتى وصلوا إلى الشاطئ، فلم ينج منهم إلا ألف شخصٍ. وهكذا لم ينج الكفار، واستقر أورج بك في الجزائر، وكتب رسالة إلى أخيه (خير الدين) يبشره بالفتح، وأرسلها إلى (سيسيل)، واستودعه أمور المحاصرة.

وذهب (خير الدين بك) بناء على توصية أخيه (أورج) إلى (سيسيل)، وقبض على شيخ البلد، وأجبره على أن يتعهد بدفع ما كان يعطيه للكفار، وخرج من هناك قاصدًا جانب أخيه.

فتح تنس

وكان أخو ملك (تلمسان) من (بني حفص) قد ذهب قبل ذلك يطلب المعونة من (أسبانيا)، فأسرع الجيش الأسباني بالمجيء، واستولى على حصن (تونس)، ووضع هناك الجنود وأربع قطع بحرية، فاستعان سكان هذا الحصن بالرئيس (أورج)، فأرسل لهم أخاه (خير الدين)، ودخل الكفار الحصن قبل ما يصل (خير الدين)، ولما وصل (خير الدين) هناك ضبط سفنهم واستولى عليها، وأنزل الجنود إلى البر. وبينما كان على وشك الاستيلاء عليه بعد حصار دام يومين؛ بعث الكفار يطلبون الأمان. وذهب ابن حفص الذي سبق ذكره إلى جهة ما معللًا بأنه سيقابل الرئيس (خير الدين)، ودخل (الرئيس خير الدين) في الحصن؛ حيث وجد أربعمائة من كفار العرب، وأراد أن يأخذهم معه إلا أن بعض سكان الحصن توسطوا عنده؛ فتركهم هناك، وعاد بغنائم عظيمة إلى (الجزائر).

ثم اقتسم مع أخيه عشر قلاع تابعة للجزائر و(بجاية)، والتي تقع في شرق الجزائر وغربها، على أن تكون الجزر الشرقية (لخير الدين بك) والغربية (لأورج بك). وكتبوا بذلك إلى الولاية.

فتح تلمسان والحرب الطويلة

وفي هذه الفترة، تحالف حاكم (تلمسان) مع ملك (أسبانيا) على أن يقدم الأول إلى الثاني عشرة آلاف قطعة ذهبية وأربعة عشر عبدًا زنجيًّا وعشرة آلاف كيلة قمحٍ سنويًّا، كما كان يفعل أسلافه.

ولما استولى أورج بك وخير الدين بك بالقوة على هذه البلاد؛ غضب حاكم (تلمسان) واتفق مع (أسبانيا) على إبعاد (خير الدين) من هذه البلاد، ولما عرف (أورج بك) أنه يريد أن يهاجم من البر وأسطول الكفار من البحر، ترك أخاه في الجزائر، أما هو فذهب إلى (تلمسان) ببعض الجنود. وكان أهالي (تلمسان) لما عرفوا أن حاكمهم قد اتفق مع الكفار؛ قد تنحوا عن حاكمهم وقد أفتى علماؤهم بقتله، ولما اقترب (أورج بك) من (تلمسان) استقبله وجهاؤها وأهاليها وتبعوه. ولما عرف ذلك حاكم (تلمسان)؛ هرب. وكان قد حبس اثنين من إخوته، وقد انتهز هذان هذه الفرصة، وذهبا إلى فاس بعد أن هربا من السجن؛ حيث وجدا عملًا فيها واستقرَّا بها.

وذهب حاكم (تلمسان) إلى وهران ميناء تلمسان، والتجأ إلى الكفار، وكانت (وهران) في يد الكفار، إلا أنها قد عانت من الضيق؛ لعدم وصول المؤن لها. وكانت مضطرة لطلب المعونة من أسبانيا فساعدتها بأموال كثيرة، وجمع حاكم (تلمسان) من البر ما يقرب من خمسة عشر ألفًا من جنود العرب، وألف وخمسمائة من جنود الكفار من حاملي البنادق، وخرج من (وهران)، وجاء إلى قلعة القلاع.

لما عرف الرئيس (خير الدين) ذلك أسرع إلى معونة أخيه بمجموعة من العساكر تحت قيادة أخيه (إسحاق). ووصل هذا الأخير بجنوده ودخل القلعة، ولما حاصر الكفار الحصن، خرج (أورج بك) في ليلة ما وباغت الكفار وأعمل السيف في سبعمائة منهم وأسروا مائة منهم، وفرَّ الباقون إلى حصنهم. ومن جديد، جمع أحد عشر ألفًا من جنود الكفار وعشرين ألفًا من جنود العرب، وحاصر القلعة ودامت المعركة حامية الوطيس ما يقرب من ستة أشهر. وكم من مرة باغت الكفار كما أنهم وضعوا المدافع في الطريق وأضروا المسلمين.

وفي النهاية، وصلوا إلى سفح القلعة، وهدموا أبراجها بالألغام وأنهكت قوة الجانبين وبات لا قدرة لهما على العراك. وفي النهاية، طلب الكفار الصلح فاضطروا

لقبوله. وخرجوا بشرط ألا يؤخذ ما في يدهم. وبينما هم خارجون نقض الكفار عهدهم؛ فأخرج (إسحاق) سيفه من غمده، وقتل عدة من الكفار، فاستشهد هو ومعاون (خير الدين بك إسكندر) وشرع الباقون في القتال فاستشهدوا جميعًا. ثم سار جنود الكفار نحو حصن (تلمسان) يريدون أن يحاصروه فخضع أهالي المدينة، ودخل أورج بك وجنوده القلعة الداخلية، واستمرت الحرب الضروس سبعة أشهر، ولما دب فيهم اليأس من حماية القلعة خرج بأبطاله إلى الخارج، وقاتل جيش العدو حتى استشهد مع جميع رجاله.

سير الكفار نحو حصن الجزائر

حينما وقع أورج بك شهيدًا في (تلمسان)، وتفرق الكفار وجهزوا في الصيف سبعين قطعة بحرية، وجاءوا إلى (وهران) بعشرين ألف مقاتل. كما أن ثلاثة آلاف وسبعمائة من الكفار انضموا إليهم، وسار الكل من البحر على الجزائر، بينما سار حاكم (تلمسان) من البر وجمع (خير الدين بك) رجاله ووقف ووصى الأهالي بأن يستقبلوا بك (تلمسان)، ولما كان هؤلاء قد استقبلوه؛ لم يستطع أن يضربهم، وكان لخير الدين بك ما يقرب من سبعمائة من رجاله، كما تبعه عشرون ألفًا من جنود العرب. وجاءت سفن الكفار من البحر، وألقت مراسيها أمام الجزيرة، وبعثوا رسولًا طالبين تسليم الجزائر، فاضطر خير الدين إلى الدفاع، فأمر هؤلاء الجنود بالهجوم، فسار خير الدين بك من البر، وقتل كثيرًا من الكفار وتفوق عليهم، وأجبر سفن الكفار على الفرار.

وحل المساء، وأطلق الكفار النار من مائتي مدفع كانت في سفنهم، فتراجع الأبطال المسلمون، ودخلوا المدينة ودامت المعركة على هذا المنوال ليل نهار يومين. وفي اليوم الثالث، سحب الكفار مدافعهم. وبينما الكفار يريدون المغادرة يائسين خاوين الوفاض، هجم عليهم (خير الدين بك) وقُتل كثيرون منهم، ولم ينج من عشرين ألف جندي إلا بضعة آلاف، واستطاعوا أن يدخلوا سفنهم، وأعطي لقائد جنود (تلمسان) (حسن) من أموال الغنائم التي تركت بعض الخيول ولوازم مهمة، وضم إليه سبعمائة نفرًا. وجعله قائدًا على ألفي نفر من جنود العرب، وأرسله إلى (تلمسان).

استيلاء حسن على تلمسان

بينما كان القائد الذي سبق ذكر اسمه سائرًا التحق به جنود العرب حتى أصبح عدد جنده عشرين ألفًا، فسمع ذلك حاكم (تلمسان)، وقرر القرار إلا أن (حسن) لحق به، وأخذ من يده الحصن، ولم يبق من الكفار الذين في داخله إلا سبعمائة كافرٍ، هربوا ودخلوا إلى (تنس)، وقتل منهم ثلاثة آلاف.

فتح تنس

لما أراد (خير الدين بك) الاستيلاء على هذا الحصن؛ استنجد حاكمه بـ (أسبانيا) فجاءت إلى نجدته أربع عشرة قطعة بحرية، فأرسل (خير الدين بك) ثمان عشرة قطعة بحرية من البحر، وأما هو فحارب من البر، واستولى على الحصن. أما سفينته فقد تحاربت مع سفن الأسبان وأغرقت منها خمس سفن. وقرَّت بقية السفن، ورجع (خير الدين بك) إلى الجزائر.

قتل أسرى الكفار في الجزائر

بينما كانت السفن مستقرة في ميناء (الجزائر)، هبت ريح معاكسة فجاءت مائة وعشر سفينة أسبانية، وانتشرت في الميناء وحاربت، ولكنها هُزمت. وقد أخذ في هذه الهزيمة ثلاثة آلاف أسيرًا وثلاثون ربانًا. وكان أحد هؤلاء رئيسهم واسمه (فرديناند). ولكنه كان جريحًا، وسفينته غاصت في الرمال بالبر، واستسلمت، وخرج منها ستمائة كافرًا، وأُسروا جميعًا.

وامتلأت عدة أماكن بالأسرى، ووزع الباقي على الناس، فامتلأت مدينة الجزائر بالأسرى. وحاول بعض هؤلاء أن يهربوا، وقاموا بالتمرد، إلا أن محاولتهم قد فشلت. وجاء رجال من (أسبانيا) وعرضوا دفع مائة ألف قطعة ذهبية لقاء تحرير ستة وثلاثين ربانًا، إلا أن العلماء لم يأذنوا بذلك في فتاويهم قائلين إن هؤلاء رجال مهرة، ونستفيد منهم فبقوا في الأسر. ورفعوا القيمة إلى ضعفيها فلم ينجحوا في ذلك. وبحث (خير الدين بك) عن سبب لقتلهم، ولما رغب كل هؤلاء في التحرر قتلهم جميعًا. وجاء أحد أقارب الربان (فرديناند) وعرض سبعة آلاف قطعة ذهب، مقابل الحصول على جثة فرديناند، إلا أنهم قالوا لا يجوز بيع جثة الميت ورموها في بئر عميقة.

الخطبة لأبناء عثمان في الجزائر

وخطب خير الدين بك في أهالي الجزائر، وقال لهم: إنني قد حميتكم حتى الآن، وعمرت القلعة وأصلحتها، ووضعت فيها أربعمائة مدفعًا. وقد أذهب بعد ذلك إلى بلاد أخرى؛ فعيّنوا من تريدونه واليًا عليكم. وحينما سمعوا ذلك، أخذوا كلهم يرجونه ويتوسلون إليه قائلين: لا تتركنا. فقال لهم (خير الدين بك) إن حاكم (تلمسان) و(تونس) من أعدائي، أما إذا أصبحت الخطبة باسم أبناء عثمان أبقى، فقبلوا ذلك.

فعرض (خير الدين بك) خضوعه في محضر إلى (السلطان سليم)، وجهز أربع سفن ووضع فيها أربعة ربابنة أسرى من أمم مختلفة وأربعين غلامًا وهدايا كثيرة وهبات جمة، وأرسلها إلى (السلطان سليم)، وقد قُبلت الهدايا من قِبل السلطان، وبعث بمن يسمَّى (الحاج حسين) بالسيف والخلعة والراية، وقد لقيهم في الطريق ثمان سفن حربية من سفن البنادقة، فقتلوا جميع رجال (خير الدين بك) إلا (الحاج حسين) فقد نجا بثلاثة آلاف، وذهب إلى متون، ثم ذهب إلى الباب العالي، وأخذ من السفير ورقة واسترجع جميع السفن، وذهب إلى الجزائر مرة أخرى.

ولما وصل إلى الجزائر، استقبله (خير الدين)، وبكل امتنان أخذ ما أرسله سلطان المسلمين من جوادٍ وخلعة وشارة تدل على حاكميته، مُعليًا قدر السلطان، ووضع كل هدية في مكانها، ثم أخرج المنادين ينادون أن الولاية أصبحت ملك السلطان. واستضاف الرسول بكل وقار، وأحسن إليه، ثم أعاده إلى الباب العالي.

عصيان حاكمي تونس وتلمسان

وقد تأثر من هذا العمل حاكمي (تونس وتلمسان)، وحاولا العصيان، وحرضا (محمد بك) و(قاضي أوغلو) من رجال خير الدين بك على العصيان، وفي النهاية أعادهما لهما. وبذلا أموالًا للعرب، وهجما على (الجزائر)، ولكن (خير الدين بك) ظل فترة يدافع عن نفسه، ولم يستسلم لهما.

الاستيلاء على حصن مستغانم

وذهب أخو حاكم (تلمسان) إلى ملك (فاس)، واستنجد به، وأتي بالجنود وحاصر تلمسان لكن العرب وقفوا حائلًا دون ذلك من الخارج، فذهب كل واحد منهما إلى (وهران)، فذهب (مسعود) إلى (خير الدين بك)، وذهب أخوه إلى (وهران)، وكتب

(خير الدين بك) إلى العرب واسترضى أخاه، وجعله يعود إلى (مسعود)، وذهب (مسعود) بعساكر العرب وطرد أخاه، واستولى على الحصن.

وبعد فترة، انقلب على (خير الدين بك) واتحد مع الكفار، ولما رأى (خير الدين بك) ذلك ساعد أخاه الذي في (وهران)، وأرسل ثمان وعشرين سفينة تحاصر حصن مستغانم، وأرسل جنودًا من البر استولوا على الحصن، وذهبت السفن إلى سواحل الكفار واغتنموا أموالًا كثيرة، وأخذوا على سفنهم من وجدوا من مسلمي الأندلس، وعادوا إلى (الجزائر).

استرجاع تلمسان للمرة الثانية

لما وصل (عبد الله) أخو (مسعود) بجنود (خير الدين بك) إلى (تلمسان) خرج له (مسعود) في (وهران) وانهزم في المعركة. ودخل الحصن وأغلق على نفسه أبوابه، فحاصروه ما يقرب من عشرين يومًا، ثم دخل فيه مائتا جنديٍّ بواسطة السلالم، وفتح بابه. وكان (مسعود) في داخل القلعة فخرج بمائتي فارس وهرب. فنادي المنادون قائلين (إن الولاية للسلطان سليمان؛ فهدأ الناس) ونصب (عبد الله) حاكمًا، وأصبحت الخطبة والسكة باسم السلطان، ووضع في الحصن مائة وخمسين جنديًّا للدفاع عنه. وكان (مسعود) قد حاصر (تلمسان) بعد ثلاثة أشهر، إلا أنه هزم بمعاونة خير الدين بك وأسر، ومات في السجن.

عصيان (قاضي أوغلو)

تمرد حاكم تونس (قاضي أوغلو)، وأثار العرب ضد (خير الدين بك) فأتوا وحاصروا (الجزائر)، كما دأب الكفار الذين في الجزر على ضرب المدينة بالمدافع من حين لآخر.

وقد قاتلهم (خير الدين بك) ستة أشهر، ولما حل موسم الشتاء اضطر (قاضي أوغلو) لعقد الهدنة، وانسحب ذاهبًا إلى (تونس)، وأرسل أخاه مع جنوده إلى الجزائر مرة أخرى، فخرج لهم (خير الدين بك) وحاربهم حتى هزموا. فأرسل قره حسين خلفهم يتتبعهم، وذهب هذا واستولى على بعض القلاع التابعة لتونس، إلا أن (قاضي أوغلو) خدعه حتى أعاده لنفسه. ولم يبق مع (خير الدين بك) أحدٌ غير الجزائريين. ومع مرور الوقت، صرف هؤلاء أيضًا النظر عن (خير الدين بك)، ولما عرف أن شيوخ العربان يريدون أن يغادروا المدينة

جمع رجاله، وكان باب القصر يفضي إلى ثلاث طرق، بينما كان مائتان منهم يهاجمون القصر من هذه الأبواب خرج لهم أتباع (خير الدين) وشتتوهم، وقبضوا على كثيرين منهم وحبسوهم. وقال البعض نقتل أهل المدينة عن آخرهم إلا أن خير الدين لم يرضَ ذلك. وفي اليوم الثاني، جمع أهل المدينة في الجامع، وتحدث معهم بهدوء وعقلانية. وأخذ من بينهم مائة وستين عاصيًا وأرسلهم إلى السجن، وقتل خمسة وعشرين من رؤساء المتمردين وعاش سنتين في المدينة؛ نزولًا على رغبة سكان المدينة.

هجرة خير الدين بك إلى ججله

حينما سادت الجفوة بين (خير الدين بك) وسكان المدينة تألب عليه جنوده من أهل المدينة وانفضوا من حوله، وانقطعت علاقة المدينة بالخارج فلا يغادرها أحدٌ ولا يأتي إليها أحد، ولما ظل (خير الدين بك) في داخل المدينة كأسير، قرر الهجرة ونوى ذلك، ولكنه كان مترددًا في الذهاب حاملًا كل ما يملكه. ولذلك قرر أن يصلي صلاة الاستخارة. ورأى في رؤياه أن النبي - ﷺ - قد اشترك في حمل كل ما يملكه هذا البطل إلى السفينة وتنظيمه هناك، ولحكمة من الله جاء في هذا الوقت خبر يقول نقبض على قره حسن، ونسلمه لك، فتعلل بالذهاب إليه لمحاصرته، وأفرغ قصره من جميع ما يملكه. وفي الصباح، وضع كل ما يملكه في سبع سفن ونقل أولاده وعياله إليها، وأحضر عظماء البلد والرسول الذي جاء من قِبَل (قاضي أوغلو) للسلام، وترك مفتاح القلعة أمامه، وقال: إن وبال المسلمين على رقابكم أيها العصاة. وركب على حصانه حتى وصل إلى السفينة. وقد قضى الجزائريون تلك الليلة في الميناء في حزن عميق. وجاء الكبار والصغار لتوديعه، وطلبوا منه النصحية وهم يبكون. فقال لهم (اصبروا ثلاث سنوات، ثم اذهبوا حيث تشاءون)، ثم استودعهم ثم اتجه إلى ججله مغادرًا.

غزوات خير الدين بك في ججله

وجاء (خير الدين بك) إلى ججله، حيث استقر، وكان الحصن المذكور في سواحل (المغرب) وتبدو عليه علامات القحط. فخرج بسفنه السبع إلى البحر، وذهب إلى سواحل بلاد الكفار، وهاجم تسع سفن محملة بالقمح، وأغرق إحداهما وأخذ الثماني الباقية، وساقها إلى ججله. عندئذ، انتعشت البلاد، وساد الرخص فدعا له الناس بالخير.

وكان في هذه السفن سبعمائة كافرًا، ثم استصنع لنفسه سبعًا وعشرين سفينة، وخرج إلى البحر واشتغل بالقرصنة في سواحل (تونس). وقبض على معارضيه من التونسيين الذين لا يوافقون هواه، وأحرق سفنهم، وحمل على سبع سفن مشحونة بالقمح في خليج جنوه، فلما رأوه سلموا السفن، فأخذها وأرسلها إلى (جربة)، ثم ذهب إلى هناك ووزَّع القمح على الناس. وقد سمع نداء (خير الدين بك) فأسرع إليه من تونس الرؤساء (آيدين وشعبان) واثنا عشر رئيسًا آخرون بأربعين قطعة سفينة، وانضموا إليه، وذهبوا إلى سواحل الكفار وهجموا على المدن الساحلية، واغتنموا كثيرًا من الأموال، وأسروا كثيرين، وجمعوا الأموال حتى شبعوا، فرجع أغلبهم إلى ججله؛ حيث أمضوا الشتاء.

هزيمة قاضي أوغلو

حينما ارتفع شأن (خير الدين بك) أخذ (قاضي أوغلو) يرسل له الهدايا، وأخذ يتملقه من خوفه، ولكنه كان يصرف عنه. وكان أهالي (الجزائر) يدعونه للعودة إليهم، ولما مرت بعض السفن حاملة المسلمين من أسبانيا إلى الجزائر؛ منع نائب (قاضي أوغلو) نزولهم وأرسلهم إلى جلجله، وكان هؤلاء المسلمون يميلون إلى (خير الدين بك) وكان (خير الدين بك) قد رأى في رؤياه ما يشير عليه بالذهاب إلى (الجزائر). وأرسل رسالة إلى شيوخ الجزائر، وقرئت عليهم فقبلوا عرضه، وأتوا لمقابلته. فلما سمع (قاضي أوغلو) ذلك جمع عشرين ألفًا من العساكر وجاء معهم، ووقف مستعدًّا للحرب ضد (خير الدين بك)، ونظم جيشه جاعلًا خلفه جبلًا، ولما حارب هزم وقتل أربعة آلاف من جنده، فلجأ إلى مكان وعر. وهكذا مات في هذه الحرب (قاضي أوغلو) مقتولًا إذ خرج لحرب (خير الدين بك) وهرب بعض جنوده، ومكث الآخرون في أماكنهم. وكان لهم ألف وثمانمائة من حاملي البنادق. وبعد ذلك، أتى مشايخ العربان من كل صوب وتبعوا (خير الدين بك) فأرضاهم.

وهكذا استرد جميع الولايات التي كانت تحت يد الأعداء الذين وقفوا ضده.

عودة خير الدين بك إلى الجزائر

كان (خير الدين بك) قد طلب من الجزائريين أن ينتظروا ثلاث سنوات، فلما تمت السنون ثلاثًا؛ عاد ودخل الجزائر. وكان المذكور يصلي صلاة الاستخارة كلما هم بأي أمر. وكثيرًا ما كان يرى في رؤياه ما سيحدث في الغزوات. وخضع له العربان في هذه

المرة، واستراح الناس وعاشوا في أمان ونظام، إلا أن حاكم (تلمسان) قطع الإتاوة المفروضة عليه، ومقدارها عشرة آلاف قطعة ذهبية مدة ست سنوات، وتحالف مع الكفار وأسقط اسم السلطان من الخطبة، وأخذ يذكر اسمه، فبعث له (خير الدين) رسالة ينصحه فيها، فلما رفض النصيحة؛ استعد الطرفان للقتال.

الحرب مع عبد الله ومصالحته

جاء حاكم (تلمسان) (عبد الله) ساحبًا معه جنود العرب كما أن (خير الدين بك) خرج من (الجزائر)، وانتصر في الحرب وشتت جنود حاكم (تلمسان)، وبقي من (عبد الله) ثمانية آلاف جملٍ، فشبع جنود (خير الدين بك) من الغنيمة، وبعث (عبد الله) رسولًا يطلب صلحًا، ورضي أن يخطب باسم السلطان وتضرب السكة باسمه أيضًا، وتعهد بأن يدفع عشرة آلاف قطعة ذهبية في السنة، واصطلحا على هذه الشروط. كما أن أخا (قاضي أوغلو) رفع رأسه بالتمرد. فخرج (خير الدين) ليؤدبه وأجبره على أن يعطيه ثلاثين ألف مثقال من الفضة، وقضى على الاضطرابات التي كانت في تلك الجهات، ثم شرع يفكر في الاستيلاء على الجزر التي أمام (الجزائر).

موضوع حصن الجزيرة الواقع قبالة الجزائر

وكانت ثمة جزيرة أمام الجزائر، وكانت قريبة جدًّا منها، وكان الكفار قد استولوا عليها، وبنوا فيها حصنًا متينًا. ومنذ أن استولى (خير الدين بك) على الجزائر، ملأ الكفار ذلك الحصن بذخائر الحرب، وجعلوه قلعة محكمة.

وكان الكفار يأخذون إتاوة من أهالي المدينة بسبب هذا الحصن، وكلما يرتفع الآذان من المأذن كانوا يطلقوا عليها القنابل والبنادق، ويثقبونها. وعندما قدم (خير الدين بك) (الجزائر) أخذوا يتضرعون إليه قائلين: دعنا في قلعتنا ونحن لا نقترب من مدينتكم. ولم يحاول (خير الدين بك) الصلح معهم، ولكنه قام باستعدادات عظيمة. وعاشوا كذلك أربعة عشر عامًا.

الاستيلاء على الحصن الذي سبق ذكره

حاصر (خير الدين بك) هذا الحصن، فأضعفه وهو يضربه أسبوعًا كاملًا ليلًا ونهارًا قبل أن يصل ملك أسبانيا لمعونته، فطلبوا الأمان والصلح إلا أنه لم يرضَ بذلك، واستولى عليه عنوة بقوة السيف، وأسر من الكفار خمسمائة شخصًا غير الذين قُتلوا.

وأمر (خير الدين بك) بهدم الحصن، وملء المضيق حتى اتصلت الجزيرة بالجزائر، وأصبح وسطهما ميناء، وميناء الجزائر اليوم ذلك الميناء.

وأجبر الكفار على بناء الأماكن التي هُدمت بواسطة المدافع وقتل رؤساءهم. وكانت هناك سبع سفن وصلت من أسبانيا لنجدة الكفار، فاستولى عليها كلها بالحرب غير الذين قد أبادهم.

العبرة من الحادثة

أنه يمكن الاستيلاء بالسفن الصغيرة على السفن الكبيرة إذا كان في داخلها رجال أقوياء.

غزوة (آيدين بك)

لما انتشر الخبر بأن قائد السفن التي تم الاستيلاء عليها هو ملك أسبانيا، الذي ذهب إلى (جنوه) أعطى (خير الدين بك) السفن إلى آيدين بك وجعله رئيسًا عليها، وبعثه إلى تلك الجهة. وهجم هذا القائد البحري على سواحل الكفار ومارسيليا، وأخذ كثيرًا من المسلمين المدججين بالسلاح، وعلم (آيدين رئيس) أن خمس عشرة قطعة حربية قد خرجت من أسبانيا لحماية تلك الشواطئ، فأراد أن يهاجمهم؛ لذا تتبعها.

وبينما كانت هذه السفن تستريح في جزيرة (جربه)، هجم عليها وتحارب معها حربًا شعواء. فلما استولى (آيدين بك) على سفينة القيادة، استسلمت بقية السفن. فأفرغ ثلاث سفن وأغرقها كما أحرق ثلاثًا أخرى، وجاء بالبقية إلى الجزائر، وأرسل (خير الدين بك) إلى الباب العالي يبشره بهذا الفتح أيضًا.

خروج (أندريا دوريا)، وظهوره في الميدان، وهجوم خير الدين بك عليه

حينما عجزت طائفة الكفار عن السير في البحار وخلت شواطئها من الأمان، دعا ملك أسبانيا رجاله ليشاورهم في الأمر، وتساءل قائلًا: ما التدبير اللازم للتخلص من (باربار وسا)؟ وكان يطلق عليه (خير الدين باربار وسا) بمعنى خير الدين (ذو اللحية الحمراء) باللغة الإيطالية.

فخلع (أندريا دوريا) من ربابنة أسبانيا المشهورين فبعثه، وقال: (إذا ما أعطيتموني عشرين سفينة حربية لملك فرنسا فعندئذ أستطيع أن أتحدث). وكانت (أسبانيا) قد عقدت اتفاقَ صلح مع (فرنسا) منذ قريب، فبعثوا إليه السفير وطلبوا سفنه، فأعطى لهم سفنه؛ حتى يحاربهم في غايتهم. فأعطى (لأندريا دوريا) الأسطول الأسباني ومعه سفن فرنسا، وملأها

بالجنود ووجههم كلهم إلى الجزائر. كما أن (خير الدين بك) جهز في الجزائر خمسًا وثلاثين سفينة واستدعى (سنان رئيس). فجهز هو أيضًا سبع سفن، وقرر الخروج معه. وتصور (خير الدين بك) مواجهة (أندريا دوريا) في مايوركا. وكان من قبل قد بنى حصن (شرشال) وملأه بمسلمي الأندلس المدجحين بالأسلحة. ولكن (أندريا دوريا) تحرك بنشاط فجاء في صباح يوم من الأيام، وأنزل جنوده على الشاطئ. وبينما كانوا يغتنمون ما وجدوه في خارج الحصن، خرج المسلمون من الحصن، وحاربوا الكفار بكل قوتهم وأجبروهم على الانسحاب.

وقتلوا ما يقرب من أربعمائة كافرٍ حتى وصلوا إلى سفنهم وأسروا ستمائة وأربعين، أما الباقي ركبوا سفنهم وفرُّوا هاربين، وجاء (خير الدين بك) وأخذ الأسرى جدافين، وكان من ضمن الأسرى نائب (أندريا). فعرف منه أن (أندريا) سيتجه إلى (جنوه) لأخذ الجنود منها فاتجه لتلك الجهة. واستخبر من الناس بالقرب من (مارسليا) وعرف أن (أندريا) مرَّ من هناك منذ فترة قريبة، فذهب إلى جزيرة على بعد ثلاثين ميلًا من (مارسليا)؛ حيث مكث عشرة أيام. وبينما كانت سفينة تمر من هناك، استولوا عليها وأتوا بها، وكانت تحمل جبنا وآتية من (مايوركا). وقد رأوا الاستيلاء على تلك السفن من ميناء (طولوم) القريب من (مارسليا)، فخرج ربان الحصن والميناء بأربع سفن حربية، وأخذ تلك السفينة، إذ وجد الحراس الأشداء الذين وضعهم (خير الدين بك) غافلين فأخبر رجال تلك السفينة الربان المذكور عن أنباء خير الدين. فذهب ذلك الربان إلى حصنه في ساحل البحر، وفاجأهم وأسر أهله، ووجد في مينائه عشرين سفينة فأحرقها. وبينما كان متوجهًا إلى (جنوه)، هبت عاصفة فرجع إلى القلعة الأولى التي استراح فيها أولًا، وظل هناك حتى سكنت العاصفة.

هروب أندريا ومعركة قاراقا

لم يذهب (أندريا) من (شرشال) إلى (جنوه) بل ذهب إلى أسبانيا، حيث دخل في نهر كبير واستراح، وكان قد طلب من (جنوه) ثلاثة آلاف من الجنود والبارود والحبال، وقد بعث رجال (جنوه) هذه الأشياء والجنود على سفينتين كبيرتين حيث يستريح أندريا، إلا أن العاصفة ألجأتها إلى تلك الجزيرة أيضًا، فظهرت إحداهما صباحًا. ولما ظهرت أشرعتها رفعت عشر سفن مراسيها، وحملت عليها. وبعد معركة شديدة أتوا بها إلى الميناء، وظهرت السفينة الأخرى بعد عدة ساعات. ولما كان الوقت عصرًا سكنت الرياح فظلت السفينة

في البحر. فانتظروا تلك الليلة، ولما استمرت الرياح في السكون في صباح اليوم التالي، أمر (خير الدين بك) أن تضرب من بعيد، إلا أن (الرئيس سنان) لم يطع كلام (خير الدين) واقترب من السفينة فأصابت عينه رصاصة من بندقية، فاضطر للعودة.

فضرب (خير الدين بك) السفينة من البعيد، حتى أوشكت على الغرق. عندئذ رمى الكفار أنفسهم في البحر، وأُسروا، وسحب الغزاة السفينة إلى الساحل وسلبوها، ففرق جسمها وضمدت جراح المجروحين، وصلوا على الشهداء ودفنوهم، ووضعوا الأسرى كجدافين وأحرقوا السفينة الأولى التي كانوا قد استولوا عليها. وعرفوا أخبار (أندريا) من رجال تلك السفن، وعادوا إلى السواحل العربية.

وخرج أندريا من المدينة التي كان فيها فذهب إلى ميناء أشبيلية مارًّا من (سبته) حيث استراح، ووصل خير الدين بك إلى الجزائر، وكان السلطان قد أرسل من قبل ذلك أحد رقباء بابه العالي إلى فرنسا؛ ليتعرف الأحوال هناك بعد الصلح معها. وقد خرج حسن بك ابن خير الدين، والذي يتشرف بالانتساب إلى السلالة النبوية من ناحية أمه - خرج مع الربابنة الآخرين لسلب بلاد الكفار ونهبها مرتين، فحصل على غنائم كثيرة.

هجوم أندريا دوريا على حصن (قرون) واستيلاؤه عليه وعصيان حاكم تلمسان

حينما اتجه السلطان سليمان في سنة 938هـ (الموافق 1531/ 1532م) نحو (ألمانيا) كان ملك (أسبانيا) (كارلوس الخامس) قد وصل إلى (جنوه) فخطط رؤساء (جنوه)؛ للهجوم على السواحل التركية مستفيدين من غياب كبير الترك حين الحملة.

ولكن أخاه إمبراطور النمسا (فردينادوس) بعث له قائلًا (إن ضرب عدة قلاع ليس مهارة، فساعدني اليوم، لذا قرر أن يذهب لنجدته، وأن يبعث بأسطوله إلى موتون تحت قيادة (أندريا دوريا). فذهب (أندريا دوريا) بأربع عشرة سفينة، وكان (خير الدين بك) يفكر في الذهاب إلى استانبول، فترك أسطوله في البحر وذهب بحرًا ليجابه الأعداء، ولما تقابلوا في أرض سهلة تقاتلوا، فانهزم حاكم (تلمسان) (عبد الله) وهرب إلى مقر ملكه. فتوسط الناس بينهم حتى قَبِل خير الدين الصلح مقابل إتاوة تُدفع لخير الدين بك سنويًّا قدرها عشرة آلاف قطعة ذهبية. ورجع (خير الدين بك) إلى الجزائر، ووجد (أندريا دوريا) البحر خاليًا في هذه الفترة فذهب إلى سواحل المورة، وحاصر حصن (قورون) واستولى على هذه الجزيرة.

وكان الربان (أحمد باشا) قد خرج إلى البحر بثمانين سفينة، ولكنه لم يستطيع أن يدركه. وكان (خير الدين بك) قد أمن البر فبعث بربابنته إلى سواحل أسبانيا، وتسلطوا عليها وأحرقوها. ولم يكن (لأسبانيا) للدفاع إلا خمس عشرة سفينة فتقابل الجانبان في جزيرة (قويونلوجا) وتقاتلا، فنجت من سفن العدو سفينة، أما السفن الباقية فقد استولى عليها الربابنة، وساقوها إلى الجزائر، وكانوا قد حصلوا على غنيمة عظيمة؛ فاقتسموها.

وضع مسلمي (أسبانيا) المدجنين

وصل (كارلوس الخامس) برًّا للنجدة، ولكنه هزم ورجع خاليًا. وكان المسلمون إلى عهده قد فرضت عليهم الجزية، وكانوا يؤذنون ويصلون بكل حرية، ولما كانت هذه الأراضي قد أصبحت في يد الكفار من عهد قريب، صاروا ينقضون على المسلمين في صلاتهم. ولما تولى الملك - السابق ذكره - أخرج المنادين ينادون بأن الصلاة على الطريقة الإسلامية ممنوعة، وأخذ يحرق من يخالفون ذلك.

ولم يطقِ المسلمون هذا العمل الوحشي؛ فقاموا باجتماعات وقد اتحدت عدة من جموع المسلمين، وجعلوا الجبل خلفهم، وبعثوا إلى (خير الدين بك). ولما وصل لنجدتهم هزم الكفار، الذين هجموا عليهم وأخذوا المسلمين في سفنهم، وظل منهم ألف شخص في الحراسة، وقاموا بسبْع حملات، وعبروا بجميع المسلمين في سفنهم إلى الشاطئ المقابل وحرروهم من يد الكفار، وكم من سفينة استولوا عليها وهم في صدد هذا العمل، ونهبوها.

وهكذا عبر ما يقرب من سبعين ألفًا من المدجنين إلى (الجزائر)، واستقروا في (الجزائر) وأماكن أخرى؛ لذا فأغلب أهالي (الجزائر) أندلسيون.

خداع (أندريا) وتدبير (خير الدين بك)

عندما عاد السلطان (سليمان) من حملة (ألمانيا) بعث رسالة إلى (خير الدين بك) يقول: (أريد أن أسافر إلى أسبانيا، ليأت إليَّ من يستنيب شخصًا مناسبًا، وإذا لم يجد من يقوم مكانه ليعرفني بالأمر).

وكان قد بعث بهذا الأمر إلى سنان. ولما عرف (أندريا) عزم (خير الدين بك) على الذهاب، خرج من (أشبيلية) وأتى إلى (جنوه)، وأراد أن يحول دون ذهاب (خير الدين بك) فلجأ إلى المكر والخداع، فوضع على سفينته أموالًا قيمتها ستة آلاف قطعة ذهبية، وعدة آلاف أسرى من (قرنلي)، فبعثهم إلى الجزائر، وقد علمهم أن يقولوا: إن ملك (أسبانيا) سيأتي إلى (الجزائر). وقد عرف (خير الدين بك) إن هذا خدعة فأمر بتفريق السفن وإقامة المتاريس، وأخذ ما على السفينة وسمح لها بالحملة، فخرج (أندريا) ظنًّا أن (خير الدين بك) قد أعرض عن فكرة الحملة إلى بلاد السلطان، وانطلق نحو بلاد (قورون).

القبض على أسرى الكفار وقتلهم

كان في السفينتين اللتين تم الاستيلاء عليهما عشرون شخصًا من البكوات والربابنة ومائة وعشرون جنديًّا، وكفار صالحون للعمل ذوي قلائد ذهبية في رقابهم، وكان أحد الربابنة ابن (ميفال ماستوري) الذي خرج من (رودس).

وجاء رجال من (جنوه) لإنقاذ هؤلاء فعرضوا دفع وزن (ابن ميفال) من فضة، وبعض من الربابنة. وقيل إن يدفعوا عشرين ألف قطعة ذهبية لإعتاقهم جميعًا. وبذل البكوات جهودهم للعمل على تسليمهم، ولكن العلماء قالوا: إن هؤلاء أعداء أقوياء، وليس تسليمهم أمرًا معقولًا. واستصوب (خير الدين بك) تركهم في (الجزائر)، كما رأى قتلهم؛ لأن الكفار كانوا يأسرون المسلمين ويقتلونهم، وكان الكفار قبل ذلك يعذبون الأسرى بأن يقطعوا آذانهم وأنوفهم وغير ذلك من أساليب التعذيب. كما أن (خير الدين بك) من جهة كان يعذب أسراه ويخبرهم بذلك. فاتفقوا بينهم على ألا يعذبوا الأسرى فيما بعد؛ لأجل ذلك يعذبوا الرئيس صالح والرئيس (طورغودجه) حينما كانا في الأسر، ولكن خير الدين كان يبحث عن أسباب لقتل الأسرى. وحينما رأى في رؤياه أن الأسرى قد استولت عليهم رغبة شديدة في الهروب بعد قتل الحراس وحتى يجرب مدى صحة هذه الرؤيا؛ علَّم أحد الحراس من رجاله كيف يتفق معهم ويطلع على أسرارهم. ونجح هذا في أن يكسب ثقة الربابنة ويطلع على أخبارهم. وإذا بهؤلاء الربابنة قد كتبوا رسالة إلى حاكم بجاية يطلبون فيها أن يرسل لهم سفينة

وقالوا له - أيضًا - إننا نخرج من السجن بعدما نقتل الحراس، وهنا ما يقرب من سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسيرًا، فإذا لم نستطع أن نستولي على المدينة فعلى الأقل ننجو من الأسر. وسلموا هذه الرسالة للحارس طالبين منه أن يرسلها بطريقة ما إلى حاكم (بجاية). وعرض الحارس الرسالة على خير الدين بك، ثم استمر في مصانعة الأسرى، وحمل الرسالة إلى حاكم (بجاية) وأعطى له رسالة الربابنة، فأعدوا سفينة، وأرسلوها توًّا لتصل في تلك الليلة.

واهتموا بالحارس وأعادوه. وجاء هذا إلى خير الدين بك وأخبره بما تم، فخرج الرجال في سفينة، وساقوها إلى (الجزائر)، وكان في داخلها مائة وعشرون من الكفار فأخرجوا الربانة من السجن، وقتلوهم جميعًا بهذا الذنب، وبعث خير الدين برسالتهم إلى جنوه، وكانوا يعرفون خطوطهم. فأغلقوا أفواههم، وصمتوا.

توجه خير الدين بك إلى ديار الروم

لما حل خير الدين من أمور الأسرى المعقدة، خرج في سفن مكملة التجهيز نحو بلاد الروم حتى يعرض خدمته للسلطان تاركًا نائبًا عنه الخادم (حسن بك) من أتباعه في الجزائر. ومر من جانب (ساردنيا) (وصقلية)، وهجم على حصن قريب من جنوه بغتة صباحًا مبكرًا، ونهبه وهدمه. وبينما كان سائرًا من جنوه إلى مسنيا خرجت أمامه ثماني عشرة سفينة فاستولى عليها كلها، وقبض على رجالها من الكفار، وأحرق السفن كلها أمام المدينة، وعرف أن (أندريا دوريا) ذهب إلى قورون بثلاثين سفينة مختلفة، ولما وصل إلى بروزه نبَّهه كفارها، قائلين له: لا تغفل أن (باربا روسا) سيبحث عنك. فخرج من هناك وذهب إلى (برنديزه) حيث احتمى بها. وكان (خير الدين) قد سمع أنه اتجه لتلك الجهة، فأرسل من خلفه خمسًا وعشرين سفينة، واستطاع رجال (خير الدين) أن يلحقوا بسبع سفن من (آنابولي)، فهربت خمس سفن منها إلى جهة (آنابولي)، وأدركوا الاثنين وأسروهما ورجعوا. ومن جهة أخرى، كان الأسطول السلطاني قد وصل إلى (افارين) حيث التقى (خير الدين بك) (بأحمد بك) قائد الأسطول، وتحدث معه. وقام من هناك وذهب إلى قورون فأنقذ بعض الأسرى وأطلق سراحهم. وجاء إلى المضيق واستأذن من السلطان في دخول إستانبول، فأذن له، وأقام احتفالات عظيمة.

وصول خير الدين بك إلى باب السلطان

وفي يوم من أيام منتصف عام 940هـ (الموافق 1533م) ألقت سفن (خير الدين بك) مراسيها أمام (غالاطه). وفي اليوم الثاني، دخل بيوت قائد البحر (أحمد بك) التي خصصت له في ميدان الخيل. وذهب إلى مقابلة السلطان مع ثمانية من ربابنته بهدايا عظيمة إلى الديوان السلطاني، ونال شرف تقبيل اليد السلطاني، ونال ثناء السلطان عليه كما أن ربابنته دخلوا معًا، وقبّلوا يد السلطان، فأُلبسوا كلهم خلعًا، وعُينت له معاشات، ثم أمره السلطان بأن يذهب إلى ترسانة البحر، ويستصنع السفن كيفما يشاء.

ذهاب خير الدين بك إلى حلب

رغب السلطان في الخروج إلى غزوة العراقين، وهي غزوته السادسة، وذلك في ربيع الآخر من تلك السنة (الموافق أكتوبر 1533) فبعث بوزيره الأعظم إبراهيم باشا مقدمًا إلى معسكرات الجند في حلب، واستأذن الوزير السلطان، وبعث رسالة إلى خير الدين يدعوه إلى حلب. ولما كانت أمور جنود البر والبحر مرتبطة بتلك الجهة رجا الوزير الأعظم السلطان في الاستشارة مع خير الدين بك. وترك السلطان أمر الحملة لمحض إرادة خير الدين بك، فذهب (خير الدين) بعد أن استعد من البر إلى حلب، وعندما التقى والوزير الأعظم، جمع الوزير الأعظم ديوانه، وقام بكل مراسم الاستقبال والترحيب وفق الأصول. فقبّل (خير الدين باشا) يد الوزير الأعظم وفق الآداب، وعين له مكانًا بعد الباشوات والبكوات، فجلس. ودعي في اليوم الثاني فأُلبس - وفق التقاليد العثمانية - خلعة أمير أمراء (الجزائر)، وأجلسه قبل أمير الأمراء الآخرين، واستضافه عدة أيام، وتشاور معه في بعض الأمور، وأرسله إلى استانبول، وعاد بعد اثنين وعشرين يومًا، وتسلم عمله.

القسم الثالث

الشئون البحرية في عهد قيادة خير الدين باشا

لما رجع خير الدين باشا من (حلب) استصنع إحدى وستين سفينة حربية، وكان قد أتى من (الجزائر) بثماني عشرة سفينة، وخمس من سفن المتطوعين، فأصبحت كلها أربعة وثمانين سفينة، وأمرت بالخروج إلى البحر.

حملة خير الدين باشا الأولى

خرج خير الدين باشا بالسفن المذكورة في يوم مناسب، ووصل إلى سواحل (مبنيه)، وهدم حصن (ريّه) الذي كان قد أخلاه الكفار، وبات ليلًا في الفنار، واستخار للذهاب إلى (مالطة). ولما كانت رؤياه موافقة؛ قام ليلًا وهجم على قلعة (سانتا لوجيتو). واستطاع أن يستولي عليها بعد أن ضربها من قرب من العصر، وأباحها للنهب والسلب، وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسيرًا، وهدم القلعة. وتقدم تلك الليلة حتى وصل إلى قلعة (جتروس)، فأخرج إليها الجنود وضربها واستولى عليها، واتخذ سكانها أسرى، وكانت ثماني عشرة قطعة من السفن الحربية أحرقوها كلها مع منازل القلعة، ثم خرجوا إلى البحر، فاستولوا على حصن أمام (آنابولي)، وأسر أهله وتركوا هذا المكان، وساروا نهارًا وليلة واحدة وباغتوا قلعة (اسبرلونقه)، فأخذوا من هناك ما يقرب من أحد عشر ألفًا من الأسرى، وهدموا قلعتها حتى سووها بالأرض، وغادروا تلك القلعة وهجموا على جزيرة (سردينا) ونهبوها.

وبينما هم سابحون نحو الجزائر، ألقتهم الرياح إلى الجهة الغربية، ولما وصلوا أمام قلعة (بنزرت) خرج حاكمها، وذهب ليخبر ملك تونس بالأمر وهو الملك حسن من بني حفص.

الحرب الطويلة واستيلاء الكفار على حصن تونس بقوة

كانت بلاد (تونس) في تلك الأزمنة في يد بني حفص، وكان الملك العشرون من هذه السلالة يحكم (تونس). وكان أخوه رشيد قد ذهب مع (خير الدين باشا) إلى الباب العالي؛ حيث قُيِّض له راتبٌ شهري، ولما كانت تونس - وخاصة جهة

حلق الواد - مكانًا مناسبًا لقضاء الأسطول موسم الشتاء فيه، وكان قد عرض على السلطان سليمان ضمها إلى بلاد السلطنة العثمانية وأخذ منه إذنًا بفتحها، قائلًا له: إن ضمها سيفيد الدولة. وكان التونسيون غير راضين عن حسن، فلما وصل (خير الدين باشا) ثاروا ضد (حسن)، وصحبوا (خير الدين باشا) إلى حلق الواد ظانين أن رشيد معه، إلا أن رشيد كان في استانبول. فهرب حسن ودخل خير الدين باشا قلعة تونس، التي كانت تبعد تسعة أميال في الداخل. فلما مد بنو حفص أيديهم لرجال (خير الدين باشا) جمعهم كلهم، وَوُضِعوا في البرج. وقتل بعض المشايخ فلما هاجمهم حسن من الخارج خرج خير الدين من أبواب القلعة، فقامت معركة كبيرة بينهما، فقتل ثلاثمائة من جنود العرب، وهرب حسن منهزمًا. فاستولى (خير الدين باشا) على (تونس)، وأرسل إلى مشايخ العربان في تلك الجهات وأخبرهم بالأمر، وحاول أن يقبض على (حسن)، واستدعى بعض الجنود من الجزائر وسجل أسماء الرعية. ولما عرف التونسيون أن رشيد ليس مع (خير الدين باشا)؛ تنحوا عن خير الدين باشا؛ فقتل (خيرُ الدين باشا) رؤساءَ الفتنة فخضع له أهل تونس. وجمع حسن شمل رجاله في (القيروان) وجاء بالجنود. وخرج خير الدين من تونس إلى الصحراء بأحد عشر ألفًا من جنوده، وثلاثين عربة بمدافعها بواسطة الأشرعة. فلما بدأت المعركة، وأطلق خير الدين المدافع خلف جنود العرب هربوا؛ لأنهم كانوا عاجزين عن الوقوف ضد المدافع والبنادق؛ فانهزم حسن، وجاء مشايخ العرب إلى (خير الدين باشا) وأعلنوا خضوعهم، وذهب أخو (حسن عبد المؤمن) إلى (طرابلس)، وأخذ يحرض بابا روما وملك أسبانيا (كارلوس)، قائلًا: إن السلطان سليمان على حدود إيران، وهذه فرصة وتحالف معهم. وحملوا ثلاثمائة سفينة حربية بأربعة وعشرين ألفًا من حاملي البنادق، وكانوا على وشك الخروج، فبعث حسن رسولًا، يقول لهم: قد حُوصِر (باربا روسا) في (تونس) بجنود العرب، ودعاهم قائلًا: أدركونا سريعًا. وبناءً على ذلك قالوا نستولي في طريقنا على تونس، ثم نستمر في طريقنا. وأتوا في اليوم السابع ودخلوا في مرفأ البرج المائي بالقرب من (حلق الواد)، وأنزلوا جنودًا على البر. ولما رأى أهل تونس الكفار أسرعوا إلى (خير الدين باشا)، ولما كان حصن (حلق الواد) ضيقًا؛ فقد استعدوا للقتال خارج الحصن، وحفروا الخنادق ووضعوا فيها المدافع. كما أن جنود الكفار نصبوا الخيام

خارج الخنادق، وقامت معارك عظيمة عدة أيام بين الطرفين، وهناك ما يقرب من ستة آلاف كافرًا، إلا أنهم ظلوا يقاومون لكثرة المعونات التي كانت يتلقونها معونة إثر أخرى، وكان المسلمون قد استولوا على ثلاثة متاريس، وقتلوا الكثيرَ من الكفار، ولما حاربوا حربًا متتالية فالبقاء هناك كان خطرًا؛ لذا أخذوا بعضهم وذهبوا إلى (تونس)، وأخذ الكفار (حلق الواد)، واستولوا عليه. ووصل السلطان حسن عندئذ ببعض جنود العرب، واتحد مع جند الكفار، وأرسل رسائل إلى أصدقائه في تونس باذلًا لهم الوعد. وكان التونسيون أربعة أقسام عبارة عن سكان الحصن والأقسام الثلاثة الباقية جند (ماراسن). فجمع (خير الدين باشا) هؤلاء التونسيين، وقال لهم: سمعت بوصول الرسالة لكم من الكفار، فما رأيكم؟ ابْقوا أنتم في المدينة، أما أنا فأخرج وأقاتل الكفار. إلا أنهم قالوا حاشا أن يكون ذلك، ووعدوه بالخروج معه. وكانوا في المجمل تسعة آلاف وسبعمائة جنديًّا. وكان أحد الأقسام الأربعة مرتبطًا بالجهة الأخرى. فخرجوا مكروهين غير راغبين. وعندما قدم الكفار الحصن، خرج (خير الدين باشا) وحاربهم. ولما تراءى عدد الجزائريين خلفهم، رجع الكفار وطاردهم من خلفهم. كان قتال لا بأس به من الكفار. والقسم الذي كان ينتظر فرصة للهرب اتجهوا نحو الحصن فبعث (خير الدين باشا) إليهم رجالًا حتى يرجعوهم فلم يرضوا، وجرُّوا عربات المدافع في داخل الحصن. فرجع الكفار قائلين: هرب الترك. وحاربوا فترة حتى حل المساء ودخلوا خيامهم. وفي الغد، وضع خير الدين باشا متاريسَ أمام الحصن، وبعث بجنود (الجزائر) إلى الحرب، وأناب عنه في المدينة من يسمَّى بـ(جعفر أغا)، وخرج من خلف الجنود الجزائريين، وكان الكفار قد خططوا على الانسحاب نتيجة لشدة حرارة الجو وعطشهم. وفرَّ التونسيون في هذه الفترة نحو المدينة. وكان فيها أربعة آلاف من الأسري المجدافين. فتحرر هؤلاء وأغلقوا الأبواب، وبناء على رواية أخرى أن جعفر قد رجع للجهة الثانية، وحرر هؤلاء. وكانت بعد ذلك الهزيمة تامة، وتتبع (خير الدين باشا) بمائتي جنديٍّ من التونسيين، فأبعدهم عن (حسن) ودفعهم نحو (بجايه). وبناءً على رغبة حسن؛ أصلح الكفار قلعة (حلق الواد) ووضعوا فيها أربعة آلاف من جنودهم، والقسم الكريه الذي كان سببًا في الهزيمة ظلوا في القلعة، واتهم أكثرهم بأنهم من أتباع رشيد وقتلوا.

عودة خير الدين باشا إلى الجزائر

وكان (خير الدين باشا) قد أعطى لربان من قبل حصنَ بلدة (عناب)، وأرسله هناك بخمس عشرة قطعة بحرية، فذهب هذا إليه عندما جاء الكفار إلى تونس، وأغرقت السفن بأمر الباشا. ووصل خير الدين باشا في اليوم الخامس إلى بجاية. ومن هناك إلى بلد (العناب)، فأمر كل ربان سفينة بوضع المدافع أمام البحر، فلم يعطوا فرصة لسفن الكفار بالاقتراب، وجرُّوا السفن واتجهوا نحو الجزائر. فاستقبله السكان بكل ترحاب، فحيا الباشا كبارهم وصغارهم، وجهزت تسع سفن كانت تحت إمرة (مراد آغا). كما ضم إليه ثماني قطع من السفن الجزائرية؛ فأصبح إجمالي سفنه اثنتين وثلاثين سفينة، فخرج بها إلى البحر بعد مرور خمسة عشر يومًا، وألقى مراسي سفنها في مكان على مسافة ثلاثين ميلًا من (ميوركا).

وفي صباح اليوم التالي، أطلق من القلعة ما يقرب من خمسين مدفعًا، فقام خير الدين من هناك قائلًا: (ستفهمون حقيقة الأمر فيما بعد). فصادفوا في طريقهم سفينتين، واستولوا عليهما. وكان في داخلهما أسرى تونسيون، فأطلقوا سراحهم، وقيدوا الكفار بالسلاسل، وأحرقوا السفينتين. ووصلوا من مينوركا إلى مرفأ قلعة (ملوت)، ولبسوا ملابس الكفار. وكانت السفن التي ذهبت إلى تونس قد جهزت هناك، وعندما اقتربوا من الحصن ظنَّ الكفار أن هذه السفن من أسطول (أندريا دوريا)؛ فأطلقوا مدافع الترحيب والفرح، ورجعتا وألقتا مرساتيها. ولما جاء الكفار من الحصن للاستطلاع على أحوال تونس؛ قبضوا عليهم وقيدوهم. وذهبت سفينتان حربيتان إلى سفينتي الأعداء. ولما قيل لهم تعالوا إن (بارباروسا) يريد أن يراكم، ذهلوا وأُخذوا أسرى، وكان فيهما تسعون أسيرًا، فأطلق سراحهم.

فتح حصن مينوركا

أخرج خير الدين باشا الرجال إلى البر، وحاصر الحصن الذي سبق ذكره وضربه أربعة أيام. وجاء حاكم الجزيرة بستة آلاف كافرًا، وقاتل قتالًا شديدًا إلا أنه هزم، فنخسوا حصانه؛ فوقع من عليه وقُتل. ولما رأى ذلك كفار القلعة؛ سلموا الحصن. فأذن (خير الدين باشا) لجنوده بنهب القلعة وأموالها، وأخذ خمسة آلاف وسبعمائة أسيرًا، وكان عدد القتلى ثمانمائة. وفي اليوم السادس، هدم القلعة وعاد إلى الجزائر.

سبب جبن الكفار

قاوم الكفار في الحصن المذكور عدة أيام معتمدين على حاكمهم. وإلا فما كانوا يحاربون في الأماكن التي يصل إليها (خير الدين باشا). إلا إذا كانوا كثيري العدد؛ لأنه قد جاء في كتابهم المقدس: إن من يستطيع أن ينجو بنفسه مُسَلمًا نفسه كأسير إذا حارب ومات؛ لا يدخل الجنة.

كما أن رجال دينهم يوصون بذلك. ويحكى أن (أندريا دوريا) قال لأسير متعلم: (لماذا تتصف طائفتكم بالشجاعة والبسالة؟ فقال له: هذه هي معجزة نبينا، فكل من يعتنق دينه يصبح بطلًا، حتى إذا اقتضى الأمر أن يقتل أباه وأمه. ولما سأله عن سبب ذلك، قال له: هذا هو كل ما أعرفه. فقال له أندريا في كتابكم من يتنحى القتال يدخل جهنم. فإذا ما تراجع أحد منكم عن قتال الكافرين لا يدخل الجنة. أليس هذا ما يقضي به كتابكم؟ وهذه الكلمات هي التي جعلت المسلمين أبطالًا. أما في كتابنا فقد جاء أن ألف كافر إذا ما تقاتلوا مع مسلم واحد، وعرفوا أنهم سيموتون فلا يقاتلون. وهذه هي نصيحة البابا للكفار، ولكن جنودنا ليست لهم علاقة بأمور الدين لذا يحاربون حتى الموت. وقد استفسرت عن هذا الموضوع من بعض علماء المسيحين، فقالوا: ليس كذلك. إن أندريا جاهل من عوام الناس، ولا يعرف شيئًا عن الكتاب، فما قاله رأي شخصي، ففي الدين المسيحي أيضًا لا يوجد فرار من القتال.

عودة خير الدين باشا إلى استانبول

بينما كان ملك أسبانيا ذاهبًا إلى مقابلة البابا، وأخذ يفتخر قائلًا: قتلت باربا روسا واستوليت على تونس، جاءت أخبار حصن مينوركا، واكتشف كذبه، فخجل ورجع عالي بلاده. كما أن أندريا عندما سمع أخبار حصن مينوركا رغب في الهجوم على باربا روسا. كما أن خير الدين باشا قد عرف سفن أندريا، وهو ذاهب من الجزائر. فتغاضى عنها، ولم يهتم بها. ومرّ بجربة، ومن هناك توجه إلى استانبول. كان ملك المسلمين قد رجع من بغداد لتوِّه. وذهب خير الدين باشا إليه، وعرض له خضوعه واحتراماته، فرحب به ترحيبًا عظيمًا وصدر الأمر السلطاني بصناعة مائتي سفينة للذهاب إلى شواطئ (بوليا). وبذل الباشا جهده في صناعة أجسامها وإتمامها.

حملة بوليا

خرج الغازي (خير الدين باشا) في 943 الهجرية، وفي شهر ربيع الآخر (الموافق سبتمبر 1536) بثلاثين قطعة بحرية خفيفة وجديدة من الترسانة العامرة، ووصل إلى شاطئ بوليا. فهجم على قلعة محكمة قوية يقال لها (كاستل)، وفتحها بعد معركة شديدة. وأخذ أسراه بعد نهبها، وعاد إلى الترسانة العامرة؛ لكون الوقت شتاءً، وجهز في ذلك الشتاء سفن الأسطول.

ذهاب السلطان سليمان إلى حملة الخليج

وكان سبب هذه الحملة الآتي:

كانت بلاد بوليا قد فتحت قديمًا في عهد السلطان (محمد الفاتح)، فاستردها عندما جاء (كدك أحمد باشا) إلى أسبانيا مرة أخرى.

وبينما كان الباشا الغازي بصدد إرسال أسطول عظيم إلى تلك الجهات، تدخل الوزير الأعظم (إلياس باشا)، وكانت محافظتا (أولونيه) و(دلفينه) من ضمن ولاياته، قال إن تلك البلاد مقابل هاتين المحافظتين، وفتْحَها من الأمور المهمة للدولة العثمانية، وعرض هذا الأمر على السلطان.

كما أن كمال رئيس قد عرض عدة مرات فتح جزيرة الخليج على السلطان، لذلك خرج السلطان بنفسه مضطرًّا إلى الحملة على تلك الجهات. وكان لطفي باشا قائد الأسطول فخرج خير الدين باشا بمائتي وثمانين قطعة من السفن المختلفة في يوم الجمعة الموافق الثالث من ذي الحجة من سنة 943هـ (الموافق 12 مايو 1537)، وتوجهوا إلى البحر الأبيض المتوسط، ولم يخرج من قبل مثل هذا الأسطول العظيم من الدولة العثمانية، وقد جمع ما يقرب من ثلاثين ألفًا من الجدافين، وخرج السلطان ذو الحظ السعيد في السابع من ذي الحجة (18 مايو) مع اثنين من أبنائه إلى تلك الجهة، ومروا بساماكو في 944هـ، وفي آخر المحرم (الموافق 9 يوليو 1537) وصلوا إلى (ألباسان)، وفي الخامس من صفر الموافق (24 يوليو) باتوا في سهل (أولونيه)، فجاء الأسطول إلى ذلك الساحل فتقابلا وهجم على ألبانيا التي تمردت ضد الوزير مصطفى باشا وسلبها.

وكان غرب (أولونيه) بحرًا، وجهتها الشرقية (ألبانيا)، وكانت سفن الكفار الذين يأتون من البحر يقدمون لهم المعونة، وقد استولى عليها بتدبير إلياس باشا، كما أن عُصاة (دلفينه) خضعوا، وأصبحت أراضي هاتين الولاتين من ضمن أملاك الدولة العثمانية، ولما تجمع الأسطول أمام (أولونيه) طلب خير الدين باشا إتيان سفن الذخائر من مصر بستين قطعة من السفن، فصُدع بالأمر. وذهب لطفي باشا ببقايا سفن الأسطول إلى ساحل (بوليا) وهجم على بضعة قلاع، واستولى على الحصن، وأخذ أمواله وأسر منه ما أسر، ثم هدمه. وبينما كان (خير الدين باشا) مارًّا من أمام الخليج، كانت هناك أربعون قطعة من السفن الحربية التابعة للبنادقة، وكانت بقية سفن أسطولهم في داخل مضيق البندقية.

وخرج البنادقة قائلين (باربا روسا) قد ذهب؛ لنذهب إلى مكان أمين. وبينما هم في هذا الوضع، كان لطفي باشا عائدًا من (بوليا)، فتقابلوا معه وتقاتلوا. فأغرقوا سفينتين من سفنهم واستولوا على اثنتين منها، ودخل الأسطول الخليج كما أن (خير الدين باشا) أخذ سفن الذخائر، وسار بها إلى (بروزه). ومن هناك، ساروا إلى (أولونيه) واجتمعوا في مكان واحد.

خيانة البندقية

إن كفار (البندقية) جمهرة من الناس اشتهروا بكثرة أموالهم ورواج تجارتهم، وإنجاز الحيل والخداع والشر. وقد حصلوا على جزرهم وحصونهم من حكام المجر ورومانيا. وكانت هاتان الدولتان تابعتين للدولة العثمانية؛ لذا كانت أعمالهم التجارية ومكاسبهم وطعامهم وشرابهم كلها؛ متوقفة على المعاملات الإسلامية، لأجل ذلك كانوا يتظاهرون بإخلاصهم للدولة العثمانية ويواصلون حياتهم. إلا أن عدواة هؤلاء نحو المسلمين كانت أشد من الكفار الآخرين، وكانوا يرون أنفسهم أجانبَ حصلوا على أمان في داخل الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك يصل (علي كتخدا) نائب مدير ترسانة (غليبولي) بسفينتين حربيتين، مرَّ من الخليج، وكان أندريا دوريا هناك؛ فخرج مع سفن الخليج وهاجم السفن التركية، وقامت معركة إلا أن كثرة الأعداء أضعفت الغزاة المسلمين، واشتعلت المعركة من الفجر حتى العصر. وفي النهاية، غرقت أكثر السفن العثمانية، واحترقت، وأخذ من بقي من المقاتلين أسرى. كما أن نائب مدير ترسانة

(غليبولي) (كتخدا سنان) كان ذاهبًا إلى جزيرة الخليج سفيرًا من قِبَل (لطفي باشا) فهجم على سفينته أربع سفن حربية من سفن البنادقة وأخذتها. بالرغم من أنهم قد بذلوا من جهود ليقنعوهم بأنهم ذاهبون بالسفارة، لم يقتنعوا فأغرقوا السفينة في البحر من خوفهم، وقتلوا من فيها بكل خسة وحقارة.

إلا أن فتًى من الفتيان ألقى نفسه في البحر، وبينما كان سابحًا على البحر مستعينًا بقطعة خشب، صادفته إحدى سفن الأسطول، وأتوا به إلى (لطفي باشا) وأنبئ السلطان الأمر. ومن أجل هاتين الهزيمتين صدر الأمر السلطاني بمحاصرة الخليج.

محاصرة الخليج

وصُرف النظر عندئذ عن حملة (بوليا)، وصدر الأمر السلطاني بأن يحاصر الأسطول الهمايوني جزيرة الخليج، كما أن السلطان قام من أولونيه، واستقر أمام جزيرة الخليج. وفي رواية أخرى، أن العثمانيين أقاموا من السفن جسرًا طويلًا (ميلٌ ونصف)، وعبرت الجيوش الإسلامية من هناك إلى الجزيرة. وكانت تضم مائة وأربعين قرية فسُلبت كلها، وهُدمت، ولم يبق في الجزيرة غير قلعتها. وسحبت إلى الحصن المدافع، وحوصر حصارًا تقليديًّا. ولما كان أكثر نواحيه في البحر، فضرب من جهة البر ثلاثة وأربعين يومًا ليلًا ونهارًا، وفتحت الثغرات فيه.

وبعد حملات شديدة وقتال رهيب، جاء موسم الشتاء وأمطرت السماء أمطارًا غزيرة، وحل البرد، ومضى وقت الحرب؛ فرحم السلطان الجنود، وبعث (إلياس باشا) إلى الجزيرة، وأمرهم بأن يتركوا الأمر. وكم حاول لطفي باشا وخير الدين باشا أن يثنوا السلطان عن رأيه، قائلين: إن الأمر أوشك على النهاية، وقد فتحت الثغور حتى لا تذهب الجهود سدًى؛ إلا أن السلطان تمسك برأيه قائلًا: (إن المكتوب لا يُمحى). وبناء على رأي السلطان قد سمع أن أربعة من الغزاة قد استشهدوا بقنبلة، وقال إن جنديًّا واحدًا من جنودي أغلى عندي من قلعة، فأمر بترك القلعة.

وخلاصة القول، ترك الفتح للسنة المقبلة، واجتمع الديوان السلطاني في أواخر ربيع الآخر (الموافق أكتوبر أواخر 1537)، فوزعت الخلع على الأعيان والعظماء، وأحسن إلى ربابنة الأسطول ورؤسائه، وأعطي لجنود الفرسان ترقية نقود وكذلك للمشاة.

وغودر المكان في الرابع والعشرين من ذلك الشهر (الموافق 30 ديسمبر 1537) ووصلوا إلى (أدرنه) في عشرين يومًا عن طريق (بره بول)، (كوريّه)، (برشتنيا) (مناستر)، (فيلورنيا)، (وسلانيك). وهاجم (لطفى باشا) و(خير الدين باشا) عند العودة جزيرة (كفالونيا)، وأنزلوا فيها الجنود ونهبوها وحصلوا على غنائم لا حصر لها.

هجوم خير الدين باشا على جزر البندقية واستيلاؤه عليها

عندما جاء الأسطول السلطاني من (كفالونيا) إلى (متون). اختار (خير الدين باشا) من الأسطول ما يقرب من ستين سفينة، وظل في الخارج. أما لطفي باشا فقد رجع ببقية السفن ودخل الترسانة السلطانية. وهجم خير الدين باشا أولًا على جزيرة (جوكا). ثم ذهب إلى الجزيرة المسماه (آكنه)، وكان لها حصن قوي محكم، فأخرج المدافع وحاصره. وظل يضربه ثلاثة أيام حتى استسلم في اليوم الرابع وفتح. وأخذ من هناك أربعة ألاف وثمانمائة أسيرًا، ونهب أموالهم واغتنمها. ثم وصل إلى جزيرة (مرتد) فضربها بالمنافع واستولى عليها. وأخذ من هناك ألفين ومائتين أسيرًا، ثم ذهب إلى جزيرة (بارا) فقاتلهم طويلًا إلا أن الكفار لم يستسلموا. وفي النهاية، استولوا عليها بقوة السيف، وأخذوا منها غنائم كثيرة. ولما وصل إلى (ناقشا) قاومه كفارها، ثم رضوا بدفع الخراج، وذهب جنود الأسطول مستأذنين، ونهبوا الجزيرة واغتنموا من هناك غنائم كثيرة. ثم ذهب (خير الدين باشا) إلى جزيرة أخرى، وفتح ثلاثًا من قلاعها في ظرف عشرة أيام. وأخذ منها خمسة عشر ألفًا من الأسرى. ثم فرض على ست جزر خراج قدره خمسة آلاف قطعة ذهبية، ثم رجع إلى استانبول.

هدايا خير الدين باشا

وفي الغداة، جمعت الغنائم، وكانت بطائن من الأقمشة والنقود وخمسة آلاف فتاة وألف وخمسمائة فتًى ومائة ألف قطعة نقدية. وكانت الأموال الأخرى في الغنائم على هذا القياس.

وفي اليوم الثاني، أُلبس مائتين من الفتيان ملابس حمراء، ووضع في أيديهم أباريق من الذهب والفضة والأقداح، وخلفهم ثلاثون فتى على كتف كل واحد منهم كيس ذهبي وخلفهم مائة رجل على كتف كل واحد منهم كيسٌ من النقود. وخلفهم ألفٌ من الكفار مقيدوا الرقاب، وعلى ظهر كل واحد منهم قطعة من الجوخ أو البطائن. وهكذا قدم خير

الدين باشا الهدايا للسلطان، وقبّل يده. فلبس خلعة، ونال تقدير السلطان؛ لأن أحدًا من الربابنة حتى ذلك الوقت لم يقم بما قام به خير الدين باشا.

حملة خير الدين باشا الثالثة

عندما اقتربت نهاية الشتاء، أمر السلطان وزراءه بأن يجهزوا مائة وخمسين سفينة حربية؛ ليخرج بها (خير الدين باشا)، ولم تكن السفن جاهزة بعد، فضيق الوزراء الخناق على (خير الدين باشا) قائلين: ليس من الضروري خروجك، ولكنه لم يرض. ولكنهم لجأوا إلى حيلة قائلين: إن (أندريا دوريا) قد وصل إلى جزيرة كريت بأربعين سفينة، وهو صالح رئيس الذي ذهب إلى مصر ليجلب الأمتعة الهندية بعشرين سفينة. فخرج (خير الدين باشا) بأربعين سفينة جاهزة على أن يرسلوا التسعين الباقية من خلفه في التاسع من المحرم سنة 945هـ الموافق (8 يونيو 1538)، وانضم إليه ثلاثة آلاف من جنود الإنكشارية وحاكم قوجا ايلي (علي بك) وحاكم (تكه) حرم بك وحاكم (صيدا) علي بك، وحاكم علائية مصطفى بك. وكانت سفينة قد غرقت قديمًا في (إمروز)، وكان في داخلها سبع عشرة مدفعًا. فأخرجها ووصل إلى جزيرة (إشكاتوز)، وكانت بهذه الجزيرة قلعة متينة فوق صخرة وميناء، فعرضها عليه حاكم (أغريبوز)، قائلًا: إن القراصنة يستقرون فيها ويخربونها.

فذهب إليها، فضربها بالمدافع من مسافة سبعة أميال ستة أيام ليلًا ونهارًا. وفي اليوم السابع، فتحها بقوة السيف وحصل على ثلاثة آلاف وثمانمائة أسيرًا من الكفار. وجاء من (استانبول) تسعون قطعة من السفن الحربية، كما جاءت عشرون قطعة مع صالح رئيس. وهكذا اكتملت مائة وخمسون قطعة حربية وفق الأمر السلطاني.

ولكن السفن التسعين التي جاءت من استانبول لم تكن كاملة التجهيز، وكانت مؤنها وجدافوها غير كاملة، فأفرغ إحدى عشرة منها، وأعادها إلى غليبولي وأرسل الباقي إلى آغريبوز، ثم ذهبوا ليلًا إلى جزيرة (إسكبري). وفي صبيحة اليوم الثاني، ذهبوا إليها، وانضم إليهم قراصنة البحر الأبيض في سبعين قارب. وكان هؤلاء قد ذهبوا من قبل إلى (إسكبري) ونالوا نصرًا. ولما وصل إليها (خير الدين باشا) نادى الكفار طالبين الأمان وسلموا القلعة. فأعطاهم (خير الدين باشا) الأمان وأعطى للجنود ثلاثة آلاف قطعة من الذهب، وقسم مائة

فتى ومائة فتاة أسرى للدولة، وأخذوا على عاتقهم دفع ألف قطعة ذهبية كجزية. ومكثوا في (إسكبري) قليلًا حيث زيتوا السفن وملأوا سبع سفن أموال الغنيمة، وبعثوها إلى استانبول.

وكانوا قد بعثوا إلى (إسكبري) من الخلف اثنين من رجال المدفعية، ولما رأيَا أن القلعة قد استولي عليها؛ أتوا بهما إلى (خير الدين باشا) في وقت العصر، فأخذ منهم الأخبار عن العدو، وقسم الباشا جميع سفنه إلى سبعة أقسام. وأرسل كل قسم منها إلى جهة ما. وذهب أحدهما لجمع الخراج من الجزر، وأبحر الباشا من هناك حتى جاء إلى جزيرة (استديل) وكان حاكمها أفرنجيًّا، وسكانها من اليونانيين، فطلبوا الأمان فأعطاهم الباشا الأمان بشرط أن يأتوا بحكامهم. وفرض عليهم جزية سنوية قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية، ولما وصل بعد ذلك إلى جزيرة (أندرة) خضع سكانها له ففرض عليهم خراجًا قدره ألف قطعة ذهبية. ثم بسطت السفن أشرعتها، واتجهت إلى (ناقش)، وأقيمت هناك احتفالات عظيمة، وتم تحصيل خراجها.

واتجهوا إلى (كريت) وساروا يومين، ولاحت في ظهر اليوم الثالث سفينة عظيمة راسية كالجبل فتوجهوا إليها، ولكنها لم تستسلم لهم.

ولما ثقوا بطنها من عدة أماكن ضعفة، فذهب إليها (الربان إبراهيم) وأخذها وجروها معهم وساروا في طريقهم. وصل خير الدين بك إلى كريت في اليوم الثالث من صفر 945 الهجرية (الموافق 3 يوليو 1538)، فصعد إلى حصن (ميلوبوتامو)، ولما هرب كفاره اغتنموا عشرين قرية من قراها، ثم هجموا على (أباقورنه) وأسروا أهلها وهدموا ستين قرية حولها وأحرقوها. ولما وصلوا في السابع عشر من صفر (الموافق 1 يوليو 1538) إلى(خانيا) القلعة المتينة القوية، وهرب الكفار ودخلوا في داخل القلعة، واستعدوا في الفجر لمهاجمتها، ورأى الربابنة المجربون أن الاستيلاء على هذه القلعة من الصعوبة بمكان؛ فالجهة البحرية منها حصن قوي، والجهة البرية فيها جدار قوي يمتد ثلاثة أميال. ومؤنها وسفنها وجندها كثيرون وهي مستقلة بذاتها؛ لذا لم يتعرضوا لها، ولكنهم هدموا القرى والمنازل التي حولها وأحرقوها.

وفي ظرف ثلاثة أيام، استولوا على ثلاثمائة من القرى، ثم ذهبوا إلى (منوليلو) و(ريتموا) وهدمت قراهما، وعندما وصلوا بعد ذلك إلى (استية) حاول سكانها الدفاع

عنها، فلم يقدروا على ذلك، وهربوا فأخذ كثيرون منهم أسرى وقتل الآخرون. ثم كان الاستيلاء على حصنين هما: (اسكلاريا) و(استيلوا)، ونهبت ثمانون قرية حواليهما. وهكذا تعرضت جزيرة كريت في تلك السنة لخسارة عظيمة. وداروا حولها في ظرف أسبوع ونهبوا قراها. وأخذ منهم أكثر من خمسة عشر ألفًا من الأسرى، وسيق بعضهم إلى (استانبول) فوق السفن التي أخذت منهم.

وذهبوا إلى جزيرة (كربة) وكانت لها ثلاث قلاع فمكثوا هناك عشرة أيام، واستولوا على قلاعها وفرضوا عليها الخراج. وكان الجو حارًّا، وكانت الرياح الحارة تهب كريح السام؛ فوهن الجدافون وماتوا. وقاموا من هناك إلى جزيرة (ابلاكي) حيث استراحوا قليلًا، ولما وصلوا إلى(استانكوي) شتتوا شمل جنود الإنكشارية ووزعوهم على السفن الأخرى.

كما أخذوا من الجزر كفارًا كثيرين كجدافين، كما جاءت معونة ونجدة من الجدافين من سواحل الأناضول. ثم ذهبوا إلى جزيرة (استانبوليا) حيث سلم الباشا غنائمه لسفن المتطوعين، وفرض الخراج على اثنتي عشرة جزيرة من جزر البندقية، واستولى على 25 جزيرة من جزر البندقية في كل واحدة منها حصن أو حصنان أو ثلاثة حصون. وهدموا ثلاث عشرة قلعة. ومن هناك، ذهبوا إلى جهة بلاد الروم، وصلوا إلى جزيرة الحصن الأحمر حيث أفسدوا السفن البطيئة، ووضعوها في ميناء (آغريبوز)، وقاموا ليلًا بالسفن السريعة إلى الجزيرة (سودا) حيث زيتوا السفن، وأخذوا الذخائر في آغريبوز، كما أن صالح رئيس وصل إلى هناك بثلاثين سفينة. وكان صالح رئيس هذا ربانًا ماهرًا، وأقيمت هناك احتفالات كثيرة.

معركة خير الدين باشا الكبرى

اجتمعت في هذه الفترة أساطيل أسبانيا والبابا والبندقية في الخليج، وهجمت على (بروزه)، ولما وصل هذا الخبر إلى (خير الدين باشا)، وكان قد أرسل عشرين سفينة للمتطوعين لتلك الجهة، وكانت سفن المتطوعين قد رجعت إذ رأت في (زاكليسا) أربعين من سفن الحراسة كما رجعت تلك السفن، وأخبرت تلك السفن، وأخبرت أسطولها بقرب (بارباروسا) من في هذه النواحي قد عرف خير الدين أمام (موتون) أن الأعداء تركوا حصن (بروزه)، وخرجوا فذهب إلى (هولموج) حيث أخذوا الماء. وفي

(كفالونيا) أخرج رجاله إلى البر ونهبوا قراها. ثم ذهب إلى (بروزه) وكان حصنها قد جرح تمامًا من المدافع، وذهبوا في أثناء محاصرة (بروزه) إليها من (ایاماورا) لنجدتها ليلًا، ودخلوا الحصن وقتلوا كثيرين من الكفار. وأفسدوا المدافع. وفي النهاية، رجع العدو خالي الوفاض، وأمر (خير الدين بك) الجنود بإصلاح الحصن، وتم ذلك. وبعث بسفينتين للمتطوعين إلى شاطئ الأعداء ليستقوا الأخبار. فكانت أساطيل أسبانيا والبابا والبرتغال والبندقية كلها قد اجتمعت في الخليج. وكان السلطان حينئذ في حملة البغدان.

فأرسل هذا الخبر إلى السلطان، كما أن أساطيل الكفار قد وصلت وألقت مراسيها بالقرب من (بروزه) بميلين، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة 945هـ (الموافق 25 سبتمبر 1538).

سفن الكفار

كان مع أندريا دوريا اثنين وخمسين سفينة حربية، ومع جنرال البندقية سبعين قطعة حربية، ومع ربان البابا ثلاثين سفينة وعشرة سفن لملك البرتغال، وعشر قطع حربية من البندقية أيضًا كانت كل واحدة منها ترمي ألفين قذيفة، وتستطيع كل واحدة منها أن تقاوم خمسين سفينة حربية. وكانت لأندريا سفينة عظيمة ناهيك عما فيها من الذخائر الحربية، كما انضمت إليها سفن المتطوعين، فأصبح إجمالي عدد السفن ستمائة سفينة ترفرف عليها الأشرعة.

فاستشار (خير الدين باشا) قادة سفنه، وحث الجنود على الجهاد واستعد للأمر. ورفع أعمدة السفن من عليها، وأوصاهم بأن ينظروا إليه، وإلى سفينته عند السير والوقوف، وأوصى سفن المتطوعين قائلًا: ابقوا بعيدًا عن مجموعة السفن، وعندما تهاجمون حاولوا أن تضربوا المدافع. ولما رأى القواد وربابنة (خير الدين باشا) كثرة سفن الكفار عرضوا فكرة إخراج الجنود والمدافع إلا على البر. فلم ير (خير الدين باشا) هذه الخطة معقولة. ولكنه عندما عرف أن الأعداء يحاولون أن يدخلوا من مضيق (بروزه) نشر الجنود على الساحل ووضع المدافع. ولما ترك الكفار فكرة الخروج إلى البر، أخذ يضربهم بالمدافع. ومن جهة أخرى، خرج (مراد أغا) ومن سفن المتطوعين (طورغوده بك) و(كوزلجه محمد رئيس) والآخرون ببعض السفن، وأرهبوا الأعداء الذين في الأطراف. ولما جاءت

بعد يومين عدد السفن الحربية للأعداء، وأخذت تطلق مدافعها نحو السفن الإسلامية متظاهرة بالقوة والتفوق؛ لم يتطرق الخوف إلى قلب (خير الدين باشا) هذا الباشا الذي قضى حياته كلها في الجهاد، وكان كل همه الغزو والجهاد في سبيل الله.

وأمر بدق الطبول ورفع رايات السفن، وخرج من مضيق (بروزه) وألقى مراسي سفنه ستة أميال فوق البحر بنية مجابهة سفن الكفار. وجاءت جميع السفن الإسلامية واصطفت بجانبه، ثم أشار لها فأطلقت كل واحدة من السفن التي يبلغ عددها مائة واثنين وعشرين قطعة بحرية ثلاث قنابل من مدافعها، فارتجت الأرض والسماء، وامتلأت قلوب الكفار بالخوف. وكان المساء قريبًا، فهربوا إلى ناحية الخليج وساروا في طريقهم. ورجع الباشا إلى مكانه، وصلى صلاة الاستخارة تلك الليلة. فرأى في رؤياه أنه يجمع سمكًا كثيرًا من ناحية الميناء، فقام في منتصف الليل وتوجه لتلك الجهة.

هزيمة الكفار وهروبهم

كان أندريا دوريا يستعد في الثالث من جمادى الأولى (الموافق 27 يوليو 1538) في خليج (إينه بختي)، فلما وصل (خير الدين باشا) إلى (بخشيلر) أصعد الناس على الأعمدة، فرأوا أعمدة السفن أمام (آياماورا) ومينائها، فوجهت جميع السفن دفاتها إلى جهة واحدة مستعدة، ولما رآهم الكفار خرجوا أيضًا، ولما كانت رياح تلك الجهة مواتية استولى الخوف على المسلمين؛ لأن نوع السفن التي كان عليها المسلمون ما كان ليقاوم سفن الكفار. وفي الحال توجه (خير الدين باشا) متضرعًا إلى الله، وكتب آيتين كريمتين، وأرخاهما على جانبي سفينته، وعندئذ سكنت الرياح وتوقفت سفن الكفار عن الحركة والسير.

العبرة من القصة

يجب على القادة العظام ألا يعتمدوا دائمًا على الوسائل المادية، بل يجب عليهم أن يستعينوا بالوسائل الروحية المعنوية كلما استطاعوا ذلك.

واصطفت سفن الكفار الذين ذهبوا، وأخذت تطلق القنابل، ولكن أكثر قذائف مدافعهم لم تكن تصل إلى السفن الإسلامية. فخرجت أولًا سفينة حربية كبيرة، وأطلقت مدافعها، ولكن الأسطول السلطاني جابهها بالقنابل فَرَدَّها. وكانوا قد أضعفوا سفن العدو الثقيلة بضربها من بعيد. ولما جاء أندريا دوريا والجنرال بسفنهم الحربية الخفيفة لمحاربته

لم يطلق عليهم الباشا المقاتل مدافع سفنه، فجمعوا كالبندق، وظل الأسطولان داخل الأدخنة حتى أصبحا لا يرى أحد المسلمين منهم الآخر، والتفت سفن الكفار عدة مرات من خلف سفن المسلمين أرادوا أن يحاصروها بين السفن الثقيلة وبينهم، فلم يتمكنوا من ذلك. وكلما كانت سفن الكفار تتعرض للنيران كانت تلتف وتدخل خلف السفن الثقيلة. وكانت هذه السفن مصطفة وتدخل بعضها ببعض كأنها قلاع، ولم يكن هناك سبيل يفصلها. وبعدما احتمت سفن الأعداء الخفيفة مرات عديدة خلف سفنهم الثقيلة تحت تضييق المسلمين، فكر الباشا وأطلق مدافع سفنه بغتة، وهجم على السفن الثقيلة، وأغرق كثيرًا منها، ومرَّ من بينها بعدما فتح الطريق، وذهب إلى السفن الحربية الخفيفة. وكان قد أوصى جنوده فلم يهتموا باغتنام السفن الثقيلة. فذهل الكفار من هجمات المجاهدين، واستولى عليهم الخوف. ولم تستطع السفن بعد ذلك المقاومة، وأخذت سفن العدو تهرب. واستمر القتال إلى ما بين صلاتي المغرب والعشاء، فغرقت أكثر السفن الثقيلة بالقنابل المنطلقة، ولما رأى (أندريا دوريا) هذا الوضع أخذ ينتزع شعرات لحيته، وهرب تاركًا خلفه السفن. وقال جنود المسلمين: إن السفن الثقيلة في حوزتنا، وغايتنا السفن الحربية السريعة، فتتبعوا سفن العدو، واستولوا على اثنتين منها. وجاء المساء وهبت الريح، فأتى الكفار إلى مكان المعركة، واضطروا أن يحرقوا سفنهم الثقيلة مرة أخرى من ضحى اليوم الثاني حتى غروب الشمس بشكل ليس له مثيل في الحرب.

وجيء في الصباح إلى (أياماوره). وضم (خير الدين باشا) الربانَيْن اللَّذين أسرا هناك إلى ابنه، وأرسلهم جميعًا برسالة الفتح إلى السلطان. ووصل إلى (بروزه) حيث هنأه القادة والربابنة مقبّلين يده. ووصل ابن الغازي (خير الدين باشا) والسلطان يصطاد في (يانبولو)، ونال تقدير السلطان وكرمه، واجتمع الديوان السلطاني وقرئت رسالة الفتح فشكر الحاضرون لله سبحانه وتعالى وأثنوا عليه وحمدوه. وأمر السلطان بتقييض راتب قدره مائة ألف آقجة لخير الدين باشا، وأرسلت رسائل الفتح إلى الأطراف ووصى بتزيين المدن. ومن جهة أخرى، كان (أندريا دوريا) قد وقع في الخليج وهو يهرب، فقام الباشا في الرابع عشر من ليلة هذا الشهر الموافق (11 أكتوبر 1538) من (بروزه) إلى (بخشيلر) قرب المساء فلم ير أي أثر للكفار هناك. فرجع ثانية إلى (بروزه) فأعطى إذنًا للمتطوعين بنهب (كفالونيا). فذهبوا إليها ولم يتركوا في الجزيرة غير قلعتها. وبينما

كان مشغولًا بترميم حصن (بروزه) جاء خبر بوقوع (دراج) في يد الكفار؛ فأخرج الباشا سفينته، وقضى ليلة في البحر، ووصل صباحًا مبكرًا أمام حصن (بارغا). ولما كان سكانه من الكفار فقد هربوا فقد نهبه وأضرم فيه النار. وأخذ أربعمائة أسيرًا. وبينما كان ذاهبًا إلى (بخشيلر)، صادف في الطريق سفينتين ثقيلتين فاستولى عليهما. واستراح هناك يومين.

وفي اليوم التالي، غادرها عند بزوغ الفجر، وخرج إلى مضيق الخليج فقامت عاصفة شديدة فذهب إلى أولونيه؛ حيث مكث عشرة أيام إلى أن تحسن الجو. وقد تعب الجنود كثيرًا، وجاء الأمر السلطاني الذي يخيره بين تمضية الشتاء حيث هو وبين الذهاب إلى (استانبول)، ففضل أن يذهب إلى (استانبول). وقامت عاصفة شديدة وهم في مضيق (ببرجك)، فأتوا إلى (غليبولي)، ودخلوا استانبول في احتفالات عظيمة.

دخول الكفار في حصن نووه بالقوة

هجم (أندريا دوريا) في أثناء العاصفة. ولما قصر حاكم (نووه) في تدبيره، حاربه، وبعد إصرار استولى عليه ووضع في داخله ستة آلاف من المقاتلين، وعاد.

وكان (خير الدين باشا) قد وصل حينئذ إلى (أولونيه) فلم يتمكن من الخروج لشدة العاصفة.

حملة سليمان باشا أمير أمراء مصر على الهند

في عام (900 هـ الموافق 1494) كانت أسبانيا قد اكتشفت الدنيا الجديدة قبل ذلك. فامتلأت عندئذ البرتغال أيضًا بالهمة والنشاط، ووجدت طريقًا من المحيط الغربي إلى المحيط الشرقي، فدارت من جبال القمر منبع نهر النيل وسواحل الحبشة وزنجبار، ووصلت إلى سواحل الهند. واستولت على موانئ الهند والسند. ولما كانت هذه البلاد غير قادرة على الدفاع عنها، طلب ملك (كوجرات) نجدة السلطان سليمان، فأمر السلطان الغيور أن تصنع في ميناء السويس ثلاثين سفينة، وأن يعد أسطولًا قويًا، وأمر أمير أمراء مصر (خادم سليمان باشا) أن يذهب بذلك الأسطول إلى تلك الجهات حتى يقطع يد العدو عن سواحل اليمن والهند. وقام الوزير المذكور من السويس في أواخر محرم سنة 945 الهجرية الموافق (أواخر يونيو 1538) بالأسطول، ووصل إلى مدينة (عدن) في السابع عشر من ربيع الأول (الموافق 13 أغسطس 1538) وأخذها من يد حاكمها (داود أوغلو عامر) بتدبير حسن.

ورمَّم برجها وأسوارها، وأعطاها لـ(بهرام بك)، ثم غادر عدن، واتجه إلى غايته الأصلية إلى ميناء (ديو) من موانئ الهند، والذي استولى عليه البرتغال. واقترب من مرفأ (ديو) وقد ساعدته الرياح على الوصول إلى قلعتي (كوه) و(كار) من قلاع البرتغال في غرة ربيع الأول في يوليو. وأخرج العساكر إلى البر كما أخرج المدافع، وأخذ يضرب هاتين القلعتين بالقنابل حتى استولى عليهما. وقتل ما يقرب من ألف كافر، ثم عاد إلى ميناء (ديو) وأراد محاصرته. ولكن حصن هذا الميناء كان محاطًا من ثلاث جهات بالبحر، والجهة الرابعة كانت حائطًا متينًا. وأخرجوا من الأسطول ما يقرب من ألفي جندي ومدافع، وحاصروه. وذهب بعض الرجال إلى ملك (كوجرات) يطلبون الذخائر منه. وطالت المحاصرة ما يقرب من شهر، ولما كان حاكم عدن قد قتل من قبل؛ فخاف الملك (ملك محمود حاكم كوجرات) ولم يأت ولم يبعث نجدة. وظل الكفار الذين في الداخل عاجزين، وظلوا يثيرون (ملك محمود) وانخدع قائلًا: إن (سليمان باشا) صلب حاكم عدن، فما الذي أنتظره أنا منه!؟ فامتنع عن إعطاء الذخيرة ووقف ضدهم في أمور أخرى، وتصالح مع الكفار وتحالف معهم. فتخلى عنهم الجنود ووضعوا المدافع في السفن، ووصلوا بالسلامة في عشرين يومًا إلى (شهر)، فجاء حاكمها وأعلن خضوعه. ومن هناك أتوا إلى (عدن) وميناء (زبيد) وكان من يسمى بأحمد قد استولى عليها فحبس في قلعة وبتدابير جيدة؛ أمكن القبض عليه.

وأعطيت ولاية اليمن إلى بيقلي مصطفى باشا، وظل هذا هناك ما يقرب من شهر، ونظم أمور الحراسة، ثم ذهب من هناك إلى (استانبول)؛ حيث أخذ مكانه في الديوان ضمن الوزراء.

حملة خير الدين باشا إلى جهة نووه

ولما كان استرجاع حصن (نووه) الذي استولى عليه الكفار من الأمور المهمة للدين والدولة وقد مر الشتاء وجاء الصيف؛ فاختير أمير أمراء الروملي (خسرو باشا) وهو في (صوفيا) وأرسل من البر إلى (نووه). كما أن الربان (خير الدين باشا) خرج إلى البحر بمائة وخمسين سفينة، وفي الثامن من ربيع الآخر سنة 946 (الموافق 24 أغسطس 1539) حاصر حصن (نووه) بسبع وثلاثين مدفعًا.

ولما ضربت جدرانه ثمانية آلاف ومائتي قنبلة انهارت جدرانه في اثنين وعشرين يومًا. فحمل عليه المجاهدون، واستولوا على أحد البرجين. وكان لـ(نووه) برجان

كبيران. فهرب الكفار إلى البرج الآخر وطلبوا الأمان، فأخذه الباشا بقوة السيف وأسر من به من الكفار. وبنى القلعة من جديد، ووضع فيها ستة وعشرين مدفعًا، وأرسل جنوده لغزو بلاد الكفار، وعاد إلى باب الدولة بغنائم عظيمة.

هجوم ملك أسبانيا على الجزائر، ودفاع حسن بك

لما ذهب السلطان الغازي إلى المجر لتأديب جيشها في سنة 948 هـ (الموافق 1541 / 1542)، أرسل (خير الدين باشا) بسبعين قطعة بحرية للدفاع عن البحر الأبيض المتوسط. كما أن ملك أسبانيا جاء إلى سواحل (البندقية) ليساعد الإمبراطور (فرديناندوس) بأسطوله ولينهب البلاد الإسلامية. ولما سمع بخروج (خير الدين باشا) إلى البحر خجل من الرجوع إلى بلده فاتجه نحو الجزائر. وكان (خادم حسن أغا) الذي نصبه (خير الدين باشا) مكانه في الجزائر من قبل ذلك لا يتورع عن الهجوم على السواحل الأسبانية لينهب أموالها، وذلك بإعداد ثلاثين سفينة حربية جيدة، ووضعت أسبانيا في أربعين سفينة ثقيلة أربعة آلاف حصانًا وجملًا وألف جنديٍّ، كما أن الملك نفسه عبر البحار، وجاء إلى (الجزائر) في الثامن والعشرين من جمادى الآخر سنة 948هـ (الموافق 19 أكتوبر 1541)، ودعا (حسن بك) لاجتماع وأرضى جنوده. ولما أخذ الأعداء ينصبون خيامهم ويقيمون المتاريس خرج حسن بك ليلًا بستمائة من فرسان الترك وألفين من فرسان العرب وباغتهم ليلًا. فتشوش نظام الكفار، وقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف منهم، ورجع المجاهدون إلى حصنهم. ولحكمة الله أمطرت السماء في الليلة الخامسة أمطارًا غزيرة، وهبَّت عواصف شديدة.

وارتمت السفن الثقيلة إلى البر، وغرق بعضها، وابتل بارود الكفار فوقفت المدافع وتعطلت البنادق عن الإطلاق. فرأى حسن بك ذلك فخرج من الحصن وهجم عليهم. وبعد معركة عظيمة، امتدت قرابة ساعتين رجع إلى القلعة. وانغرست مائة وست سفينة في البر، ودخلت أربع سفن حربية الميناء. وخرج من هذه السفن ألف وأربعمائة أسيرٍ مسلم، ونجَوْا. واضطر الكفار للانسحاب من القلعة، ووصلوا إلى رأس (تمنتوس) بعد خسائر عظيمة وخجل عظيم وتمنوا العودة إلى بلادهم، فتتبعهم المسلمون وقتلوا كثيرين منهم. ولما كان نهر (خاراش) قد فاض فرأوا ضغط الجزائريين من خلفهم، فنزلوا في

مياه النهر ومات كثيرون منهم غرقًا. أما الباقون فقد ركبوا سفنهم الناجية وخرجوا إلى البحر في السادس والعشرين من رجب (الموافق 16 ديسمبر سنة 1541م) وهبت عاصفة أخرى، وألقت بسفنهم ناحية (بجاية) فوجد طريقهم بصعوبة وذهبوا إلى أسبانيا. وهزيمة (كارلوس الخامس) بسبب هذه العاصفة مشهورة ومسجلة في كتب التواريخ. ولم يمر وقت طويل بعد هذه الهزيمة حتى دخل (كارلوس) في الدير، وأصبح راهبًا، وتنازل عن عرشه لابنه.

طلب فرنسا المعونة، ومعونة السلطان فاتح البلاد

أرسل ملك فرنسا (فرنسيسكو) رسولًا إلى باب السلطان العالي في سنة 949 الهجرية (الموافق 1542 / 1543) يطلب منه النجدة؛ لأنه قد حدثت عداوة شديدة بينه وبين ملك أسبانيا، وتقررت الحرب بينهما. فطلب ملك فرنسا من السلطان أن يرسل لتلك الجهة أسطوله الهمايوني ويعينه. وصدر الأمر السلطاني بأن تعد سفن كافية في الشتاء فأعد (خير الدين باشا) مائة سفينة حربية، وخرج إلى البحر في صيف 950 الهجرية (الموافق 1543م) في أسطول عظيم، واتجه نحو فرنسا. هذا ما كتب في بعض المحررات والسجلات، ولكنني لم أجد تفصيلات الموضوع حتى أكتبها.

وفاة خير الدين باشا

خرج خير الدين باشا الغازي بعد ذلك بعام أو اثنين إلى حماة، ورجع إلى استانبول، ومات في السادس من جمادى الأولى سنة 953هـ (الموافق 5 يوليو 1546)، ودفن في ضريحه في بشكطاش. وكانت سنه قد تجاوزت الثمانين- وتاريخ وفاته هو (مات رئيس البحر) 953 هـ (الموافق 5 يوليو 1546)، ألا فليرحمه الله رحمة واسعة.

القسم الرابع

حول حملات الربابنة الذين ظهروا فيما بين المرحوم خير الدين باشا وبياله باشا

حملة محمد باشا

أصبح بعد المرحوم (خير الدين باشا) (محمد باشا) من الوزراء ربانًا وقائدًا للبحرية وحرس البحار سنة أو سنتين، ثم أعطيت له بلاد الروم، وأصبح بعد ذلك وزيرًا أعظم، وكان في (سكتوار) وزيرٌ أعظم.

فتح طرابلس على يد سنان باشا

أصبح بعد (محمد باشا) (سنان باشا) أخو (رستم باشا) أميرًا للبحار. وذهب لفتح طرابلس، وكانت طرابلس الغرب من قديم في أيدي بني حفص، ولما كان محمد بن حسن الملك التاسع عشر لهذه السلالة مبتلًى بالشرب واللهو والعبث، انتهزت أسبانيا هذه الفرصة وهاجمت حصون وهران وبجاية وطرابلس، وفتحتها في سنة 916هـ (الموافق 1510 / 1511م)، وظلت طرابلس في يد أسبانيا اثنين وأربعين عامًا. ولقد كان السلطان يرغب في فتحها، وذهب قبل ذلك (طوردت بك) الذي وضع تحت يده محافظة (قارلي ايلي)، ذهب إلى (المغرب) بطريقة ما حيث ظل سنتين. وذهب الربان (سنان باشا) في سنة 958هـ (الموافق 1551م) بدلالة وريادة الغازي المشهور بمائة وعشرين سفينة حربية، وهجم عليها وأخذها بالحرب. وكان قد تعهد بإعطاء بلاد طرابلس إلى (طوردت بك) حتى مماته، ورغم ذلك فإن(سنان باشا) أعطى الولاية لـ(خادم مراد أغا).

ولكن (طورغودجه أغا) أخذ الولاية بنفسه من السلطان، احتفظ بها أحد عشر عامًا إلا أنه استشهد في مالطة.

حملة بيري رئيس على جهة المحيط الشرقي

وكان (سليمان باشا) من قبل ذلك أخذ الجنود إلى عدن وفتحها، إلا أن سكانها قد اتحدت مع البرتغال التي استولت على الهند وخرجوا عن الطاعة، وسلموا الحصن للكفار. فأرسل لفتحها السفن التي حازت الانتصارات من السويس مع (بيري رئيس) كاتب كتاب البحرية ابن أخت كمال رئيس، وخرج من البحر الأحمر، ومرَّ بباب المندب ووصل إلى عدن فنصب المدافع وحاصرها، ثم هجم عليها وفتحها. ووضع بها الجنود، وأتم ما يلزمها ثم غادرها وأتى إلى مصر. ولما عرض والي مصر (داود باشا) خدمات الربان على السلطان أعطاه مكافأة مالية قدرها مائة ألف آقجة.

حملة بيري باشا الثانية على المحيط الشرقي

خرج ربان مصر الذي سبق ذكره (بيري باشا) في سنة 959هـ (الموافق 1551 / 1552) من ميناء السويس بمختلف السفن الحربية التي يصل عددها إلى ثلاثين سفينة، ووصل إلى (عدن) عن طريق (جدة) و(باب المندب)، وعبر رأس الحد عن طريق (ظفار) و(سجر). وهجم بسفنه الباقية على حصن (مسقط) في ولاية عمان، وأسر سكانه ونهب جزيرتي (هرمز) و(رخت). وجاء إلى البصرة، وهناك أشاع الكفار قدوم أسطول. كما أن الربان الذي أسروه في (مسقط) أكد ذلك. وقال: لا تقف هنا، وإلا سيكون خروجك من مضيق (هرمز) في منتهى الصعوبة. بل مستحيلًا.

لما سمع ذلك، لم يستطع إخراج جميع سفنه، فأسرع بثلاث قطع حربية خفيفة قبل أن يأتي الكفار. وتحطمت سفينته بالقرب من البحرين، فذهب بسفينتين إلى (مصر)، وظلت بقية السفن في (البصرة). وأراد والي (البصرة) قوباد باشا أن يعطي لأحد بكوات ولاية مصر مهمة قيادة السفن وهو (علي بك) فلم يرضَ، وذهب من البر إلى (مصر) بعد أن عطل السفن. ووصل هذا الحادث إلى أذني السلطان، فلما وصل بيري رئيس إلى مصر قبض عليه والي مصر وسجنه. وأنبئ بالأمر الباب العالي، ولما جاء الأمر السلطاني بقتله قطعت رقبته في ديوان مصر، وظهرت له أموال لا تعد ولا تحصى. ضُبطت وضُمت إلى الأموال الأميرية. فجاء بعد ذلك أهالي (هرمز)، وقالوا استولى على أموالنا، وأخذ كل ما نملك، وطلبوا هذه الأموال، ولكن ذلك لم يفدهم.

وأرسلت القدور المليئة بالذهب إلى الباب العالي، وكتب (بيري) هذا الكتاب (البحرية) وتحدث عن البحر الأبيض المتوسط ووصفه، وليس للمسلمين كتاب عن البحر غير هذا الكتاب، فالذين يريدون أن يجولوا في البحار عليهم أن يقرءوا هذا الكتاب.

حملة الربان مراد

عندئذ، أسندت إمارة بحر مصر إلى (مراد بك) الذي عُزل من محافظة (القطيف) في (البصرة) وأمر بأن تبقى من السفن الموجودة في ميناء البصرة سفينتان ثقيلتان وخمس سفن خفيفة حربية أخرى. وغرقت سفينة حربية في البصرة وغابت عن الأنظار، ولما خرج (مراد بك) بخمس عشرة سفينة حربية خفيفة، وسفينتين من ميناء البصرة، وكله أمل في الوصول إلى (مصر).

وصل إلى مضيق (هرمز)، وكان أسطول الكفار قد وصل وينتظرهم، فوقفت سفن الكفار أمام المسلمين فحدثت معركة شديدة. واستشهد الرئيس (سليمان بك) الربان ورجب رئيس وكثيرون من الجيش، وجرح كثيرون، كما أن المدافع التي أطلقت على السفن أضرت كثيرًا بالسفن، ولما جاء الليل انسحبوا.

إلا أن سفينة ثقيلة ظلت هناك، وأنزلت الناس الذين عليها على البر في شاطئ (لار). فنجا البعض وأسر البعض، وأخذ الكفار السفينة. أما بقية السفن فقد رجعت مرة أخرى إلى البصرة، وأخبر الباب العالي بالوضع.

الربان سيدي علي

اشتهر (بن حسن سيدي علي) هذا بلقب الكاتب، فله أشعار وأقوال جيدة، وغير ذلك، فهو عالم بالفلك وأمور البحر، وله قدرة على النظم والنثر. وله كتاب عن المحيط الهندي يسمى (المحيط)، وله كتاب يسمى (مرآة الكائنات) التي تجمع فنون الربع والإسطرلاب (وربع مقنطرة) و(الجيب). ولم يأت بعده في إدارة الترسانة من يشبهه. وصاحب السلطان (سليمان) في فتح (رودس)، وخدم فيما بعد في المغرب وفي أماكن أخرى مع (خير الدين باشا) و(سنان باشا) والربابنة الآخرين. وكان آباؤه منذ فتح استانبول من كبار رؤساء الترسانة البحرية؛ لذا فهو

ورث عنهم علم البحار. لذا أسند إليه السلطان سليمان في أواخر عام 960هـ (1553/1552م) الإمارة المصرية، وأمره بأن يحضر السفن التي في (البصرة) إلى (مصر).

حملة الربان سيدي علي على المحيط الشرقي

خرج هذا الربان في محرم سنة 961هـ (الموافق ديسمبر 1553) وفق الأمر السلطاني من (حلب) إلى البصرة عن طريق (الموصل) و(بغداد). ولما وصل إلى (البصرة)، جهز خمس قطع من السفن الموجودة هناك، ولما اقترب وقت حملته أرسل والي البصرة أحد الأشراف بسفينة حربية صغيرة إلى جهة هرمز، يستطلع الأمور. ولما رجع أخبر أنه لا يوجد في تلك الجهة للكفار غير أربع قطع من السفن البطيئة. عندئذ دخل الجنود في السفن وخرجوا من البصرة في غرة شعبان (الموافق 10 يونيو 1556)، وانضم الشريف السابق بسفينته ليصاحبهم حتى (هرمز). ووصلوا إلى (القطيف) والبحرية سائرين من قرب سواحل (عبادان) و(الحسا) و(دسبول) و(شتر) وجزيرة (حرك). وقريبًا من (سرافه) وتلاقى مع حكيمي مراد رئيس. وكان البرحانيون يخرجون الماء العذب من عمق مسافته ثمانية أذرع في عمق البحر بالقرب. ولما وصلوا من هناك إلى (هرمز) القديم و(براخت) و(هرمز) عاد الشريف. ولما وصلوا بالقرب من مدينة (خرفكان) في اليوم الأربعين، وكان العاشر من رمضان (الموافق 18 يوليو 1556) بعدما مروا من سواحل (ظفار) وقت الضحى، فإذا الكفار يواجهونهم بخمس وعشرين سفينة حربية مختلفة، وهجموا عليهم.

قتال الربان سيدي علي ضد كفار البرتغال

ففتح المسلمون أشرعة سفنهم وبسطوها، ورفعوا مراسيها وأعدوا أدوات قتالهم. وعلقوا على أعمدة سفنهم الرايات، واعتمدوا على عون الله – سبحانه وتعالى – وشرعوا في القتال بالتكبير والتهليل، ونشبت معركة عظيمة بالمدافع والبنادق، معركة لا توصف. فثقبت إحدى سفن العدو العظيمة بضربة قنبلة بعون الله تعالى، وجنحت إلى جزيرة (فك الأسد)، وغرقت. وخلاصة القول إنهم تقاتلوا قتالًا عنيفًا إلى وقت العشاء.

وفي النهاية، أوقد الربان الفوانيس على السفن، كما أطلق الكفار على سفنهم مدافع التنبيه، ودعوها للرجوع فأخذت سفن الأعداء تتراجع، واتجهوا نحو (هرمز) راجعين، وهزم العدو بعون الله تعالى، ثم هبت رياح شديدة، ووصلت السفن في اليوم الثاني إلى مدينة (خرفكان)، وارتوى الجنود ووصلوا بعد سبعة عشر يومًا بالقرب من قلعة مسقط.

المعركة الثانية للربان الذي سبق ذكر اسمه مع ربان كوه

خرج ربان كوه ابن (جورندور) في السادس والعشرين من رمضان (الموافق 3 أغسطس 1556) باثنتي عشر قطعة بحرية ثقيلة واثنتين وعشرين سفينة حربية خفيفة، وكلها أربع وثلاثون سفينة وقت بزوغ الفجر من ميناء (مسقط)، وقد أعد رجاله السفن للقتال، وساروا قاصدين السفن الإسلامية. ووقف هؤلاء في الساحل جاهزين للقتال مستعينين بالله كما فعلوا في المعركة الأولى، وجاءت سفن العدو الثقيلة، ونادت سفن المسلمين فقامت عندئذ معركة عظيمة تجلُّ عن الوصف، وأطلقت المدافع والبنادق. وكانت القنابل تنطلق من السفن الحربية، وتفتح نوافذ في الزوارق، وانسحب الكفار بسفنهم من المواجهة. ورموا عبوة إلى سفينة حربية وأحرقوها فاحترقت معها سفينة حربية ثقيلة. وجنحت خمس من السفن الثقيلة وخمس أخرى من السفن الخفيفة بالقرب من الشاطئ، فغرقت جميعًا. كما أن إحدى سفن العدو الثقيلة جنحت من قوة الشراع، وضاعت.

وخلاصة القول إن جنود الطرفين قد وهنوا وهنًا شديدًا، ولم تستطع طائفة الجدافين القيام بمهمتهم، كما أن رجال المدفعية عجزوا عن العناية بالمدافع وإطلاقها؛ فاضطروا لرمي المراسي. واستمر القتال حتى بعد ذلك. وأنزلت الزوارق من السفن الحربية الغارقة، واستغلها ربابنة السفن الغارقة مثل رئيس عالم شاه رئيس وقارا مصطفى، والقلفات ممي وربان المتطوعين مصطفى بك والآخرون من جنود مصر وعمال السفينة وما يقرب من مائتي شخص، وأخرجوهم إلى الشاطئ، وكان جدافو الزوارق من العرب. وجاء كثيرون من عرب (نجد) وساعدوا المسلمين. كما أن الكفار أخذوا مَن في السفن الثقيلة من أتباع دينهم. وكانت هذه المعركة تفوق معركة (خير الدين باشا) ضد (أندريا دوريا). وإننا لا نعرف جنودًا قلائل حاربوا بمثل هذه الشجاعة.

وفي النهاية، أدركهم الليل، وهبت رياح شديدة، فألقت السفن الثقيلة مراسيها اثنتين اثنتين، ورفعت السفن الحربية السريعة مراسيها، فوهن الناس وابتعدوا عن الشاطئ مضطرين، وساروا في اتجاه الرياح في بحر (عمان).

ووصلوا إلى سواحل برجاش من (كرمان). ولما كانت هناك أماكن مفتوحة خرجوا من (مكران) إلى (بندر شاهبور). وهناك ارتوى الرجال وساروا مسترشدين بأحد الربابنة إلى ميناء (جوفادار). عندئذ جاء إلى السفينة حاكمها وصل (جلال الدين) ابن ملك دينار، وأعلن خضوعه للسلطان. وعندما وصل الأسطول السلطاني إلى ميناء (هرمز)، أرسل الغلال في أربعين أو خمسين سفينة.

الأحداث التي ابتلي بها سيدي علي رئيس في بحر الهند

وقام الربان الذي سبق ذكره من ميناء (كوه دار) بتسع قطع بحرية إلى بحر الهند، واتجه نحو اليمين وهبت الرياح فترة. وبعد سير عدة أيام والوصول أمام (ظفار) و(شحر)، واجههم الغرب.

وقام الطوفان الذي يقال له طوفان الفيل، فوقفوا أمامه وعجزوا عن السير، وعواصف البحر الأبيض المتوسط بجانب ذلك الطوفان لا شيء. حتى أصبح النهار لا يفترق عن الليل، وأضعفت الأمواج التي مثل قمم الجبال السفن، فرمى كل ما في السفينة من المؤن وخففت السفن وسُيرت وفق الرياح. وساروا على هذا المنوال عشرة أيام، وأمطرت السماء مطرًا مستمرًّا، ولم تترك فرصة للقيام بشيء، وظهرت في البحر حيوانات عجيبة وأسماك وحيتان بطول سفينتين، وأخذ المعلمون يطمئنون الناس قائلين لا تخافوا إنها حيوانات مباركة. وظهرت الحيات التي يطلق عليها فرس البحر، وسلاحف مثل البيادر، ورُئِيَ خيط البحر، ولما كان البحر هناك هائجًا؛ فقد سير نحو خليج (كجد).

الدوامة

فجأة، مال لون البحر الأبيض؛ فأخذ المعلمون يولولون. وتحدث هذه الدوامة في بحر الهند وفي سواحل الحبشة في مكان يسمى (كردفون) وفي خليج (جكد) بالقرب من (السند)، فالسفن التي تقع فيها لا خلاص لها. وهذا ما تذكره كتب البحار. وقد وجد مكان بعرض خمسة أذرع، وجمعت الأشرعة التي في وسط المدينة، وربطوا وأعدوا الأشرعة،

وجذبوها إلى أعلى مكان في ساري السفينة، ووجهوا السفن إلى الجهة التي تهب منها الريح. واستخدموا في تلك الليلة والنهار المجاديف، وحان وقت الجذر، فخفت الريح.

وبعد أن جمعوا الأشرعة ربطوا أحد البحارة في الصاري، ورأى نهاية حدود ولاية (جمهرة) معبد الأوثان. فجمعوا الأشرعة مرة أخرى، ومرُّوا من أمام (فرميان) و(مانجلور) و(سومنات). واقتربوا من (ديو) وكانت في يد الكفار؛ لأجل ذلك ساروا بدون أن يظهروا أشرعتهم مستخدمين الدفة فقط، واشتدت الرياح وأصبحت السيطرة على الدفات صعبة، فربطوا بها قطع أخشاب متينة للسيطرة عليها. واختلطت الأصوات، ولما كان الناس لا يستطيعون أن يتحركوا من جهة إلى أخرى في السفينة حبسوا المتعطلين في العنبر.

وخلاصة القول، إن ذلك اليوم كان يذكّر بيوم القيامة، ولما أدركت سواحل (كوجرات) بعد الخروج من بحر الهند، قال المعلمون أمامنا مصب، فلا تغفلوا. فألقوا المرساة ولكن السفن اهتزت وغطتها الأمواج، وأوشكت على الغرق، وتخلص الجدافون من مجاديفهم، وخلع الناس ملابسهم وأعد كل واحد لنفسه برميلًا وقربة، وتحطمت بعض الحدائد فنجوا قليلًا من أصوات الارتطامات، وكان هذا المكان بين (ديو) و(دامان).

وامتلأت السفن بالمياه، وتحسن الجو قليلًا في العصر حتى أدرك الجذر من ميناء (دامان)، فجنحت ثلاث من السفن من شدة اهتزازها وترنحها وعليها مراسيها الحديدية، فخرج من عليها إلى الساحل في أمان.

ولما سكنت الرياح بعد ذلك قليلًا، وهدأت مياه الميناء أخرجوا المدافع التي على السفن والجبال، وتركوها أمانة في قلعة (دامان) بواسطة أمير وحاكم (دامان) التابع لملك (كجورات) (السلطان أحمد)، واسمه الملك أسد. وقال لهم الملك أسد إن أسطول الكفار على وشك الوصول، فأسرِعوا حتى تلحقوا بقلعة (صورت).

لما سمع رجال السفينة الذين عانوا من هذه الشدائد، التجأوا إلى الملك أسد ليكونوا من أتباعه. كما أن بعضهم ركبوا الزوارق وتركوا سفنهم قائلين: إن المجربين الذين جالوا الدنيا قالوا إن الماء في الأكواب والسفينة على الورق. هؤلاء الذين يتركون البر عاشقين هواء البحر. وانتشروا على الساحل، وذهبوا من البر إلى (صورات). واتجه الربان سيدي علي بالسفن الباقية من السفن الست إلى ميناء صورات سائرًا بالأشرعة أحيانًا، وبالمجاديف

أحيانًا أخرى. وكان يسير عندما ترتفع المياه، ويتوقف في أوقات الجزر، وبعد محن جمة ومشقات عظيمة، استطاع أن يصل إلى ميناء قلعة (صورات)، وكان قد مضت ثلاثة أشهر منذ أن خرج من (البصرة)، فسُرّ المسلمون الذين هناك برؤيتهم؛ لأن ولاية (كوجرات) كانت مضطربة في ذلك الوقت، كما أن السفن خلت من الحبال ووسائل المعيشة، وقال بعضهم يائسين إنه لا احتمال بعد كل ما عانوه هذا على الذهاب إلى (مصر)، فلجأ كثيرون منهم إلى ملك (كوجرات) ليكونوا من أتباعه، فأصبحت السفن خاوية.

وسلمت أمتعة السفن بكل ما فيها إلى (خداوندخان) في قلعة (صورات)، كما أن الربان أخذ سندات الكفالة من المذكور على أن يرسل إلى الباب العالي بعض الأمتعة. وبعد ذلك أخذ الربان معه خمسين ممن رغبوا أن يصاحبوه، وجال بلاد (الهند) وخراسان وسار من وسط (إيران). إلى أن وصل إلى (استانبول) في أوائل المحرم سنة 960هـ (الموافق ديسمبر 1552)، وقد انقضت أربع سنوات على خروجه منها. وعندما قابل السلطان في (أدرنة) كافأه بثمانين قطعة فضية، وعيَّنه في وظيفة مرموقة كما أن رفقاء طريقه كوفئوا في (مصر) بأن رقيت درجاتهم. وصدر الأمر السلطاني بأن يُعطى له أجر العمل في خلال أربع سنوات ماضية كما أنه قد جمع الأحداث التي مرَّ بها في خلال حملته في كتاب. ومن هنا، منشأ المثل الذي يقول (قد مرت بك أحداث سيدي علي).

حملة سنان باشا ووفاته

خرج (سنان باشا) بمائة وخمس وعشرين سفينة إلى البحر في سنة 959 الهجرية. وظل على الماء حتى عام 960 (الموافق 1552 / 1553) ومات سنة 961 (الموافق 1553 / 1554م) ودفن في (اسكدار)، وهكذا قيد الشاعر سحري تاريخ وفاته قائلًا:

يسلم الفلك البدن للفناء حتى وإن كان نوح الربان

ويجذب تمساح الأجل كل من يهرب ويعد المحيط له كقطرة

كان يوسف الثاني للأحبة وكان يبدو للأعداء مثل سنان

تعالي يا (سحري) ندعوا له بخير ليسعد روحه الطاهرة

قال الهاتف الغائب تاريخه غاص في بحر الرحمة الربان (961هـ)

خروج طورغودجه

كان طورغودجه بك هذا ابن من يسمى (ولي) من الرعية. وكان من محافظة منتشة ومن ناحية (سارفولوز). وكان منذ ولادته شجاعًا جريئًا شهمًا، فتعلم إطلاق النبال والمصارعة. ثم التحق بالبحرية وذهب له ذائع الصيت بشجاعته، فأسندت إليه قيادة الجنود البحرية.

وبينما كان يزيت السفن هجم عليه مجموعة من ربابنة الكفار، وأخذوه أسيرًا. وسجن في (جنوه) وذهب (خير الدين باشا) بسفنه إلى سواحل (جنوه)، وهددهم قائلًا: إذا لم تسلموني طورغودجه سأحرق جميع قراكم، وأنقذه من الأسر. واحتفظ به في ديوانه قائلًا: إنه بطل شجاع في أصله حتى أهدى له سفينته الاحتياطية. ثم قام بغزوات عظيمة في الجهة الغربية مثل (خير الدين باشا)، واهتم بالإكثار من سفنه. ومع مرور الأيام، أخذ يتجول بخمس وعشرين قطعة بحرية، وتخابر مع الربان (سنان باشا). وكان كلما خرج ذلك الربان إلى البحر كان (طورغودجه) من سفنه المدافع والبنادق، فتوهم من ذلك (سنان باشا)، وقال في نفسه إن لم يتبعه (طورغودجه) الآن من الصعب إخضاعه فيما بعد أخذ يرضيه حتى أقنعه بالخضوع للدولة العثمانية فجاء برفقائه المشهورين، أمثال: غازي مصطفى، وأولوج علي، وحسن كوله، ومحمد رئيس، وسنجاقدار رئيس، ودلي جعفر، وقارا قاضي؛ فأسندت إليه محافظة (قارلي ايلي) ولمن سبق ذكر أسمائهم أعطى لكل واحد منهم راتبًا قدره سبعين قطعة فضية، وعيّن كل واحد منهم رئيس ميناء. وللرئيس (طورغودجه) غزوات قبل الخضوع للدولة ولنقص أحداث بعض هذه الغزوات.

حادثة جربة

عندما كان طورغود بك ربان الإنكشارية البحرية يزيت سفنه في جزيرة جربة وميناء قطنرة، جاء من ربابنة الكفار (جاغالا) وربان البندقية بمائة وخمسين سفينة، واستولوا على مضيق الميناء وأحاطوا به. وظلوا ينتظرون قائلين: عندما ينتهي مأكله ومشربه ويضعف، نستولي عليه بسهولة. حتى إنهم كتبوا رسالة إلى (جنوه) يخبرونها، ويقولون فيها قد قبضنا على ربان الإنكشارية الذي أحرق منازلنا ونهب أموالنا وأحرق ديارنا، مع سفنه. وكم من أبناء الحكام والأمراء جهزوا سفنًا، واتجهوا إلى جربة قائلين لنذهب حتى

نرى ونشاهد. وتوكل طورغود رئيس على الله. ولحكمة الله، كان في تلك النواحي نهر يصب في البحر. وكان صالحًا لسير زورق فيه، ولما رأى ذلك بذل كل جهده ليصل إلى ذلك النهر بالجدافين، وسار ما يقرب من ميلين، وأخرج سفنه عالي البحر، وترك في الساحل خيمه منصوبة، كلما رآها الكفار كانوا يقولون إن (طورغود) في داخلها. ودخل (طورغود) بسفنه في مرفأ بعيد عن ذلك النهر بستين ميلًا، وزيَّت سفنه الباقية.

وخرج إلى البحر، وفي الطريق تقابل مع أبناء الحكام الذين خرجوا ليشاهدوه في(جربة)، وهجم عليهم واستولى على إستعالي ولي سفينتهم.

وكان الكفار بعد الحادث، يقولون: إن (طورغود) يسير السفن في البر. وذهلوا تمامًا.

اقتراب سفن الكفار

كان هذا الربان سيف الإسلام المسلول. وكان من الربابنة المشهورين والمهرة، كثيرًا ما باغت سفن العدو وأسكت مدافعه. وفي إحدى هجماته استولى على ثمانية عشرة قطعة بحرية للكفار، واستولى على قطعتين بحريتين مشحونتين بالقمح، إذ صادفهما في مضيق (سلانيك) وعلى رأس (مانيا)، وكانتا متجهتين إلى (البندقية)، وكم من فتوحات له مثل هذا.

ذهاب طورغود بك إلى المغرب، واستدعاء السلطان له

لما كان (طورغود بك) حاكم (قارلي إيلي) قد صادف يومًا في البحر سفينة من سفن البندقية ثقيلة. وكان من العادة إنزال الأشرعة قليلًا وتقديم الهدايا للربان، ولكن هؤلاء لم يهتموا بـ (طورغود بك) قائلين إنه ليس من الربابنة الكبار معتمدين على سفينتهم والرياح المناسبة. فتضايق (طورغود بك) من هذا الموقف، وأطلق على تلك السفينة مدافع سفنه الثلاث، وخفت الريح واستمر (طورغود بك) في إلقاء القنابل عليها حتى أوهنها، واستولى عليها.

ولما كان أحد رفقائه قد استشهد؛ فقد قتل جميع رجال تلك السفينة ثم أحرقها. ثم ذهب إلى (باليوز رستم باشا) لاجئًا إليه، وكان (رستم باشا) لا يحب (طورغود بك) لأنه يراه ضد أخيه. فبعث إليه رقيبًا يستدعيه إلى الباب العالي. وعرف هذا سوء نية الباشا وهو ذاهب إلى المغرب بسفينه، فتمرد ضد الدولة فترة سنتين، وأخذ لا يهتم بأوامر السلطان. ولما اقتضى الأمر فتح طرابلس الغرب أعطى له السلطان سليمان الأمان بعدما كان ناقمًا عليه. وأرسل له مع أمر الاستدعاء مصحفًا شريفًا وسيفًا ذهبيًّا، وقيل في أمر الاستدعاء (إذا ما فتح

"طورغود بك" طرابلس ليكن حاكمه طول حياته)، فذهب قائد البحر سنان باشا بأسطوله، وفتح طرابلس تحت إرشاد (طورغود بك). ولما أسند حكم طرابلس لغيره، تضايق ورفع مراسي سفنه، واتجه نحو المغرب. ولما رأى الربابنة الآخرون ذلك تتبعوه لأنهم أُمِروا بأن ينقادوا له. وظل (سنان باشا) بمفرده إلا أن الربابنة الآخرون عادوا بإذن (طورغود بك). وبعدما بذل الربابنة الآخرون الجهود الصادقة لإعادته إلى خدمة الدولة.

حملة طورغود بك إلى جهة بشتيه

قد كتب في بعض الكتب أن (طورغود بك) ذهب ما يقرب من مائة وعشرين قطعة بحرية في 960 هـ (الموافق 1552 / 1553م) كقائد إلى (نوبوفاجا). وذهب بعد ذلك في رجب سنة 961 هـ (الموافق يونيو 1554م) بخمس وأربعين قطعة بحرية إلى بحر الخليج، وحاصر حصن (بشتيه) من الحصون الأسبانية. وبينما كان ذلك الحصن على وشك السقوط بعد جهود عظيمة؛ جاءت نجدة أربعة آلاف من الفرسان وثلاثة آلاف من المشاة، فهجموا على المسلمين وتقاتلوا. وفي السابع من رمضان (الموافق 6 أغسطس 1554) هرب الكفار الذين خارج الحصن بعون الله تعالى منهزمين فخرج الكفار الذين في الحصن طالبين الأمان. وقد أعطى الأمان لرؤسائهم الذين يبلغون خمسين شخصًا، أما الباقون فأسروا وقيدوا بالسلاسل، وأخذت الغنائم التي في الحصن والأسرى المسلمون الذين يبلغ عددهم سبعة آلاف، وجيء بهم إلى (أولونيه). وأخمدت ثورة الألبانيين – الذين كانوا قد تمردوا – وذلك بمعرفة أمير اللواء (أحمد بك) بالزحف عليهم من البر والبحر. ولما وصل (طورغود بك) إلى الباب العالي بأموال وغنائم لا تعد ولا تحصى، أعطى له السلطان الذي يعرف قدر الرجال حكم الجزائر بعد أن منحه رتبة أمير الأمراء، وقلده رياسة البحرية.

ولكن (رستم باشا) وقف حائلًا دون تحقق هذا الأمر السلطاني، إذ قال إنه لن يحاول أن يخدم الدولة قائلًا: إنني في الخارج بعيدًا عن الدولة وسلطتها، وأقنع السلطان بذلك. فترك في (محافظة قارلي إيلي)، ولكنه لم يرض بذلك. وبينما كان السلطان ذاهبًا إلى أدرنة ركب فرسه ولحق بالسلطان وترجل، وقابل الركاب السلطاني فطلب بنفسه الولاية فأعطيت له. وذهب بعد ذلك إلى (طرابلس الغرب) حيث ظل إلى أن استشهد في مالطة.

القسم الخامس

غزوات بياله باشا

أسندت القيادة البحرية بعد موت (سنان باشا) إلى (بياله باشا)، فشمَّر عن ساعديه، وقام بخدمات عظيمة للدولة.

حملة قابلية لنجدة فرنسا

بعث ملك فرنسا في سنة 961 هـ (الموافق 1553 / 1554م) رسولًا إلى الباب العالي، واشتكى مرَّ الشكوى من ملك أسبانيا، وطلب نجدة بإرسال الأسطول، وبناء على ذلك صدر الأمر السلطاني بأن يذهب حاكم محافظة (غاليبولي) الربان بياله بك بالأسطول الهمايوني، وهنا نورد الأمر السلطاني الصادر إلى الربان المذكور.

صورة الأمر الشريف

إلى حاكم محافظة (غليبولي) والربان بيالة الذي أثنى عليه حكام عظام واختاره العظماء، والذي هو محل التقدير والتعظيم، حتى أدرك عون الله - سبحانه وتعالى - المطلع على كل شيء. أدام الله عزه، وبعد:

عندما يأتي أمرنا إليه ليعلم أننا قد أصدرنا أمرنا بتعيينه قائدًا للسفن التي ستخرج إلى البحر بعون الله، فأعدوا جميع ما يلزم من السفن أن يكون طورغود بك معك. فتفاهم معه جيدًا، وابذلوا أقصى جهدكم في إتمام أمور الدولة. هذا هو أمرنا وما زال نافذًا. وبما أنك عينت ربانًا على ستين قطعة سفينة؛ فعليك أن تجهز هذه السفن سريعًا وأن تبحث عن الجدافين، وقد أصدرنا أمرنا إلى وزيري (إبراهيم باشا) مشيري الكبير ودستور دولتي إلى وزير المالية بأن يجهز كل ما يلزم لك ولسفنك، وأمرنا قائد الإنكشارية بأن يمدك بالإنكشارية اللازمين لك. وقد أرسلت أحكامًا إلى حكام (قوجا إيلي) و(ميدللي) اللذين سيخرجان معك في البحر. وعندما يصل إليك رقيب بابي العالي (محمود) عليك أن تسعى ليلًا ونهارًا؛ لاستكمال جدافيها، وأن تستدعي الإنكشارية الذين ابتعدوا عنك، كما تأخذ معك حكام الأقاليم والجنود حتى تخرج إلى البحر في الزمن المعين والموسم المقرر. واجتمع مع

أسطول ملك فرنسا في المكان المعين. وأشرعوا في العمل بما لا يضر بمصالح للدولة. وهذا العمل يحتاج إلى الحرص والهمة. وعليك أن تُتِم تجهيز السفن دون تأخير حتى يتم كل شيء في وقته ولا تضيع في كل هذا دقيقة واحدة. إن عبدري الشهير (طورغود) يعلم جميع أعمال وأحوال البحر فلا تتأخر في التشاور معه. وكونا معًا متفقين في الآمال والقلب، وعليك ألا تتأخر في عمل شيء تقتضيه المهمة، ويجب عليك أن تبذل كل جهدك حتى لا يحدث أمر يشين الدولة ويسقط من عظمتها. وهذا في حاجة إلى أعمال مخلصة.

وآمر كذلك أن تذهب معك سفن المتطوعين من الإنكشارية وعبدي الذي سبق ذكره يعرف أوضاع هؤلاء وأحوالهم. وحاول بمعرفته أن تتحد مع رؤساء سفن المتطوعين وحاول أن ترضي كل واحد منهم حسب ما يرى، وأعط المؤن لكل من يحتاج إليها. وحاول أن تحرص على الشرف والأمانة في جميع الأمور الخاصة بالدولة، وأن تعالج الأمور وفق التعاليم الدينية حتى تنال عون الله، وأن تستشير في كل هذا طورغود. وليصعد على كل سفينة حسب العادة عشرين من عمال الحبال، وليوضع على كل سفينة من عزاب البحرية ثلاثين شخصًا بكل ما يلزمهم، واحملهم معك واستخدمهم. واتركوا في الترسانة البحرية رجالًا يقومون بأعمال السفن العشر الباقي وكل ما يلزمها. وثقوا في ختم السلطان.

قد كتب في بلاد صحراء ترجان في 962 آخر ربيع الآخر (الموافق 24 مارس 1555م).

توجه الأسطول السلطاني إلى فرنسا

خرج الربان الذي سبق ذكر اسمه وفقًا للأمر السلطاني العالي بأسطوله إلى البحر، فضرب سواحل (بوليا) بناء على استصواب بعض العقلاء، ثم حاصر (ريجة) واستولى عليها. كما خرجوا على بعض السواحل في تلك الجهة.

ولكن الذين يعيشون في هذه السواحل أخلوا بلادهم أثناء محاصرة (ريجة) بمجرد وصول الخبر إليهم. وخرج إلى البر عدة آلاف من الإنكشارية النشطين، ونهبوا الولاية، إذ دلهم المرشدون فاغتنموا غنائم كثيرة. وفي هذه الفترة، عرف أن ربان أسبانيا الشهير (أندريا دوريا) رسا أمام (آنابولي) بستين سفينة فرفعوا مراسيهم، وذهبوا نحوه. إلا أن (أندريا دوريا) عرف ذلك من قبل وانسحب إلى جهة ما. فذهب الربان الباشا إلى بعض حصون أسبانيا، وهجم عليها، واستولى على بعضها بقوة السلاح، والأخرى سلمًا.

وبعدما أخذ غنائم لا تعد ولا تحصى، ألقى مراسي سفنه بالقرب من قلعة (ألبيه)، وتلاقى هناك مع ربان فرنسا الذي جاء بسفينة حربية، ولما قال إن غاية ملكنا هي حصن (ألبيه) لتذهب وتحاصره. وفعلًا، حاصروا الحصن فترة وهجموا عليه، وأخذوا الضواحي الخارجية من الحصن. ولكن متانة الحصن من الداخل وكثرة رجاله – ولم يكن الاتفاق معهم سهلًا – ؛ لذا رجعوا إلى (استانبول)، ووصلوا إليها في الثامن من شهر نوفمبر.

ولم تستطع فرنسا أن تأخذ ثأرها من أسبانيا وتحقق رغبتها، ولم تستطع القيام بأعمال مهمة. ولكن فيما بعد، حدثت بينهما حروب كثيرة وتبادلتا النصر والهزيمة. وحتى يومنا هذا ما زالتا عدوتين، ولا تكفان عن الحرب والتطاحن فيما بينهما. ومن الصعب أن تتحسن العلاقات بين هاتين الدولتين؛ لأجل ذلك أصبح الأسطول الأسباني محرومًا من زيارة البندقية.

حملة الجزائر ووهران

إن (وهران) ميناء (تلمسان) في سواحل المغرب الأقصى في أسفل (الجزائر). وكان (خير الدين باشا) قد استولى عليها، لكن أسبانيا استطاعت أن تحتل حصنها بطريقة ما، وتوغلت في تلك الجهات. ووصل الربان (بيالة) في سنة 963 الهجرية (1555 / 1556م) إلى الجزائر بخمس وأربعين سفينة أولًا، وأنزل جنوده ثم هجم على الحصن، وفتحه بقوة السيف، ثم رجع في وقته إلى الترسانة العامرة.

حملة بنزرت

استولى (بياله باشا) في سنة 964هـ (1556 / 1557م) على ميناء بنزرت بالقرب من (تونس) وقلعتها. وسار من سواحل المغرب، ودخل الترسانة في الثامن من أكتوبر.

حملة مايوركا

خرج الربان بيالة في سنة 965هـ (1557 / 1558م) بمائة وخمسين سفينة حربية إلى البحر الأبيض، وذهب إلى جزيرة مايوركا القريبة من سواحل (كاتالونيا)، والتي تحتلها أسبانيا من الجزائر، وأنزل فيها الجنود. ونهب قراها ثم خربها وبعدما أخذ كثيرًا من الغنائم عاد سالمًا إلى الترسانة العامرة. وأضيفت في هذا العام إلى قيادته البحرية إمارة الجزائر وولايتها.

حملة أولونية

أبحر بياله باشا بثمان وثمانين سفينة حربية عام 966هـ (الموافق 1558 / 1559م) وقابل أمام موتون سفينة حربية ثقيلة للعدو، واستولى عليها. وغرقت برجالها في ذلك الموضع في بلاد الفرنجة. وأخبروا أيضًا أن كفار (مالطة) استولى عليهم الرعب بعد الاستيلاء على (طرابلس الغرب)، فكتبوا إلى ملوك أوروبا مستغيثين بهم، وأن جميع ربابنة الكفار على وشك تجهيز أسطول عظيم، وأن بين (طورغود باشا) وأمراء العرب حرب وصراع. وأن أمراء العرب ومشايخهم يميلون إلى الفرنجة، وأنهم يريدون أن يضربوا الدولة العثمانية وأن يسيئوا إليها. وأعلم (بياله باشا) الدوائر الحكومية بالأمر برسالة بعثها؛ فأرسلت إليه معونة عشر قطع بحرية، ولما سمع الكفار أن الأسطول العثماني جاهز ومستعد، لم يرفعوا رؤوسهم. ولما كان الشتاء على الأبواب فقد رجع بياله باشا من آولونيا إلى الترسانة العامرة، عندئذ عبر الأسطول الإفرنجي البحر إلى جهات (طرابلس)، وأمضى الشتاء في تلك الجهات. وكان قصده من ذلك أن يهاجم تلك السواحل، وخاصة سواحل (طرابلس).

وعندما حل الصيف، وأبلغ (طورغود باشا) ذلك الأمر إلى الجهات الحكومية؛ صدر الفرمان السلطاني بتجهيز مائة وخمسين قطعة بحرية استعدادًا للصيف. فشمر بياله باشا عن ساعديه، وعمل على إعداد تلك السفن.

حملة جربة

ومضى الشتاء وحل الصيف، فخرج الربان (بياله باشا) بمائة وعشرين قطعة بحرية إلى البحر، وذلك في شهر رجب سنة 967هـ (الموافق أبريل 1560م). ولما وصل إلى جزيرة قويون جاءت سفينة من (طورغود باشا) والي (طرابلس الغرب)، وفيها من يحمل خبرًا فحواه أن أسطول الكفار بالقرب من جزيرة جربة، وينتهز الفرصة للهجوم على (طرابلس الغرب). وكان (بياله باشا) من قبل ذلك قد بعث بـ (أولوج علي رئيس) – وكان في ذلك الوقت من البحارة المشهورين – بعدة سفن حربية إلى ديار الكفار ليستقي الأخبار. وصادف هذا في طريقه سفينة ثقيلة حربية للكفار، وتبادل الطرفان إطلاق المدافع. وعندئذ، جاءت عدة سفن من الخلف فاستولى عليها بعدما أطلق عليها قنابل كثيرة، وقبض على ربان السفينة حيًّا، وأرسله إلى استانبول بمدافع سفينته، وبكل ما فيها

من متاع. ولما وصلوا أمام موتون جاء حاكم (رودس) (قدرت أوغلو أحمد بك) بعدة سفن. وأقيمت حفلات كبيرة، وانضموا إلى الأسطول. واستراحوا هناك وزيَّتوا السفن، وأتموا تجهيز ما يلزمها، ثم توكلوا على الله، وتوجهوا إلى السواحل الغربية من بلاد المغرب، وذلك في الخامس من شعبان (الموافق أول مايو 1560م).

غزو جزيرة مالطة

وهبت الرياح معتدلة، وسار الأسطول أربعة أيام نهارًا وليلًا. وفي اليوم الخامس، وصل إلى جهة ما من جزيرة (مالطة) الصغيرة، وخرج بعض الفتيان من السفن، وقفزوا على منازل الكفار. وبعدما اغتنموا غنائم عظيمة، حرقوا ديارهم وحدائقهم. واستقر بعض الناس هناك، وعرفوا أن 49 سفينة حربية خفيفة و36 سفينة حربية ثقيلة خاصة بالكفار - واقفة في بعض نواحي جزيرة (مالطة)، وغافلة عن وصول السفن الإسلامية.

وفي هذه المرة، أرسلت السفينة التي أتت بأخبار (طورغود باشا) إليه تحمل هذا الخبر إلى (طرابلس الغرب)، وعقب ذلك اتجهوا بالأسطول السلطاني متوكلين على الله؛ حيث أسطول الكفار. وبعد إبحار يومين ليلًا ونهارًا، ألقوا مراسي السفن في مياه (كارناكا) الضحلة القريبة من (جربة). وفي اليوم الثاني، أعدت لوازم القتال ونظمت، ثم ساروا حتى وصلوا إلى مكان يبعد عن (جربة) بمائتي ميل من طرابلس في الجهة الشرقية بالقرب من الساحل. وكان طريق يصلها بالبر قديمًا، ثم قطعوه.

قتال بياله باشا مع أسطول الكفار

ولما وصل الأسطول الهمايوني إلى مالطة قبل ذلك، أرسل كفارها قاربًا وأنبأوا أسطول الكفار بوصول الأسطول الإسلامي؛ فقامت تلك السفن وخرجت إلى وسط البحر على بعد سبعة أو ثمانية أميال، واستعدت للقتال.

وفي الصباح، عندما جاء جنود المسلمين، ورأوا السفن الخاصة بالكفار، وجهوا سفنهم عليها بكل همة وشجاعة. وكانت السفن المعادية قد اجتمعت هناك لتهرب. ولما رأت السفن الإسلامية، رجع بعضها نحو (جربة) لتدخل في الحصن، وتتوغل في جزر أخرى في البحر؛ فبعث (بياله باشا) بعض السفن؛ لتتبع السفن الهاربة نحو الحصن. أما هو، فاتجه نحو السفن التي تتوغل في البحر، وقامت معركة شديدة بينه وبين سفن

الأعداء، وقد هاجمت السفن الإسلامية جميع سفن الكفار على حدة، ونشبت معارك شديدة عند كل واحدة منها.

وفي النهاية، كان النصر للمسلمين، وتشتت شمل الأعداء، وظلت عشرون قطعة من سفنهم الحربية الخفيفة وستة وعشرون سفينة حربية ثقيلة في المياه الضحلة، وغرق بعضها أو أسرت، وأحرق بعضها.

أما ربابنة سفن العدو، وهم: ربان (آنابولي) وأبناؤه، وابن (أندريا دوريا)، وربان جزيرة سيسيلية، فركبوا سفينة حربية، وهربوا حتى دخلوا حصن (جربة). وفي النهاية، استولى على جميع سفن أسطول العدو الذي لم يتعرض لمثل هذه الهزيمة في تاريخه.

والقلعة التي سبق ذكرها كانت ملك المسلمين، وبطريقة ما وقعت في يد الكفار. ولما كان استردادها وفتحها لما حوصرت من البحر بالأسطول السلطاني، ومن البر بجنود المشاة والفرسان من قلاع (طرابلس) و(القيروان) و(صفاقس) محاصرة شديدة من جهاتها الأربع. وفي اليوم الثالث من رمضان (الموافق 28 مايو 1560)، وبينما كان المسلمون يريدون أن يدخلوا المتاريس ليلًا، خرج الكفار من الحصن، وأطلقوا على المسلمين الرصاصات والنبال إلا أن أبطال المسلمين جرَّدوا سيوفهم من جرابها، وحملوا على الكفار حملة شعواء، فلم يستطيعوا مقاومتهم فهربوا. ووقع كثير من الكفار صرعى على الأرض، ودخلوا المتاريس وحفر الكفار خندقًا كبيرًا أمام خندق القلعة، ووضعوا فيه ما يقرب ثلاثمائة من جنودهم، ونصبوا هناك خيامهم ليحرسوا الأطراف. وفي جهة من الخندق، كانت بئرًا يشربون منها؛ لذا كانوا قد صنعوا حولها متاريس متينة، وكان يحرسها ما يقرب من سبعمائة جنديًّا، أو ثمانمائة ليلًا ونهارًا ويحملون منها الماء إلى داخل القلعة وخارجها. واقترب المسلمون من هذا البئر، وأزعجوا الكفار بالبنادق والسهام، وضيقوا عليهم الخناق.

هجوم الكفار وانهزامهم

جمع الأعداء ألف كافر من الأسبان وغيرهم، فصفوهم بأعلام متنوعة خمسة صفوف وجعلوهم في حالة استعداد للقتال، وذلك في الرابع من شهر رمضان الشريف (الموافق 7 يونيو 1560م)، وساروا ضد جنود المسلمين طالبين التضحية والاستشهاد، فاعتمد المسلمون على عون الله، ورفعوا راياتهم بالتهليل والتكبير.

واشتبك الجيشان ما يقرب من ساعتين في معركة عظيمة، فأعجب الملائكة في الأفلاك بالمجاهدين، وأثنوا عليهم. وفي النهاية، أدرك المؤمنون عون الله فانتصروا وانهزم الكفار، وتشتتوا واضطروا للفرار، إلا أن المسلمين تبعوهم وقتلوا ما لا يحصى ولا يعد من الكفار، كما أنهم أخذوا البعض أسرى. وعندئذ، هجم المجاهدون على متاريس الكفار التي كانت بها خيامهم فرفعت الأعلام، وعم الفرح، واستولى المسلمون في تلك الفترة على البئر، التي سبق ذكرها فوهن العدو.

هجوم الكفار مرة أخرى

بعد هذه المعركة، نصبت خمس عشرة قطعة مدفعية أخذت تضرب مواقع العدو دون انقطاع، حينئذ أراد ما يقرب من ألفين أو ثلاثة آلاف من جنود الألمان والإيطاليين الخروج من الحصن مدَّعين الشجاعة؛ ليهاجموا المتاريس ويبطلوا فعالية المدفعية، وذلك عند الفجر. ولكن المجاهدين المسلمين لم يكونوا غافلين، فتكاتفوا وقاوموهم مقاومة شديدة، وهجم الكفار على المدافع فقامت معركة شديدة لا مثيل لها بين الطرفين زهاء ساعتين. وفي النهاية، اضطر الكفار إلى الهروب مندحرين، فتتبعهم المجاهدون، ووجدوا فرصة ليقتلوا بسيوفهم ما يقرب من ثمانمائة كافرًا أو تسعمائة. وقطعوا رؤوسهم وعلقوها أمام عيونهم، فهرب الكفار ودخلوا القلعة وشرعوا في المعركة.

هجوم المجاهدين على سفن العدو

إن إحدى عشرة قطعة حربية هربت من البحر إلى القلعة، أخذت تطلق مدافعها من فوق المتاريس ومن فوق الخنادق، وألحقوا بعض الأضرار بالمسلمين خلف متاريسهم.

لذا لزم الاستيلاء على السفن الحربية، ولكن المسافة بينها وبين الأسطول السلطاني كانت بعيدة لا تصل إليها قنابل مدافعه من أسفل القلعة من مكان ضيق. ولم تكن مباغتتها، بالذهاب إليها بالسفن الصغيرة. لذا أنزلوا من الأسطول القوارب والزوارق وملأوها بالجنود المختارين المتسحلين بالبنادق والأقواس والحراب كما جهز جنود المسلمين تمام التسليح من البر، وسار الكل من جميع الجهات على السفن. وعندئذ أطلقت من الحصن ومن فوق المتاريس القنابل والرصاصات التي كانت تنزل كقطرات المطر.

وغاب المجاهدون في وسط الأدخنة عن الأنظار، وخلاصة القول استمرت المعركة من بزوغ الفجر إلى وقت الضحى، فسقط من الجانبين كثيرٌ من القتلى. ولكن الكافر المخادع قد نصب أعمدة حول السفن في البحر، وربط الأعمدة وأعواد الشراع بالسلاسل، وجعل الدخول في السفن مستحيلًا. فاضطر المسلمون إلى الانسحاب إلى المتاريس الملاصقة التي نصبت بالقلعة من جانبي البحر، وأطلقت المدافع، فمات كثيرون ممن في داخل القلعة. وهرب الباقي إلى البحر، وخربت مدافعهم وغرقت سفنهم في البحر حتى منتصفها. وهكذا نجا المجاهدون الموحدون من شر المدافع، وشرعوا من جديد في المعركة لفتح القلعة.

معركة الحصن والاستيلاء عليه والقضاء على الكفار

بعد هذه المعركة، قدمت المتاريس إلى الأمام حتى صنعت المتاريس في عشرين موقعًا لصق خنادق الحصن، وذلك في أوائل شوال (الموافق يونيو 1560)، وخرج من كل واحد منها ما يقرب من ألف كافر يحاربون ويقاتلون، يهزمون ويدخلون في داخل القلعة. وفي هذه الفترة، تم العثور على بئر ذات مياه عذبة، وكان الكفار قد حفروا خندقًا من تحت الأرض، ويستقون منها. وكم من معارك وكم من رؤوس قطعت! وكم من كميات عظيمة من دماء أريقت حتى استطاع المجاهدون أن يحرموا الكفار من مياه هذا البئر. ولم تبق للكفار أية علاقة مع الخارج فأخذوا يحاربون من فوق القلعة مطلقين المدافع والبنادق. عندئذ، حمل المسلمون بكل قوتهم، وسدوا الخنادق بالتراب حتى الحصن، وبنوا في عدة أماكن أبراجًا من خشب النخيل أو أخشاب أخرى حتى استطاعوا أن يتحكموا في القلعة من خمسة أماكن، ورفعوا فوق الأبراج المدافع، وأخذوا يمطرون داخل القلعة بالقنابل والرصاصات والحجارة دون انقطاع. حتى انهارت استحكاماتهم وتساوت بالأرض وقتل مئات من الكفار. ولما تعطلت مدافعهم، أخذ عشرات الكفار يفدون كل يوم من الثغرات.

وخلاصة القول، إن المعركة طالت على هذا المنوال ثمانين يومًا، وكان الكفار قد قطعوا آمالهم في النجاة. وجاء ربان أسبانيا الشهير (دونا بور) الذي اعتمدت عليه أسبانيا في فتح الممالك، والذي كان قد خرج ليستولي على الشواطئ الأفريقية من المغرب حتى مصر؛ وصل إلى الحصن ودخل فيه بثمانية آلاف وثمانمائة من جنوده الممتازين الذين يعتمد عليهم، واختار هذا الربان من بين جنوده ألفًا من الشجعان، وخرج وقت بزوغ الفجر من

القلعة، وهجم على متاريس المسلمين، وذلك في السابع من ذي القعدة من ذلك العام ليلًا (الموافق 31 يوليو 1560). وكانت معركة عظيمة ضد الكفار الذين يفوقون المسلمين عددًا، واستمرت ساعتين، وقتل من الطرفين كثيرون. وفي النهاية، لم يستطع الكفار أن يقاوموا هجمات المجاهدين، ودخلوا الحصن إلا أن المسلمين استولوا على باب الحصن، وحالوا دون دخول الكفار في القلعة؛ فأصبحوا طعمًا للسيف. ولما دخل الربان (دونا بور) في سفنه الحربية ناجيًا بروحه؛ هجم عليه جنود المسلمين بالزوارق والقوارب دون هوادة.

وقبض على من بقي في هذه السفن حيًّا - بعون الله تعالى - ونهبت سفنه، وأحرقت السفن التي أصابتها القنابل. ولما رأى هذا الكفارُ الذين في داخل القلعة، ولولوا قائلين: (الأمان، الأمان) حتى وصلت أصواتهم إلى السماء. فلم يهتم المجاهدون بهذه الصيحات، ودخلوا إلى القلعة من مكان ما، وقتلوا الكثيرين منهم، وأسروا بعضهم. وقيدوا الأسرى بالسلاسل وأتموا فتح القلعة. ومكث هناك عدة أيام وقضى بعض أمورها.

وذهب إلى طرابلس الغرب؛ لتأديب بعض القبائل العربية التي اشتهرت بشدة مقاومتها في الخامس عشرة من ذي القعدة (الموافق 7 أغسطس 1560م)، وأنجزت هذه الرغبة أيضًا. وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر (الموافق 12 أغسطس سنة 1560م)، قفل راجعًا إلى ديار الروملي، وأدرك في الثالث من ذي الحجة (الموافق 24 أغسطس 1560م) ميناء قلعة (بروزه). وغادروا ذلك الميناء وهم مستريحون نفسيًّا. وفي السادس من المحرم سنة 968هـ (الموافق 27 سبتمبر 1560م)، دخلوا الترسانة العامرة. وفي الغد سيق إلى الديوان السلطاني ربابنة البحر الذين أسروا من أسطول الكفار، وقلعة (جربة) وما يقرب من أربعة آلاف من جند العدو مع أسلحتهم وراياتهم، وألبس (بياله باشا) والرؤساء الآخرون الخِلع، ونالوا تقدير السلطان وأنعمه.

أعمال بياله باشا، وتعظيمه بإسناد منصب الوزارة إليه

خرج (بياله باشا) هذا في سنة 954هـ (الموافق 1548 / 1547م) من منصبه في القصر ككبير الحجاب، ونال أمير البحر (سنان باشا) رتبة حاكم محافظة، وذلك في 962هـ (الموافق 1554 / 1555م)، وأسند إليه في سنة 965هـ (الموافق 1557 / 1558م) منصب أمير أمراء الولاية.

وقد فتح في هذا العام جربة، وأتى بما يقرب من أربعة آلاف من جنود الكفار أحياء، والربان (آنا بولوا) صاحب سفينة ذات ثلاثة فوانيس، فأعطى له رتبة أمير الأمراء منذ سنتين، ولم يستصوب السلطان سليمان هذا الأمر قائلًا: إن أُعطي له منصب الوزارة هذا؛ المنصب قليل عليه، ولكنه أراد أن يرعاه فأنعم عليه بأشياء كثيرة ومراتب، وزوَّجه بابنة السلطان (سليم) المسماة بجوهر خان. وأعطى له - بعد خمس سنوات - رتبة الوزارة.

وكانت الرتب في هذه الأزمنة كثيرة، لم تبق لها قيمة، حتى أن قيمة الوزير تقل عن قيمة أمير الأمراء. وكأن الكثرة تفقد قيمتها.

حملة مالطة

عندما رجع الباشا المذكور بالأسطول السلطاني من حماية الشواطئ العثمانية في سنة 968 هـ (الموافق 1560م)، صدر له الأمر السلطاني بتجهيز السفن لحملة (مالطة). وأصبح (مصطفى باشا) بن قيزيل أحمد الوزير الرابع قائدًا. واقتحم (بياله باشا) البحر الأبيض المتوسط بجنود من الأناضول والروملي بمائة وخمسين قطعة سفينة مختلفة الأنواع من الأسطول السلطاني، وذلك في 971هـ وفي أواخر شعبان (الموافق مارس 1565)، وقاموا من ميناء آوارين في الرابع عشر من شوال (الموافق 15 مارس 1565)، واتجهوا نحو (مالطة). وساروا في وسط البحر ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، ألقوا مراسيهم في الجهة الغربية من جزيرة (مالطة). وفي اليوم الثاني، دخلوا ميناء (مارسا شولوق) وتفقدوا الأطراف، ثم أقيمت الاستحكامات على جانبي الميناء، ووضعت فيها بعض المدافع وحاملوا البنادق من الجنود، وهكذا تمت وسائل حراستها. وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر (الموافق 22 مايو)، خرج إلى البر جنود بخيامهم، عددهم قدرُ عدد النجوم، ولما وصلوا إلى النهر الذي يجري من حديقة تسمى تك. خرج ما يقرب من سبعمائة أو ثمانمائة من الفرسان ذوي الدروع الزرقاء، وعدد لاحصر له من المشاة، وتحرشوا بجنود المسلمين.

وبعد ساعة أو ساعتين من القتال، انهزم الكفار وقتل كثيرون منهم، والذين نجوا من السيف هربوا إلى الحصن، وظلوا في تلك الليلة بجانب ماء الحديقة التي تفرح القلب.

محاصرة برج سانتارما

وقد رأى قواد الجيش أهمية الاستيلاء على البرج، الذي أقيم لحماية ميناء برج (سانتارما). وفي اليوم الثاني، شرع في ضربه بأربعة وعشرين مدفعًا من أربعة أماكن، وحملوا عليه ثلاثة أيام أو أربعة حملةً شعواء. وفي النهاية، حمل عليه المجاهدون مكبرين مهللين في ذي القعدة من ذلك العام (الموافق 28 يونيو 1565م) ودخلوا بعون الله تعالى، وأصبح الكفار – أسوأ السيئين – طعامًا للسيف.

استشهاد طورغود باشا رحمة الله عليه

وقبل هذا، كان طورغود باشا قد أتى من طرابلس الغرب في اليوم السابع من محاصرة البرج بثلاث عشرة قطعة من أسطوله، وبينما كان يسعى لمحاصرة البرج، ويبذل جهده أصيب رأسه بقذيفة ألقيت من البرج، فنزف من فمه وأنفه وأذنيه. وظل أربعة أيام غائبًا عن وعيه. وفي اليوم الخامس، الذي كان يوم فتح القلعة، ارتحل عن دنيانا في الصباح مبكرًا، فحُملت جثته بخمس سفن من أسطوله إلى طرابلس الغرب؛ حيث دفن.

محاصرة حصن سانتارما

ونصبت المتاريس والاستحكامات في السادس والعشرين من ذلك الشهر (25 يونيو) في الأماكن القريبة من هذا البرج، ووضع في داخلها حاملو البنادق المهرة، وظل خندق الحصن محروسًا جيدًا؛ بفضل هذا البرج.

ولما كان هذا الخندق شديد العمق، لم يكن سدُّه سهلًا. فشق من مكان مناسب ووضع فيه مدفعان. فضربوا جدار الحصن من أساسه، ولما فتح قدر اختفاء رجل، دخل فيه النقابون وانتزعوا الحجارة كيفما يشاءون. وأتوا بعشرة أعواد سفينة، وأقاموا جسرًا. ثم أتوا بمدافع، وأخذوا يضربون الأماكن التي أقيم أمامها الجسر وفتحوا ثغرات. ووضعت السلالم في بعض الأماكن التي يمكن السير فيها، فهاجم جنود المسلمين في السابع عشر من ذي الحجة (الموافق 16 يوليو 1565م) من الجسر، ومن السلالم. وكانت معركة شديدة بدأت من الضحى إلى وقت العصر، فمات كثيرون من الطرفين. وفي النهاية، انسحب الجيش الإسلامي إذ لم يستطيعوا الدخول في الحصن من تلك الجهة.

ثم وضعوا في ثمانية أماكن من جهة البر ما يقرب من ثلاثين مدفعًا، وأقاموا المتاريس. فانشقت الخنادق من عدة أماكن، وفتحت الثغرات واستمروا في المحاولات ليلًا ونهارًا. وفي الثالث والعشرين من ذلك الشهر (الهجري 23 يوليو1565)، هجم المجاهدون مرة أخرى. واستمر القتال في ذلك اليوم إلى المساء أيضًا، ومنع الأسطول بسفنه المائة من وصول الإمدادات إلى الأناضول، فاعترى الكفار الوهن والضعف ففتح حصن سانتارما. ورفعت الأعلام الإسلامية فوق أبراجه ومياهه، وقيد مائة وألف كافرٍ بالسلاسل وقدموا أسرى، غير مقتولين وبمعونة الله وقع أهالي القلعة كلهم في يد المسلمين بكل ما يملكون. وبعد هذا اشتد القتال لمحاصرة (مالطة) الحقيقية.

ولأجل هذا بذل المسلمون جهدهم. ولكن لما ساءت الأحوال الجوية بالنسبة للسفن وقلة الذخائر، استولى القلق على جنود الإسلام، وكانت الذخائر والمؤن ترد إلى الحصن. كما أن الحصن كان متينًا قويًّا، فعرف المسلمون أنه لن يقع في أيديهم في مدة قريبة.

واتفقوا جميعًا على ترك المحاصرة. وبعد أن نهبت قرى الجزيرة، وأحرقت غادروها إلى ناحية بلاد الروم. ودخلوا الترسانة العامرة سالمين غانمين. وقد جاء في بعض التواريخ أن السلطان – ملاذ الناس – قد أوصى قائلًا: إن (طورغود باشا) مطّلع على جميع أحوال جزيرة (مالطة) ويعرفها جيدًا، ويعرف مواضع المستحكمات وسهولة محاصرتها، فلا تخالفوا رأيه ولا تعارضوه.

ولكن الربان القائد – الذي سبق ذكر اسمه – قال بعدما وصل الأسطول السلطاني إلى مالطة لنقم ببعض المصالح قبل أن يأتي طورغود باشا تاركين له فكرة المحاصرة. وبرج سانتارما يحمي حصن مالطة، ويجب الاستيلاء عليه قبل الحصن. فنحاول ذلك، وإلى أن نستولي على البرج يكون (طورغودجه) قد وصل، وبهذا نسهل محاصرة (مالطة).

وكان هذا البرج في قوته ومتانته يشبه متانة وقوة (مالطة). وجاء (طورغودجه) بعد سبعة أيام، ولما رآهم قد حاصروا سانتارما، تألم وقال: (ما قيمة سانتارما؟ وهل يمكن الاحتفاظ بسانتارما قبل فتح حصن مالطة؟ ولكن ما الفائدة؟ فبذلوا جهودهم كلها، واستطاعوا أن يستولوا عليه بعد سبعة عشر يومًا.

ولكنْ كثيرون ماتوا، وسُلّت سيوف المجاهدين هناك. كما أن (طورغودجه) قد استشهد هناك، ونفذ البارود والمستلزمات الأخرى، واضطروا أن يقوموا بمحاصرة مالطة بالباقي من الذخائر. ووزع قائد البحرية على جنود القصر المنح والعطايا، وأنعم عليهم. وبينما كان (بياله باشا) رجلَ حرب مثل (طورغود باشا) أهمله، ولم يلتفت إلى رجاله من الإنكشارية. كما أن الباشا الربان لم يهتم به كثيرًا، ولم يلجأ إليه في الأمور، وقد فترت العلاقات بينهما.

وقد ذهبت – عبثًا – كلُّ هذه الأموال وكل هؤلاء المجاهدين. وأتوا إلى استانبول، وقد علاهم الخجل، وأخذ كل واحد منهم يتهم الآخر.

كلما كانت تطلق المدافع كانوا يقولون: اصبروا قليلًا؛ فقائد البحر نائم. فماذا يعمل المدفعي.. والجندي قد حمل رجال الأسطول كل الذنوب على كاهل قائد البحر. وبهذا الذنب جُرد القائد من الوزارة، ولكن تواريخ الكفار تسجل: (لما جاء ربان (آنابولي) أسبانيا للنجدة، وخرج إلى البر فحارب جنوده، وتفوقوا على المسلمين في القتال فترك المسلمون محاصرة الحصن، وركبوا سفنهم ورجعوا. وظلت المدافع في أماكنها، وما زالت إلى يومنا هذا في مالطة).

العبرة من القصة

يجب أولًا التمسك بمركز الحكومة في ولاية ما أمكن فتحه، فالأماكن الباقية تقع سريعًا. ومن العبث بذل الجهود في محاولة الاستيلاء على الأماكن التابعة لها. فخسروا باشا بنى (شهرزل)، ووضع في حلة الجنود، لذا فقد خسر، ولم يمكن الاحتفاظ بهما قبل الاستيلاء على بغداد. لو كان القائد والجنود حينئذ يعرفون قصة مالطة، لكانوا استعدوا وفقًا لذلك. وكان (يوسف باشا) عندما يذهب إلى (كريت) يستولي أولًا على حصن (حانيا)، ولكنّ كثيرين من سكان الأرض يعدون علم التاريخ خرافة وأسطورة.

وليس بصحيح أن يقال هذا ما قدر وكُتب، ولا يجوز أن نحيل عملًا ما إلى القدر دون أن نأخذ بالأسباب، ونبذل كل جهدنا لتحقيقه، وبعد ذلك نعرف ما هو المقدر لنا. فإحالة العمل الذي لا يتم لعدم اتخاذ التدابير اللازمة إلى القدر ذنب وقصور؛ لأن الناس والجنود ليسوا من أرباب الكرامات مثل المشايخ الذين يتوكلون؛ لأن سيد الناس محمد – ﷺ – قال للأعرابي: اعقلها، وتوكل.

يجب على الإنسان أن يبدأ عملًا ما من طريقه الصحيح، فإذا لم يتحقق عندئذ يقول لم يكن هذا مقدرًا.

حملة فتح جزيرة ساقيز

خرج الربان بياله باشا في 973هـ (الموافق مارس – أبريل 1666م) بسبعين قطعة بحرية إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان السلطان سليمان قد تفضل قائلًا حينما خرج لحملة (سكتوار): إنني أعلم أن الكفار الذين يسكنون في حصن جزيرة (ساقيز) بالقرب من طريق الحجاج الذين يذهبون إلى (مصر)، وإن كانوا في الظاهر يدفعون الخراج إلا أنهم على علاقة طيبة وصداقة مع الكفار المحاربين، ويخبرونهم بكل ما حدث في الإدارة الحكومية، وكلما خرج الأسطول السلطاني إلى الطريق يخبرونهم بعدد السفن ونواحي اتجاهاتها. ولا يتأخرون عن إلحاق الضرر بالسفن الإسلامية الصغيرة. فحاول أن تستولي على هذه الجزيرة بأية طريقة كانت، وتبذل كل جهدك؛ أمر السلطان إلى (بياله باشا).

ولما وصل بياله باشا إلى مكان يسمى (جشمة) أمام تلك الجزيرة تنفيذًا للأمر السلطاني، أخرج حكام الجزيرة بعض وجهائها حاملين كثيرًا من الهدايا، فلم ينظر إليها، ولم يلتفت فردًّ عليهم مؤنبًا ومعاتبًا بخشونة، وقال لهم: (هل من حسن الأدب والترحيب أن يستقبلني بعض الناس من الكفرة لا يعرف أصلهم ولا فصلهم دون حكام الجزيرة!، وقد جئت إلى الجزيرة وأنا أقود الأسطول السلطاني!، وما قيمة هذه الهدايا التافهة!، وقد عُرِف الآن موقفهم، وأدرك أنهم يستعدون للقيام ضد الدولة والعصيان. وعندما أعود من هذه الحملة بإذن الله تعالى إلى بلاد السلطان سيكون أول ما سأعرضه عليه هذا الموضوع. وليتأكدوا أنني سأعود في الصيف بسفن قادرة على هدم قلاعهم وتخريبها) قال هذه الكلمات، وأعاد الهدايا إلى أصحابها.

القبض على حاكم ساقيز

وكان عندئذ يحكم القلعة اثنا عشر شخصًا من (جنوه) كحكام (البندقية)، وعندما وصلتهم هذه الأخبار كادت أرواحهم تخرج من أفواههم، وقالوا إننا – بالفعل – قد قصرنا في استقبال القائد البحري والترحيب به، فإن لم نذهب إليه عارضين قصورنا، وطالبين وراجين أن يعفوا عنا؛ فعودته صيفًا ليأخذ القلاع منا مؤكدة. وجهزوا كثيرًا من

الهدايا والتحف، وزينوا قوارب عظيمة، وجاءوا كلهم إلى سفينة القيادة عند الربان، فقال لهم (بياله باشا): (إن أمر السلطان السعيد أن تذهبوا كلكم إلى استانبول، وأن تلحق جزيرة ساقيز بالجزر الأخرى التابعة لها بالدولة العثمانية. ثم أمر بالقبض على هؤلاء الحكام، وأرسل جنوده مع قواد البحر حاكم (قوجا إيلي)، (علي بورك رئيس) ولما وصلوا إلى هناك استولوا عليها كلها، ووضع هناك حرسًا وجنودًا في الحصن، وعين حاكمًا على الجزيرة. وجهز لهم كل ما يحتاجون إليه، وحول الكنيسة الكبيرة جامعًا، وأرسل حكامها إلى (استانبول)، وتوجه إلى سواحل (بوليا) بأسطوله. وهجم على مدن وقرى الكفار في تلك الشواطئ، وبعد نهبها عاد سالمًا غانمًا، وكان السلطان الجديد السلطان (سليم خان) لم يرجع بعد من بلغراد في 974هـ (الموافق 1566/ 1576م)، ودخل الترسانة العامرة في نوفمبر. ولما كان صهر السلطان على الشأن لذا لما رجع السلطان إلى العاصمة، كان أول عمل له أن استقبل (بياله باشا) في الديوان، وكافأه على ما قام به من أمور عظيمة بإسناد وزارة القبة إليه، كما أسند القيادة البحرية إلى مؤذن زادة علي قائد الإنكشارية الذي قام بخدمات عظيمة في (سكتوار). وكم من تواريخ وضعت لفتح ساقيز، وأشهرها البيت الآتي:

انتزع بيالة ساقيز من أهل الكفر

وآخر:

باتت ساقيز من نصيب أفواه المسلمين

حملة جزر العراق العربي

هذا الكتاب خاص بالحملات الخاصة في البحار بالسفن، ومعاركها. والحديث عن الحملات التي تمت في الأنهار ليس خارج البحر والموضوع. وذلك قد يحتاج إليها في فترة ما. والآن، نقول إن نهر دجلة يتحد بنهر الفرات بعد تجاوزه بغداد، وينتشر في بغداد والبصرة هنا وهناك كالبحر، ثم يصب في بحر الفرس، ويحيط بكثير من الجزر في نواحي الوسط، ويطلق عليه شط العرب، ويسكنها العرب.

وكان ابن عليان رئيس وقائد الطوائف العربية، وكان يخضع حينًا ويتمرد حينًا آخر. وبعد ما تولى السلطان سليم السلطنة أظهر تمرده وعصيانه. وأعطى لإسكندر باشا

الشركسي – الذي كان حاكم ديار بكر منذ خمسة عشر عامًا وكان يدرك مهمته جيدًا – ولاية بغداد ونصب قائدًا بريًّا على تلك الجهات كما أعطى ولاة (شهرزور) لمظهر باشا، وأمر بأن ينضم بجنود الأكراد له.

كما عين جانبو لاد بك – الذي تربى في قصر السلطان سليمان، والذي كان حاكم محافظة كيليس – ربانًا، وأمره بإعداد خمسمائة وخمسين قطعة بحرية ليضعها في (بيره جك) ممر نهر الفرات. كما انضم لهم من باب الدولة ألفان من الإنكشارية، ومائتان من رجال المدفعية. كما أن الحاكم – الذي سبق ذكر اسمه – جمع من نواحي حلب ما يقرب من ستة آلاف من جنود العرب والأكراد وقيد أسماءهم، ووضعهم بالمهمات الحربية في السفن، وأخرجهم في 957هـ الرابع من المحرم (الموافق 11 يوليو 1550م) من (بيره جك). ووصلوا إلى قلعة كليس التي كانت محافظة ابنه، حيث استراحوا بضعة أيام، ثم وصل إلى فالوجة من (جابرة، والرقة وصفين ودحبة وعانة وحادثة وهبت)، وتوقف هناك بضعة أيام أيضًا. ثم ظلوا في (حلة) ما يقرب من شهرين إلى أن تحسن الجو، ومضت الأيام الحارة، فخرج إسكندر باشا من بغداد مع جنوده من البر. كما أن الأسطول قام من (حلة) ومر بـ(آماجنة) و(السماوة) ووصل إلى مضيق نهر (ابو كليين)، ومن هناك إلى صدر الوادي أول الجزر، وحيث يلتقي دجلة بالفرات. وكان العرب قد أقاموا المستحكمات بقصد الدفاع من قبل، ولكن لما اقترب الأسطول تركوها، وابتعدوا عنها.

ومروا من هناك بسهولة، ولما كان أسفل ذلك جزر (جلتك ليك) وكانت في يد أشقياء العرب، فتلاقى الأسطول مع إسكندر باشا بالقرب من قلعة (زرترك)، كما اجتمع في هذا المكان مائة وخمسون من سفن أسطول (بغداد). وذهبوا كلهم متفقين إلى صدر الوادي، فبنوا هناك قلعتين متقابلتين متجهتين إلى الماء. ثم ذهبوا إلى الجزيرة المشهورة بصدر البحر؛ حيث وجدوا جنود العرب قد أقاموا هناك استحكامات مجتمعين. ولما هاجموا دون انتظار خرج جانبو لاد بك بجنوده إلى البر فحمل عليهم. وبعد معركة دخلها دون سابق تدبير، تفوق عليهم وشتت جنود العرب، وقتل كثيرين منهم.

كما مات من جنود الربان كثيرون ممن لهم شهرة. وعندئذ رأى أن يبني على الساحل قلعتيْن، وشرع في العمل. ولم تنقطع المعارك مع العرب، فاستمر القتال من حين لآخر

معهم. ولما كانت معيشة العرب من تمر النخيل ومن ثمار الأشجار الأخرى فقد قطعت كلها، لذا تظاهروا بالخضوع، ولكن جنود الدولة استمروا في القتال قائلين إن العرب لن يوفوا بوعدهم وهجموا عليهم من ناحيتين، نشبت معارك عظيمة فانهزم جند العرب، وكانوا طعمًا للسيف. وبعدما تم بناء القلعتين، طلب ابن عليان الصلح قبل الهجوم عليه.

فجاء ابن أخيه ومفتيهم (محمد حارث)، وطلبوا أمام (إسكندر باشا) أن يغفر لهم. وفي الاجتماع الثاني، قيل لهما إذا كان ابن عليان صادقًا في خضوعه للسلطان؛ فليرسل كل عام إلى خزينة البصرة خمسة عشر ألف قطعة ذهبية. وحتى يوثق بكلامهم، فليبق بعض أبناء مشايخهم في قلعة البصرة رهائن.

فقبل السفراء هذا العرض، وانصرفوا. وبعد الاستيلاء على جميع الجزر، غادروا ذلك المكان. ولما وصل الأسطول إلى مكان يسمّه (صاعبة) جاء أخو ابن عليان الأمير سلطان بخمسين سفينة، وعرض خضوعه. وهنا جاء الأسطول عالي البصرة بتسعة سفن (غراب) تحت قيادة علي باشا، وتلاقى مع قادة الدولة. ونزلوا في قلعة (فتحية) كما جاء القائد من البر، وحضر شيوخ الجزر وقادتها الاجتماع مع القائد، وخضعوا بعد أن قدموا الرهائن. ولما كان عرب النهر الطويل أمام (قلعة الرحمانية) في حالة تمرد وإثارة فساد وشرور لم يستجب قائدهم فضل للدعوة. وبناء على ذلك هجموا عليهم، فهلك كثيرون من العرب في المعركة التي دامت خمسة أيام دون انقطاع. وتشتت الباقون فنهب الجنود أموالهم وأملاكهم، وأحرقوا قراهم وقطعوا نخيلهم. وبنيت قلعة حيث تتحد الأنهار الثلاثة وقطعت مياههم. وأعطي للأمير سلطان محافظة (بواب)، فرجع الأسطول إلى ناحية بغداد في أوائل شهر رمضان الشريف (الموافق أوائل مارس 1568م)، وسرح الجند.

القسم السادس

حملة أزدهانة أو (أزدخان)

كان الربان (بياله باشا) وزير القبة وقائد الإنكشارية في (سكتوار) بعد أن صعد السلطان (سليم خان) على العرش، ثم أصبح مؤذن زادة علي باشا الذي كان في الخدمة ربان البحرية وقائدها، وظل في الحراسة سنة 975هـ (الموافق 1567 / 1568م). وذهب في سنة 976هـ (الموافق 1568 / 1569م) إلى حملة أزدخان إلى كفة وبحر (آزوف)، وكان سبب الحملة أن مجموعة من الطوائف التتارية التي نالت شرف الإسلام في عهد (السلطان محمود خان) اتخذت لنفسها وطنًا بعد غزوات تلك الجهات، واشتهروا بـ(تتار قازان). وبعدما انقرضت دولة القازانيين ظلوا تحت عذاب كفار (موسكو). وجاءت رسائل استغاثتهم إلى باب السلطان العثماني ملاذ العالم؛ حيث رجوا أن يشق ما بين النهرين لتوحيدهما. وكان (محمد باشا) العظيم يقول إن أول تدبير للحملة على البلاد الأعجمية توفير الذخائر للجنود.

وكان يفكر دائمًا في تدبير ذلك، والنهران المذكوران أحدهما نهر (تن) الذي يصب في (البحر الأسود) والآخر نهر (فولجا)، الذي يصب في بحر (شروان) وإنما يتقربان من بعضهما في بعض الأماكن كأنهما سيتحدان، ثم يفترقان ويبتعدان عن بعضهما في أماكن أخرى. وإذا ما شق هذا المكان وحفر ووُحِّد النهران؛ سيسهل وصول الطعام والشراب والمعونة إلى الجنود الذين في الباب الحديدي الذي في (شيروان)، ويجد الجنود طريقًا إلى سواحل جيلان وطبرستان، وقال بعض المطلعين على الأمور إن هذا العمل سهل بالنسبة لهمة السلطان. لذا أعطي (جركس قاسم بك) ولاية كفة، وكان يشغل وظيفة الدفتر دار الثاني لمعرفته تلك الجهات وأرسل هناك مقدمًا. وبعث هذا رجالًا يعتمد عليهم إلى ذلك المكان ليقيسوا مساحة الأرض.

وبلغ الدوائر الحكومية أن المسافة بين النهرين ستة أميال. وبعث الوزير الذي سبق ذكر اسمه كل ما يمكن إرساله من الفئوس والمجاريف ومستلزمات الأسطول. كما أرسلوا جنود الإنكشارية وغيرهم إلى قائد التتار، وضموا إليه باشا كفة، وخرجوا إلى

الطريق. ووصلوا إلى القرب من مدينة أزدخان الخربة، وشرعوا في الحفر، وجاء كذلك تتار (نوغاي) وبذل الكل جهودهم، واستطاعوا أن يحفروا ثلث المسافة. وفجأة انتشرت شائعة بين الجنود تقول إن شتاء هذه الأماكن شديد البرودة؛ فغادروا المكان دون أن يدفنوا فئوسهم ومجارفهم. وقال الآخرون إن قائد التتار أخاف الجنود؛ لأنه لم يكن يرغب في هذا العمل، وهكذا ذهبت كل هذه الجهود هباءً منثورًا.

العبرة من القصة

وهي أن الشروع في العمل الكبير برجل صغير قليل الدراية أمر مجانب للصواب، وإذ لابد لكل عمل رئيس قادر واسع الخبرة. ولا ينجح في هذا العمل إلا السلطان نفسه، فإذا ما ذهب السلطان في وقته يستطيع أن ينجح في هذا العمل، فمثل هذه الأعمال عمل سلطان ذي همة، وليس عمل الوزراء والقادة.

وقد حاول (سنان باشا) أيضًا أن يحفر نهر (سقاريا) ليبحر إلى بحيرة سابانجاه في سنة 999هـ (الموافق 1590 / 1591م)، فلم ينجح إذ يجب على السلطان أن يقتنع بضرورة هذا العمل، ثم يشرع فيه بنفسه ويبذل كل جهده. فإذا لم يفهم الأمر مباشرة ولم يأخذه على عاتقه؛ لا ينجح العمل.

حملة فتح قبرص

كانت جزيرة قبرص منذ فترة طويلة في يد (البنادقة)، وساد سلام حقيقي في هذه الأيام، وكانت علاقاتنا طيبة معهم، إلا أن سفن الحجاج والتجار الذين يذهبون إلى مصر، كانوا يتعرضون لشرور قراصنة هذه الجزيرة. وعندما يسألون عن ذلك، كانوا ينكرون، ويقولون إن السفن التي تتحرش هي سفن (مسنية ومالطة). ولما اتضح في هذه الفترة أنهم هجموا على السفينة التي تنقل المسئول عن أمور مالية مصر، واستولوا عليها ونهبوها؛ وجب خروج حملة لتأديبهم. ولما طلبت الفتوى بخصوص هذا الموضوع من شيخ الإسلام أبي السعود أفندي أفتى بهذه الصورة:

السؤال: إذا كانت ولاية ما من القديم في يد المسلمين، ثم استولى عليها الكفار، وهدموا مدارسها ومساجدها، وملأوها بنسل الكفار، وحقروا الدين الإسلامي، ونشروا إلى جهات

الدنيا الأربع أعمالهم السيئة. عندئذ، إذا قام السلطان ملاذ المسلمين وحاميهم وفقًا للجمعية الإسلامية؛ ليسترد تلك البلاد من يد الكفار وضمها إلى البلاد الإسلامية، وإذا وقع الصلح مع ولايات أخرى في يد الكفار من قديم، وأعطى لهم تعهدًا كتابيًّا بذلك، وكان في هذا التعهد الولاية التي سبق ذكرها؛ يا ترى هل تكون الشريعة مانعة لفسخ هذا التعهد الكتابي؟

الجواب: لا احتمال أن تكون الشريعة مانعة لذلك. ويكون توقيع سلطان المسلمين الصلح مع الكفار مشروعًا، فهذا الصلح لا يكون موافقًا للشريعة، وإذا ما وجدت مصلحة من الصلح دائمة أو وقتية، وإذا وجد أن نقض المعاهدة في وقت المصلحة أنسب؛ فيلزم نقض المعاهدة؛ لأن النبي - ﷺ - قد عقد صلحًا مع المشركين في العام السادس من الهجرة (الموافق 726 / 628م) مدة عشر سنوات، وأكد علي - رضي الله عنه - هذه المعاهدة بالكتابة، فوجد النبي - ﷺ - أن المشركين نقضوا هذه المعاهدة بعد عام واحد، فسار ضد المشركين في العام السادس من الهجرة (الموافق 629 / 630م) وفتح مكة المكرمة. قد اتبع في هذا الموضوع خليفة العالمين سنة رسول الله - ﷺ - ووافقها، كاتبه عبد الله الأصفر أبو السعود.

وبعد ذلك، صنعت السفن، وجهزت جميع لوازمها وفق الأمر السلطاني. وتراكمت في موانئ البلاد العثمانية أطعمة كثيرة. وأصبح (لاله مصطفى باشا) الوزير الخامس قائد عام الجنود. وأمر أن يشترك في الحملة (إسكندر باشا) حاكم الأناضول، وحسن باشا حاكم (قرامان)، وبهرام باشا حاكم (سيواس)، ومصطفى باشا والي (مرعش)، وحاكم حلب (درويش باشا) من (شهرزور). ومن حكام الروملي (ترحالا). وحكام محافظات (يانيا والمورا والباسان وبزه رين) وخمسة آلاف من الإنكشارية، ونائب قائدهم (يحيى) والجنود المكلفون بهذا العمل، والوزير الثالث (بياله باشا) لحماية الناحية البحرية. وقام الربان (علي باشا) من (بشيك طاش) في منتصف ذي الحجة سنة 977هـ (الموافق منتصف مايو 1575م) بثلاثمائة وستين قطعة بحرية من مختلف السفن. وسار بجوارهم السلطان العالي المقام في قارب وهو يحيي جند الإسلام إلى قرب (يدي قوله).

ولما وصل الأسطول السلطاني إلى (فنيقا)، لم يكن جند الأناضول قد وصلوا بعد، فاستراحوا هناك عشرين يومًا، ثم خرجوا إلى البحر. ورمت السفن مراسيها على ساحل (طوزلا) في جنوب جزيرة قبرص في العشرين من صفر سنة 978هـ (الموافق 25 يوليو

1570م)، وكان (بياله باشا) صهر السلطان والوزير الثالث، ومع ذلك تابع القائد العام، ولم يخالفه أبدًا.

وبناءً على أمر القائد، خرج إلى الجزيرة أولًا، ونصب خيمة القائد، وخرج الباشوات الآخرون وأركبوا القائد وحملوه إلى خيمته. وذهب بياله باشا إلى سفن الأسطول، واصطف في مكانه.

محاصرة لفكوشا

وعقد الاجتماع للمشورة حيث باتوا، وقرر الأعيان والأركان والقواد – بالاتفاق – أن يستولوا أولًا على (لفكوشا) في وسط الجزيرة، والتي كانت العاصمة قديمًا. وظل حاكم (سيواس) (برهام باشا) في ميناء (طوزلا)؛ ليحرس سفن الذخائر والأسلحة وأدوات القتال. وأمر (بياله باشا) أن يحمل جنود حلب والشام إلى الجزيرة، ويمنع الكفار الذين قد يأتون من البحر لنجدة الجزيرة. واختير الربان (علي باشا) لأمور محاصرة الحصن؛ لما يتمتع به من المهارة والحمية. ولما وصل حاكما (قيرشهر) و(آق شهر) خرج الكفار وأخذوا في القتال، فلحق بهم حاكم (قرامان) (حسن باشا) من الخلف، وهجم على الكفار؛ فتفرقوا وهربوا داخل الحصن. وفي اليوم الثاني، جاء القائد الشهير في مجموعات كبيرة، وقضى ليلة هناك وبحثوا رأسًا عن أماكن لإقامة الاستحكامات، ولما تم ذلك دخل في عمل الاستحكامات جهات متعددة: فمن جهة جنود القائد، ومن جهة ثانية جنود الإنكشارية، ومن جهة (إسكندر باشا)، ومن جهة القائد الربان (علي باشا)، ومن جهة (إسكندر باشا)، ومن جهة والي حلب (درويش باشا)، ونصبت المدافع من الجهات الأربع وحوصرت القلعة. وفي نفس هذا اليوم، أرسل حاكم (مرعش) (مصطفى باشا) بجنود ولايته إلى (ماغوسا) لمحاصرة الحصن.

وفي اليوم الحادي والثلاثين من محاصرة (لفكوشا) الموافق الثالث عشر من شهر ربيع الأول (الموافق 16 أغسطس 1570م)، قام الكفار وخرجوا من الحصن وقت الظهر، وهجموا على جنود (قرامان). ولما كان المجاهدون مستعدين فقد حاربوا بكل قوتهم، وكسروا كثيرًا من الكفار في هذه المعركة، وأسروا بعضهم ولجأوا إلى القلعة.

فتح لفكوشا

وجاء في هذه الفترة الرئيس الذي يطلق عليه (قره خواجه) من قبل حاكم الجزائر (أولوج علي باشا). وقبل ذلك، أخذت بلاد (تونس) من الأمير (أحمد) من أبناء حفص، وسقطت دولة (أبناء حفص) وانقرضت، وجعلت ولاية عظيمة، وذلك في شوال 977هـ (الموافق مارس 1570م)، وفي حملة يوليو 1570 خرج (علي باشا) المذكور إلى البحر ليتلاقى بالأسطول. ولما صادف في الطريق سفن (مالطة) استولى على أربع من سفنهم الحربية، ولكنه عاد إلى (تونس) ليصلح السفن التي تضررت في أثناء القتال. ولما كانت الأعلام التي أخذت من السفن أرسلت إلى قبرص، فقد ركزت تلك الأعلام منكسة أمام القلعة، وبهذا ملأوا قلوب الأعداء رعبًا. وبعد ذلك، ظهرت تباشير النصر من يوم لآخر. وفي اليوم الحادي والخمسين لمحاصرة الحصن، وفي اليوم الثامن من ربيع الآخر (الموافق 10 سبتمبر 1570م) دخل أبطال الأناضول و(قارامان) إلى القلعة من الجهة الشرقية، والأبطال الآخرون كل واحد مع فرقته دخلوا أيضًا إلى الحصن من الثغرات التي فتحوها، فقتلوا بعض الكفار وأسروا الآخرين، والتجأ قائدهم إلى قصر يماثل القلعة، ولكن (درويش باشا) استطاع أن يقبض عليه، وأتي به وقتل. وهكذا انتقل هذا الحصن ليد المجاهدين، وحولت الكنائس إلى المساجد. ولما قيست مساحة القلعة اتضح أنها كانت تبلغ 8180 ذراعًا، وكان الله مع المسلمين في هذا الفتح العظيم.

خضوع أهالي (كيرينه) و(باف)

بعدما استولى علي لفكوشا بعث إلى أهالي (كيرينه) و(باف) رسولًا مع رأس حاكم لفكوشا، ودعاهم للخضوع والاستسلام.

وعدوا هذا منه لإنقاذ أرواحهم فسلموا حصونهم، وأحسن معاملة رؤسائهم وقوادهم. وانتخب جنودًا لحراسة المكان، وكان (مصطفى باشا) حاكم (مرعش) قديمًا قد كلف بمحاصرة (ماغوسا).

وبينما كان يحاصر القلعة ويستعد للقتال، خرج قائد الحصن بفئة من باب القلعة، وهجم عليه. وكان الديدبان الحارس في الجهة الأخرى، وكان الجميع مستريحين دون أن يكون لديهم علم بالهرج والمرج الذي شمل المكان.

ولما كان الباشا المذكور رجلًا مجربًا وقويًّا، فقد ثبت في مكانه، وبذل كل جهده؛ حتى يخفف الخسارة التي سببها العدو له. ولما رأى الكفار أنهم لم يستطيعوا أن يحققوا غايتهم، هربوا إلى حصنهم تاركين ما يقرب من مائتي أسير وكثيرين من القتلى.

العبرة من القصة

هي أنه يجب على القادة في مباغتة الليل ومعاركه، أن يثبتوا في أماكنهم، وألا يتحركوا. ففي جميع المعارك التي ثبت فيها القادة، عاد العدو دون أن يحقق أية مكاسب.

بينما كان الوزير الأعظم (حافظ أحمد باشا) يحاصر (بغداد) هجم عليه (الشاه عباس) بجنده من الشيعة، فتفرق أكثر جنوده، ولكنه ظل ثابتًا في مكانه دون أن يتزحزح، فلم ينهزم، ورجع الهاربون من الجنود تحت الراية، فرجع جنود الشاه دون نجاح.

محاصرة (ماغوسا)

بعد فتح (لفكوشا)، ذهب القائد مع جنوده وحاصر قلعة (ماغوسا)، وذلك في الخامس عشر من ربيع الأول (الموافق 13 سبتمبر 1570)، وحاصر (بياله باشا) الجزيرة بما يقرب من مائتي سفينة من البحر بعد ما رجع من حملته على سواحل البحر، وكان متينًا قويًّا ومحكمًا. كما حفروا من البر خندقًا عميقًا ليقطعوا السبيل على المهاجمين.

وبينما كان الوزير الأعظم في هذه الفترة على وشك الذهاب بعدما أفرغ ما في سفينته من الذخائر على البر، وملأها بالغنائم والأسرى؛ اشتعل البارود الذي في داخلها فانفجرت السفينة، وصارات جذاذًا، وتسببت - أيضًا - في ضياع سفينتين كبيرتين على جانبيها. وهلك في داخلها الجنود الشجعان والتجار وغيرهم، وما يقرب من سبعمائة أو خمسمائة جارية وأموال كثيرة وكميات من الطعام والشراب. ولما حان الخريف، ولم يكن للأسطول ميناء يلجأ إليه في أماكن قريبة أبقى (بياله باشا)، والربان علي باشا حاكم رودس أحمد العربي بخمسين قطعة سفينة؛ ليكون في خدمة القائد العام، أما هما فذهبا إلى (استانبول).

قيادة (برتو باشا)

أمضى (مصطفى باشا) الشتاء في ذلك العام في جزيرة قبرص. وفي الربيع، أصبح (برتو باشا) قائدًا للأسطول السلطاني، وخرج بمائتين وخمسين سفينة مختلفة. وكان الوزير الثاني في الباب العالي، وذلك في 978هـ، ومنتصف ذي القعدة (الموافق أوائل

أبريل 1571م). ولما كان الجنود محاصرين ماغوسا، فقد خرجوا مبكرين إلى البحر أكثر من أي وقت آخر حتى لا يسبقهم أسطول العدو. وكان هناك قصور ونقص في أعمال القتال والجدافين، فأصبح عدد السفن بعدما انضم إليها سفن المتطوعين والإنكشارية ثلاثمائة سفينة، ووصلوا في أوائل ذي الحجة (الموافق 1571 أوائل أبريل) إلى مكان قريب من (ماغوسا) وألقوا مراسي السفن. وأخرجت المدافع والمهمات الأخرى إلى البر، فرجعوا إلى مضيق (رودس) لقطع طريق سفن الأعداء، وانتظروا هناك.

معركة حصن (ماغوسا)

أقام جند الإسلام استحكامات متينة في العشرين من ذي الحجة (الموافق 15 مايو 1571م)، وأخذوا يضربون الحصن من أماكن متعددة، وأخذت فرق الجيش تهيل التراب على الخنادق، وتحفر الأنفاق، وتضع الألغام.

وفي اليوم الثالث والثلاثين من المحاصرة، وفي سنة 979هـ محرم (الموافق 28 مايو 1571م) وضع حاكم كليس (جانبولاط بك) لغمًا في أساس القلعة التي على ساحل البحر، ونسفها من أساسها. وقبل أن يسكن ضباب السماء ودخانها هجم المجاهدون، ووقعت معركة طاحنة دامت من شروق الشمس إلى الظهر. ووقف (أحمد بك العربي) على ساحل البحر بأربعين سفينة حربية، ولم يقدر على فتحها في ذلك اليوم. وفي السادس من صفر (الموافق 30 يونيو 1571م) رمى جيش مظفر باشا لغمًا، وهجم المجاهدون من الثغرة التي أحدثها اللغم وظلوا يحاربون، ولم يستطع المسلمون أن ينالوا النصر في ذلك اليوم أيضًا؛ لمتانة القلعة ولكثرة الكفار في داخلها. ورُمِي لغمٌ آخر من قِبَل الجيش الذي تحت قيادة والي الأناضول إسكندر باشا، وهجموا، ولكن دون فائدة؛ فرجعوا.

استشهاد بعض المجاهدين أثناء الزحف

وبعد هذه الحملة، أمر القائد العام - الذي لم يحقق أمله - بسد الخنادق حتى امتلأت، وتصور أنه بهذا يمكنه أن يهاجم، كما أن الكفار حفروا الأنفاق من الداخل، وفرشوا تحت التراب الذي ملأ الخندق بالبارود. وبينما كان المجاهدون يهاجمون اشتعل البارود فتشتت شمل المجاهدين الذين كانوا فوق الخندق وبجانبه رأسًا على

عقب، واستشهد من الحكام حاكم (مالطة) (فرحات بك) وحكام (عينتاب) و(قارص) و(ديوريكي) والزعماء وقادة المجموعات، وكم من المشهورين سقطوا هناك - رحمهم الله رحمة واسعة. ولم يحدث أن هلك أناس بهذه الكثرة بسبب اللغم.

العبرة من القصة

هي يجب على النقابين أن يتفقدوا تحت الأرض؛ حتى لا تحدث خسائر مثل ما حدث؛ لأنه يفتح طريقًا لخوف الجنود ورعبهم.

حملة أخرى على قلعة (ماغوسا) والاستيلاء عليها

حمل جنود الأناضول على القلعة، ودخلوا فيها بعد بذل الجهود الجبارة في السابع والعشرين من صفر (الموافق 14 يوليو 1571م)، وبذلوا أقصى جهودهم. وفي أثناء ذلك، سحبوا ثمانية مدافع، وأخرجوها ووضعت الألغام في كل الجهات، وفتحت الثغرات. ولما وصل الأمر إلى هذا الحد يئس الكافر، أما القائد الذي نال مراده أرضى الجنود وأثنى عليهم، وحفزهم على القتال. وفي الثامن من ربيع الأول (الموافق 31 يوليو 1571م)، طاروا إلى القلعة كالنحل من كل الجهات، ولما رأى أن باب النجدة قد أغلق أمامهم، ولما أذن لبقية الكفار بالذهاب إلى بلادهم جاءت مفاتيح القلعة، وخرج الكفار من القلعة، ونصبوا خيامهم في مكان بعيد عن معسكر الجيش، فدخل الجنود الحصن، فأتموا بهذا أمور الفتح، وعم الفرح والابتهاج، وجعلت الجزيرة ولاية، وأعطيت (لمظهر باشا). وأصبحت (ماغوسا وكيرينه وباف) محافظات، وألحقت بمحافظات (ايج ايلي) و(طرسوس) و(وسيس) في بر الأناضول، وسجل عدد مدافع الجزيرة سبعمائة وستين مدفعًا.

وكان قائد الكفار (براغدي) قائد أربعة آلاف كافرًا، خرجوا من القلعة، وكان ملعونًا عنيدًا. فقتل أسرى المسلمين، وتردد في إعطاء الرهن من أجل السفن التي اختارها، وجادل وتفوّه بألفاظ غير لائقة. لكل هذا تم تعذيبه عذابًا شديدًا، وسلخ جلده، ووزع أربعة عشر ألف كافر على السفن الحربية، ثم غادر القائد المظفر، ووصل إلى الباب العالي، فنال عطف السلطان وتقديره.

التاريخ: فتح الفاتحان قبرص

وتاريخ آخر: أخذ السلطان سليم جزيرة قبرص
فهذا المصراعان يوضحان تاريخ الفتح[1].

حملة صنيغين

استراح (برتو باشا) – الذي كان في الأوائل القائد العام – والربان (علي باشا) اللذين كانا آتيين من قبرص إلى (رودس) بضعة أيام. ولم يظهر أي أثر أو خبر عن أسطول الأعداء، فهجما على جزيرة (كريت)، ونهبوا سواحلها، وجاء في هذه الفترة حاكم الجزائر (أولوج علي باشا) بعشرين قطعة بحرية، وانضم لهما. فاتفقوا معًا، وذهبوا إلى جزيرة (كفالونيا) فنهبوها وخربوها، ثم استولوا على قلاع (سوبوت) و(أولكون) وبار من قلاع (البندقية)، وتجولوا في البحر فترة، ولم يظهر أي أثر لأسطول الكفار. ولما اقترب موسم الشتاء كان بعض الجنود قد غادروا سفن المتطوعين لسبب من الأسباب؛ فقل عددهم، كما أن المقاتلين والجدافين تفرقوا وذهب الجنود الباقون مع سفن الأسطول إلى ميناء (إينه بختي) حيث ألقوا مراسي سفنهم. وهناك وصلت الأخبار بأن السفن المعادية قد قررت أن تأتي إلى ذلك المكان لمجابهة الأسطول الهمايوني، وأن تتقابل معه.

سفن الأعداء

وكان قوامها مائة سفينة حربية من (البندقية)، وكان على كل واحدة منها مائة مقاتل. واثنتا عشرة سفينة من البابا، وأربع من (مارنيا)، وأربع سفن من مالطة، وثلاثون من (آنابولي) وعشر من (جنوه). وكلها مرتبطة بأسبانيا. وكان قائدها (أندريا الذي يسمونه (الربان الفتي) وعشر سفن من الدوق، وكان أربعون من (دوف ملوريسيا) وحاكم (ليفورنا)، واثنتا عشرة من (صقلية)، وأربع من (البرتغال)، واثنتا عشرة سفينة للمتطوعين، والإجمالي يصل إلى مائتي قطعة. وبها ثمانية وعشرون أو تسعة وعشرون مقعدًا للتجديف، وأقلها ذات أربعة مقاعد وسبع سفن حربية من البندقية، وفي كل واحدة منها ثلاثمائة مقاتلًا.

كما كانت في الأسطول سفينتان حربيتان، على متن كل واحدة منهما ألف مقاتل. كذلك عشرون سفينة كبيرة من (البندقية)، أيضًا على كل واحدة منها سبعمائة مقاتلًا،

---

(1) المصراع هو شطر بيت من الشعر، وكان من المعتاد التأريخ للأحداث المهمة وغيرها بمصراع شعري أو جملة قصيرة وفقًا لحساب الجُمَّل.

وكان قائدها البحري ربان روما (ماركو أنطون)، وربان أسبانيا (جون أوستريالو) أي ابن إمبراطور النمسا (كارلوس الخامس) غير الشرعي. وربان (البندقية) (سباستيانو فرينو) كان من حكام (البنادقة). وربان الدوقية وربان (جنوه) الذي كان ربانًا متطوعًا واسمه (تيراندا). ولما كانت سفن البنادقة في حاجة شديدة للقوات والزاد؛ فقد أعطتها السفن الأسبانية بعض البقسماط الفاسد. وحتى مثل هذا البقسماط كان ناقصًا. واجتمعت كل هذه السفن في (مسنيا)، وخرجت ووصلت في اليوم السابع عشر من خروجهم إلى (هولوموج)، وكان المنادي الذي يأتي من البندقية يصيح فيهم قائلًا: اصبروا أكثر حتى يضعفوا أكثر. وهكذا كان يسكنهم. واجتمع من أسبانيا عشرون ألفًا من المقاتلين الأقوياء، ودخلوا بالسفن في (جنوه)، ومن ألمانيا تسعة آلاف، ومن مالطة وصقلية كذلك، وكلهم ما يقرب من أربعين أو خمسين ألفًا من الكفار كما سُجّل.

مشورة جنود المسلمين

اجتمع قادة المسلمين وربابنتهم مثل القائد (برتو باشا) والربان (علي باشا) و(وأولوج علي باشا) حاكم الجزائر وحاكم طرابلس (جعفر باشا) و(حسن باشا ابن خير الدين باشا) وحكام المحافظات الخمس عشرة، وقادة الجند الكبار؛ في مكان واحد، وتشاوروا. لم يرض أولوج علي باشا أن يحارب العدو قائلًا: إن أسطولنا ناقص الأفراد، وقد سارت سفننا في البحر ستة أشهر؛ لذا فهي غير سليمة، وعندما عدنا من قبل من الخليج إلى (إينه بختي) قيل للجنود إنها عودة إلى البلاد، وسرح بعض جنود الإنكشارية والآخرون، بإذن ودون إذن، تفرقوا. فأسطول الكفار لا يستطيع أن يدخل في الميناء، والخروج لهم مخيف. فأيّد (برتو باشا) رأيه.

فرد عليه القائد العام قائلًا: أين إذًا الحمية الإسلامية، وشرف السلطان؟ ماذا يحدث بغياب خمسة أو عشرة آلاف من كل سفينة؟ كما أن الآخرين عارضوا الرأي الأول، وأيدوا الخروج للحرب.

فقال (علي باشا) بناءً على أنك قد قررت الخروج لمواجهة العدو، فعلى الأقل نذهب ناحية البحر، فردّ عليه القائد العام بقوله: (الأفضل أن نحاذي الساحل). وهكذا طرح كثير من الاقتراحات. وقال (أولوج علي باشا): أين الذين حاربوا مع (خير الدين

باشا) و(طورغود باشا) لم لا يبدوا آراءهم؟ عندما تصيب سفينة ما قنبلة، فالأفضل لها أن تعود إلى الشاطئ من أن تعرض نفسها للغرق؛ لأنها فتحت طريقًا لهزيمة السفن الأخرى، ولكن ما جدوى ما قاله أولوج علي باشا؟ فأضاف قائلًا: (أخفوا الفوانيس والرايات الكبيرة والشارات). فلما تعرض لاستهزاء القائد العام؛ سكت.

وكان القائد العام في الأصل رجلًا غيورًا ومفيدًا، ولكنه كان يجهل حيل وفنون القرصنة؛ لأنه لم يشترك في الحروب البحرية. وكان رجلًا جادًّا شهيرًا. ولما كانت الأوامر التي تلقاها تقول (يجب عليه قطعيًّا أن يهاجم أسطول العدو، حيثما كان، وإلا تتعرض لتأنيبي وغضبي؛ لذا أقنعَ جميع الجنود برأيه، وقرر الحرب.

خروج السفن الإسلامية وهزيمتها

خرج القائد الذي سبق ذكره بغضب شديد وتعالٍ في 979 هو في السابع عشر من جمادى الأول يوم الأحد (الموافق أكتوبر 1571م) جاعلًا (برتو باشا) في الجناح الأيسر و(علي باشا) في الجناح الأيمن، وهو في الوسط بمائة وثمانين سفينة، وكونوا موكبًا عظيمًا. وخرجوا من مضيق (إينه بختي). وكان في الموره في ساحل (هولوموج) قريبًا من هذا المضيق رأس، ومنذ ذلك الوقت يطلق عليه (الرأس الدامي). وكان أسطول العدو متربصًا خلف هذا الرأس. وأرسل (علي باشا) من هذا المكان خبرًا إلى القائد العام، مفاده: إن سفن الكفار الثقيلة والتي بمثابة القلاع والمستحكمات لهم تتربص بهم خلف (الرأس الدامي)، فلننسحب من أمامها متنحين عنها، ثم نعود ونهاجمهم إما من الخلف أو من الوسط. فرد عليه القائد العام: إنني لا أستطيع أن أقول على أسطول السلطان أنه هرب، فسار وجابَه الأعداء.

وفي الحال، خرجت خمسون سفينة من سفن العدو المختارة من خلف الرأس، واختفت بقية سفنها خلف الرأس. واتجهت السفن الإسلامية إلى تلك السفن، وبينما كانت تحاول إسكات مدافعها وإضعافها، خرجت السفن المختفية خلف الرأس وأحاطت بالسفن الإسلامية، وأطلقت عليها مدافعها. وبينما كانت السفن الإسلامية تتجمع في مكان مناسب انسلخ الربان القائد بسفينة القيادة من بين السفن، وهجم على سفينة محاولًا إسكانها، وعرف الكفار أنها سفينة القيادة من فوانيسها الثلاثة. فتجمعوا

حولها وقتلوا الربان وأسروا من في داخلها. كما أغرقوا سفينة (برتو باشا) بقنابلهم، أما هو فوقع في البحر. وبينما كان سابحًا رآه (محمود بك) ابن (حسن باشا) فمد له المحجن، ورفعه إلى السفينة إذ أنه عندما تضيع الرأس لا تبقى الأرجل، فانهزم الجميع، وأخذ كلٌّ واحد يعمل على إنقاذ نفسه.

ولما رأى (أولوج علي باشا) هذا الوضع، وكان بحارًا قديمًا؛ فقد رفع علامات سفينته، واتجه إلى عرض البحر. ولما رأى أن سفينة الباشا الربان قد وقعت في دوامة؛ عمل على سحبها، لكن ربان (مالطة) هجم عليه، ولكنه قتل هذا الربان بيديه، وأسكت عدة سفن أخرى ولكن سفن العدو تفرقت؛ لذا اصطفت السفن الجزائرية خلف بعض، واتجهت نحو (متون) وهي تحارب حتى نجت، واستشهد أكثر الجنود في الحرب مع الكفار. والمكان الذي حدثت فيه المعركة هو (آناتوبوكا) كان قريبًا من شواطئ (الموره)، وكان ذا مياه ضحلة، فجنحت خمس عشرة قطعة من السفن، فنزل أفرادها في البحر، ونجا بعض منهم خارجين إلى البر، أما الباقي إمَّا أُسر أو غرق.

وكان حاكم (آغريبوز) ابن صالح باشا قد وقع أسيرًا، فنجا بواسطة سفينة حسن باشا، وخرج إلى البر بسفينة (برتو باشا) و(محمود بك) إلى بروزه، وسار من هناك إلى (إينه بختي) برًّا حتى أدركها. واستشهد حاكم (جوروم كلابي) وحاكم (شرق قارا حصار) أحمد، وحاكم أنكروي ابن معمار، وحاكم (نيكبولو) أحمد، وحاكم (إينه بختي فردوس)، وحاكم سافيز عبد الجبار، وحاكم ميديللي خضر، وحاكم (سيجاجق قارا باتاق) وحاكم بيفا علي، وحاكم (إسكندرية مصر) شولوك، وحاكم آخر. وكلهم حكام إحدى عشرة محافظة وأمناء الترسانة ونوابها. ومن الربابنة ممش دوندم، وعلي مسلمان وغيرهما، وفرسان عدة محافظات استشهدوا كلهم، ولم ينج إلا بعض منهم. واستولى الكفار على أربعين سفينة، ووضع أمتعتها وحبالها في مخازن ذخائر البندقية.

العظة من القصة

هي يجب على القادة أن يعرفوا جيدًا وضع الأعداء بالتحري عنهم، حتى إذا كان في مقدورهم مجابهتهم، فإذا كان الصلح ممكنًا يجب ألا يُلجأ إلى الحرب. وإذا تقررت الحرب يجب أن يتحرّى جيدًا، وأن تكون الحرب وفق قوانينها. وعلى القادة ألا يشرعوا

في الحرب بأنفسهم، بل يمكثون في أماكنهم ويوجهون الجنود حسب ما تقضي الظروف. وعندما ينقطع الأمل بعد الهزيمة، فمن المهارة الخروج إلى جهة ما. إن ضرر أسر قائد ما أعظمُ من قتل جميع المقاتلين، وعليهم ألا يشبهوا حروب البحر بحروب البر، وعليهم أن يطلعوا على قوانين الحرب في كتب التاريخ وكتب الحكماء.

إعطاء المناصب وقيام قيليج علي باشا بمهمة القيادة البحرية

لما كان السلطان في (أدرنه)، جاء أحد رجال (أولوج علي باشا) في الثالث من جمادى الآخرة (الموافق 23 أكتوبر 1571م)، وأبلغ هذا الخبر المخيف، فحزن جميع المسلمين من هذه الهزيمة التي تذكر بيوم القيامة، وذهلوا قائلين: (سبحان القادر الحكيم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم) عندئذ، أعطي منصب قيادة البحر لأولوج علي باشا؛ لقاءَ فتوّتِه وحسنِ تدبيره، الذي سبق ذكره. وغير لقبه (أولوج) بـ(قيليج) بمعنى (السيف). وفي جميع ما كتب عنه استخدم هذا اللقب الجديد فسَمّاه الجميع بعد ذلك (قيليج علي). ووزعت محافظات الحكام الذين سقطوا إلى الآخرين، وأعطي لمراد رئيس محافظة (سيجاجيق).

استعداد الوزير الأعظم محمد باشا وتدابيره

أمر السلطان بصنع سفن جديدة. وأخذ من الحديقة التي بالقرب من الترسانة قطعة من الأرض حيث بنيت ترسانة ذات سبعة أحزمة، وبذل الوزير الأعظم كل جهده، وفي خلال ذلك الشتاء استطاع أن ينشئ مائة وخمسين سفينة حربية خفيفة، وثماني سفن حربية ثقيلة. وكان الربان (قيليج علي باشا) يردد دائمًا: (إن صنع جسم السفينة سهل إذ يلزم لمائتي سفينة خمسمائة أو ستمائة قطعة حديد، ومثلها من الحبال والأشرعة ولوازم أخرى، فإتمام كل ذلك من الصعوبة بمكان. فردَّ عليه (محمد باشا العظيم): يا باشا، لا تقلق؛ إن قدرة الدولة العليّة عظيمة لدرجة إذا أمر بصنع جميع حدائدِ السفن من الفضة وحبالها من الحرير وأشرعتها من أطلس؛ فمن الممكن صنعها. فإذا نقصت لوازم أية سفينة تعال إلي، وخذها مني. ولما سمع علي باشا ذلك رفع يديه إلى أعلى داعيًا له، وأثنى عليه، ثم قال: (الآن، قد تأكدت أنك ستكمل هذا الأسطول). وفي الواقع، أنه قد جهز جميع السفن بالمدافع والبنادق وأدوات الضرب والقتال، التي كانت قد جهزت في شتاء العام الماضي، وأكمل كل ذلك في مقتبل الربيع؛ فأصبح الأسطول مثل الأسطول القديم، بل أكمل منه.

نزاع

بقي هنا سؤال. ياترى هل صُنعت هذه السفن بالأموال التي أتت من مختلف المحافظات؟ أم ساعد في ذلك رجال الدولة وأغنياء الناس ووجهاؤهم؟ يقول بجوي: (لم يكلفوا أحدًا بصنع السفن، كما أنهم لم يأخذوا معونة مالية في تلك العهود، بقولهم: (إنه قد كلف رجال الدولة العظام، كلٌّ واحد منهم حسب قدرته بصنع سفينة)، ويمكن التأكد من صحة ذلك أو عدم صحته بالرجوع إلى الإدارة المالية للدولة.

حملة الحراسة

بينما كان الكفار يعتقدون أن الأتراك لن يستطيعوا أن يصنعوا أسطولًا، خرج قيليج علي باشا إلى البحر بمائتين وأربع وثلاثين سفينة حربية خفيفة، وثمان من السفن الثقيلة في سنة 980هـ (الموافق يوليو 1572)، ولما رآها العدو قرب المساء، وكان أسطول البنادقة قد ذهل من به ذهولًا، فتجنب أبطال الإسلام الهجوم متذكرين هزيمة العام الماضي. كما أن الكفار ذهبوا ليجتمعوا مع الأسطول الأسباني في مكان ما. وقال ربان الأسطول العثماني: (في الواقع، إن سفننا كاملة من جميع الوجوه وقادرة على خوض غمار الحرب، ولكن الجيش العثماني مازال خائفًا بسبب الهزيمة الكبرى التي تعرض لها، ومن المحتمل أن يمتنع عن القتال بعد معركة قصيرة، والصواب هو أن ندخل (موتون) ونوجه كل جهدنا لحماية أسطولنا). وتحرك تحت حماية مدافع الحصن، وأخرج المدافع إلى الأماكن المناسبة، وثبَّتها هناك، ووضع بعض السفن القوية أمام مدخل الميناء. وجاء في فجر اليوم التالي أسطول الكفار العظيم، ولم يجد أية فرصة للاقتراب من البر، وإنزال الجند عليه، فتجول في تلك الجهات عدة أيام، ثم عاد إلى بلاده. عندئذ، خرجت السفن الإسلامية من (موتون)، ووصلت إلى الترسانة العامرة سالمة.

حملة بياله والصلح مع البندقية

ثرثر الكفار من قديم – كثيرًا – عن هزيمة الأسطول العثماني، كما أن ذهابهم إلى (موتون) لمواجهة الأسطول العثماني دون خوف، كل هذا هزَّ حمية السلطان ومكانته. وصدر الأمر السلطاني بصنع السفن وتجهيزها لأخذ الثأر. وفعلًا، صنعت سفن جديدة، ووضعت تحت قيادة الوزير (بياله باشا). وفي اليوم الثاني من صفر سنة 981هـ

(الموافق 3 يونيو 1573)، وصل الأسطول العثماني إلى سواحل أولونيه و(دلفينة) بمئتين وخمسين من السفن الحربية الخفيفة وعشر سفن ثقيلة مليئة بالجنود، ليتلاقى بأسطول الكفار، ولما سمع الكفار أن المسلمين خرجوا بأسطول عظيم لم يجد الكفار شجاعة للتحرك. عندئذ، خرج (بياله باشا) و(علي باشا) وهجما علي سواحل (بوليا)، وأخذا بعض السفن الحربية، ونهباها. ولما كانا على وشك الهجوم على السواحل التي في يد البندقية، جاءت الأوامر والأحكام الآتية من استانبول.

إن حكام البندقية بعثوا إلى استانبول وفدًا يطلبون العفو والمغفرة عما ارتكبوه من الجرائم والذنوب حتى الآن، وعرضوا خضوعهم حتى يستريح الرعايا والبرايا والجنود، قائلين: (إن ما مضى قد مضى)، فليكن ما مضى قد مضى، متبعين القول الكريم (الصلح خير). وقد أقيم الصلح بيننا، وأنعم على بلادهم بالأمان السلطاني. ويلزم عليك بعد الآن ألا تهاجم الأماكن التابعة للبندقية، ولا تنهيها. وأن تبذل كل جهدك في نهب وحرق البلاد التابعة لأسبانيا). هذا كان الأمر السلطاني، فنوى القائد والربان الذهاب إلى جهات (صقلية وآنابولو)، ولما هبت الرياح المعاكسة وغرقت بعض السفن من شدة الرياح ومضى موسم البحر؛ عادوا إلى استانبول، ودخلوا الترسانة العامرة في رجب (الموافق نوفمبر 1571).

حملة حلق الواد

لما كانت البندقية قد خضعت وعقدت الصلح، ظل الأسطول الأسباني بمفرده ولم يجد شجاعة لمواجهة الأسطول الإسلامي، فذهب في شوال (الموافق يناير 1574) إلى السواحل العربية واستولى على قلعة تونس حربًا، وحصَّنوا قلعة حلق الواد الذي بين المدينة والبحر والمضيق، والذي كان في يدهم من قديم، ووضعوا في داخلها وسائل القتال والذخيرة والجنود. وسعوا للاستيلاء على السواحل، ولما بلغ ذلك مسامع السلطان؛ صدر الأمر السلطاني بتجهيز أسطول كبير؛ لاسترداد تونس، والاستيلاء على حلق الواد.

وشمَّر الوزير الأعظم عن ساعدَيْه، وجهز في ذلك الشتاء مائتين وثمان وستين سفينة حربية خفيفة وخمس عشرة سفينة حربية ثقيلة بكل لوازمها، وخمس عشرة سفينة

عظيمة تسمّى (قاليون)، وأتى في أيام الصيف من أنحاء البلاد العثمانية ثمان وأربعون ألفًا من الجدافين، ووزعوا على السفن المختلفة. ودخل في السفن جنود الأناضول وفرامان و(مرعش) والإنكشارية والبحارة. وعين الوزير (سنان باشا)، الذي فتح اليمن من قبل. وكان والي مصر قائدًا عامًّا للأسطول. كما اشترك جنود السلطان في الحملة، وخرجوا مع الربان (علي باشا) من استانبول في الثالث والعشرين من المحرم سنة 982هـ (الموافق 15 مايو 1574)، وتقدموا نحو البحر الأبيض المتوسط. وصولًا في ربيع الأول (مايو - يونيو) إلى ساحل (كالاوريا) ونهبوا جهة (طوبراق حصاري)، وضربوا جهات (مسينا) وخربوها ونهبوها وصادفوا في طريقهم سفينة عظيمة للعدو، فهجموا عليها واستولوا عليها، دون أن يعطوا لها فرصة للتحرك. وبعدما اغتنموا ما في داخلها، أشعلوا فيها النيران بأمر القائد، وعبروا البحر من هناك في خمسة أيام، ووصلوا إلى البر العربي.

محاصرة القلعة والاستيلاء عليها

خرج الجنود المسلمون في الجهات التي حول حلق الواد في الثاني من ربيع الآخر (الموافق 22 يوليو 1574م)، ونصبوا خيامهم، ثم أقاموا المستحكمات، ووجهوا المدافع نحو الحصن. وكلف حاكم تونس حيدر باشا وحاكم طرابلس مصطفى باشا؛ الإنكشارية ومتطوعي المصريين بمحاصرة القلعة وحرس الربان (علي باشا) جهة البحر. وبعد ثلاثة وأربعين يومًا من القتال، نهارًا وليلًا، والضرب والعراك مستمر، وفي السادس من جمادى الأولى (24 أغسطس 1574)، هجم أبطال الإسلام على القلعة، وأخذوها بقوة السيف. وكان (محمد الحفصي) من أبناء حفص المنقرضين كان أسيرًا، فأنقذ وأخذ من القلعة غنائم كثيرة، ولكن سقط كثيرون في أثناء القتال الذي دار بضراوة شديدة. واستشهد اثنان من نواب قادة الإنكشارية واحدًا تلو الآخر. وقتل خمسة ألف كافرًا، وأسر ألفان في يوم الفتح، فوزعوا على السفن، وكان بالقلعة من أنواع المدافع المختلفة خمسة آلاف مدفعًا جيدًا، لا مثيل لها. وكان واحد منها قد جلب من قلاع مختلفة فنقلها كلها إلى السفن، ولا المدافع المنتشرة إلى وقت قريب في (طوبخانة) و(رأس سراي) هي تلك المدافع.

هدم حلق الواد

كان هذا الحصن أمام مدينة تونس، وكان خندقًا متصلًا بالبحر، وكان عرضه ثلاثين ذراعًا وعمقه عشرة أذرع، وكان حصنًا صغيرًا محكمًا من الداخل. وقد عملت (أسبانيا) منذ ثلاث وأربعين سنة على تقوية هذا الحصن وزيادة منعته، وادَّعوا أنه يمكن الاستيلاء على جميع الشواطئ العربية بواسطة هذا الحصن. ولم يكن له مثيل في قوته وصغره، ولكن تركه قائمًا كان يمثل خطورة شديدة، هذا ما اتفق عليه القادة؛ لذا وضع تحت أبراجه في أربعين مكانٍ ألغامٌ، وأبعدت سفن الأسطول وأخلي داخله، وأشعلت النار. وفي هزة قوية وضجيج شديد، طارت أجزاء الحصن في الهواء، ولم يبق هناك أثر منه.

فتح ولاية تونس والاستيلاء عليها

سار بعد ذلك بالأسطول إلى الحصن الذي بناه الكفار، والمسمَّى بباستيون بالقرب من تونس. وهو في الواقع، حصنان، وضرب كل واحد منهما عدة أيام، وفتحهما وقبض على بقية الكفار الناجين من السيف، وأخذوا أسرى وقيدوا بالسلاسل، وعين (رمضان باشا) واليًا على تونس. وبعدما أعد كل ما يلزم المدن والحصون من مأكل ومشرب؛ عاد سالمًا غانمًا ودخل في أوائل رجب المرجب (الموافق أوائل أكتوبر 1574) الترسانة العامرة، ونال كلٌّ من القائد والربان لفتةَ السلطان، ونال تقديره.

القسم السابع

حول الربابنة الذين ظهروا قرب سفن كريت

وبعد ذلك، لم تُبعث سفن إلى البحر الأبيض المتوسط، إلى أن تقررت الحملة على جزيرة (كريت)، وظلت السفن في حالة الدفاع.

وسافر (علي باشا) مرة أو مرتين إلى البحر الأسود، وقام بحصار (فاشا). وفي سنة 980هـ (الموافق 1572م)، ذهب إلى الجزائر بخمسين قطعة بحرية، ومات عام 995، فأصبح إبراهيم باشا ربانًا. وبعد سنة وفي شوال 996 (أغسطس 1588) جاء أولوج باشا من المغرب، وأصبح ربانًا.

حملة طرابلس

وفي أواخر ذي الحجة من تلك السنة (أواسط نوفمبر 1588)، ظهر رجل يدّعي أنه خليفة المهدي، واسمه (يحيى بن يحيى) فهجم على القلعة التي في طرابلس الغرب بعدة آلاف من جيوشه، وقتل أمير أمراء الجزائر أحمد باشا من (استانكوي) في ربيع الآخر (فبراير 1590). ولما بلغ ذلك إلى الباب العالي، وبعث إليه (جعفر باشا) قائدًا للحملة البحرية بالأسطول، الذي يقوده الباشا الذي سبق ذكر اسمه بخمسين قطعة بحرية وجنوده كافية في 998 (1590/ 1589م)؛ فوصل هناك وقتله، وأنقذ البلاد من شرّه، وحمل رأسه إلى استانبول.

حملة جاغالا أوغلي سنان باشا

وهو ابن جاغلا الربان الأفرنكي. وكانت أمه بنت حامي قلعة (نووه)، فأسرت وتنصرت، وقبض عليها في عهد السلطان (سليمان) خان، فرأى (سنان باشا) الذي سبق ذكر اسمه مناسبًا لخدمة حريم السلطان.

بينما كان من فرسان الخاصة السلطانية، فأصبح قائدًا للإنكشارية في 980هـ (1573/ 1572)، وأصبح واليًا في أقليم أرضروم (وبغداد) و(روان)، وبعد ذلك رقي إلى الوزارة، وأصبح قائمقام بالجيش الإسلامي بعد وفاة (عثمان باشا)، وبوصية منه

أصبح ربانًا بعد (حسن باشا)، وخرج بالأسطول إلى البحر. وفي تلك السنة، هجم على قلعة (مسينة) وحواليها، واستولى على بعض سفن الأعداء الحربية، وجاء منتصرًا. وهو الذي يقصده (عزم زاده) في قصيدته التي نقبس منها هذين البيتيْن:

استول على البر والبحر بأسنة الحراب القاتلة

وكان الله في عون الباشيين في دولتك

وعزل من عمله في 18 جمادى الأولى سنة 1003 (29 يناير سنة 1595)، ثم أسندت إليه الوزارة، وذهب إلى حملة (أكري). وبعد المعركة، أسند له منصب الصدر الأعظم.

حملة خليل باشا البسنوي

بينما كان وزيرًا، أصبح في ذلك التاريخ ربانًا في (أكري)، وذلك سنة 1005هـ (1597/ 1596م)، فخرج بمائة وخمس سفينة بحرية، وعاد بعدما استطاع حماية البحر الأبيض المتوسط، ثم عُزل من عمله.

حملتا جاغالا أوغلو الثانية والثالثة

بعدما أصبح الباشا الذي سبق ذكر اسمه؛ واليًا على (الشام)، وبعدما مُنح منصب الصدر الأعظم في 1005 (1597/ 1596)، أصبح في 9 شوال 1006 (15 مايو 1598) ربانًا مرة ثانية.

قال الهاتف بباء البسملة: تاريخه (إذا أصبح سنان باشا ذا قلب متسع مثل البحر ربانا مرة ثانية)، وهذا البيت للرياضي.

وخرج في 1007 (1599/ 1598م) بالأسطول إلى البحر، وذهب إلى (إينه بختي) لحمايتها. وفي سنة 1008 (1600/ 1599)، ذهب إلى (مسينا) وأحضر أمه. وسافر في السنين 1009 (1601/ 1600) و 1010 (1602/ 1601) وفي سنة 1012 كلف بإحضار الخزينة من مصر، فذهب إلى (الإسكندرية) بالأسطول. وكان (علي باشا) قد أحضر الخزينة من البر. وبينما كان في المحرم 1013 ربانًا، أصبح قائدًا للجيش إلى حملة الفرس. ولما انهزم في هذه الحملة، أسند منصبه إلى (درويش باشا) في شعبان 1014

(يناير 1606)، ومات في ذلك العام في (ديار بكر)، وأصبح ربانًا مرتين في خلال عشر سنوات. وقام في زمنه بتجديدات كثيرة كيفما يريد. وكان يختار للسفينة الحربية الرئيسية أحسن الجدافين، وكان يضع في كل مجداف ثلاثة من الأسرى وثلاثة من الأتراك.

وهكذا كان يطمئن ربان السفينة. وكان الرئيس الحاج العظيم بحارًا عظيمًا مثل (طورغود باشا)، وكان رئيسًا للسفينة الحربية، وهو الذي يحرك الأسطول كما يشاء، وكان الباشا يوافقه على ما يفعله، ولا يعترض عليه، ولم يلوث الشرف أبدًا.

حملة جعفر باشا

بعدما أصبح درويش باشا الصدر الأعظم أعطى منصب الربان إلى الباشا السالف ذكر اسمه. كان هذا الباشا من عبيد (قيليج علي باشا). قام بحملتين في البحر الأبيض المتوسط بالأسطول. وفي عام 1015 (1607/ 1606)، لما استحال إحضار خزينة مصر من البر؛ بسبب (ثورة الجلاليين) ذهب الباشا المذكور إلى (الإسكندرية)، وأحضر الخزينة بحرًا. وفي سنة 1016 (1608/ 1607) خرج إلى البحر مرة أخرى، وذهب إلى (آفارين) لتفقدها. وعند العودة إلى باب الدولة، عزل من عمله.

حملة الحافظ أحمد باشا

عندما كان رئيسًا للصيادين في الحرم السلطاني رقي إلى منصب الربان بدلًا من (جعفر باشا). وخرج في سنة 1017 (1609/ 1608م) إلى البحر الأبيض بالأسطول السلطاني. ولما ذهب إلى (الإسكندرية) لإحضار الخزينة المصرية، وعاد إلى (رودس)؛ وجد قافلة السفن البحرية منهزمة. بينما كانت هذه السفن راسية هناك وغافلة، هجمت عليها سفن القراصنة المقاتلة فانهزمت. وتعرضوا لخسائر عظيمة، إذ استولى على عدة سفن حربية، وأخذ الباشا الربان يجول تلك السواحل إلى أن مرَّ موسم البحر، وجاء إلى باب الدولة؛ فعُزل عن عمله. وكان هذا الباشا يحب المزاح وعُرف بكتابة الشعر. ولما التقى مع (غني زاده) قاضي استانبول كان يكتب حاشية للتفسير الشريف وهو يعاقر الخمر. وبينما كانا يتحدثان، قال له الباشا سائلًا: إلى أين وصلت كتابتكم؟ فقال القاضي - وهو يريد أن يعرّض بالباشا: أكتب تفسير الآية ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1]. ففهم الباشا ما يقصده

(1) سورة الروم، من الآية 41.

القاضي، فرد عليه قائلًا: سمعت بأنك تبذل جهدك في تفسير الآيات حول الخمر والميسر. وهكذا رد الحجر إلى مكانه.

ولما ترك (حافظ باشا) منصبه، أصبح أغا الإنكشارية (خليل باشا) ربانًا، وقام برعاية أمور الأسطول. وقد وجد (حافظ باشا) في ولايات (وان) و(الشام) والأناضول و(دياربكر)، وبينما كان وزيرًا أعظم للمرة الثانية، استشهد عندما ثار الجند سنة 1041 (1631/ 1632)، وامتاز عن الوزراء الآخرين بكونه شاعرًا وكاتبًا.

حملة جهنم السوداء

لما خرج الربان (خليل باشا) إلى البحر الأبيض المتوسط بالأسطول سنة 1018هـ (1609/ 1610) ووصل إلى سيلفري؛ جاءت سفينة (جعفر الجنوي) من ربابنة (الجزائر). وأخبر أن حاكم جيجلية من أقارب ملك (أسبانيا) قد أرسل ابنه إلى الملك في سفينة حربية بهدايا مختلفة في حماية 500 جنديًّا من الكفار؛ فصادفتها السفن الجزائرية. وبعد معركة عظيمة استولى الجزائريون على تلك السفينة، وقسموا ما فيها من الأموال فيما بينهم، وأسروا ابن الحاكم، وأرسلوه إلى (استانبول) وقد فرح الربان، وعد هذا الخبر فألًا حسنًا، وألبس الخلع لجعفر ومن معه. ولما وصل إلى جزيرة سافيز تلقى أخبارًا بأن أربعًا من سفن الأعداء مثل الجبال التي كانت تقطع طريق (مصر)، وتنتظر السفن الذاهبة إلى (مصر) بجوار (قبرص). وبينما كانوا متجهين إلى تلك الجهة متوكلين على الله، وجدوا في (أكلي قارا) فرقاطتين للبحارة، وأخذوهما معًا. ووضعوا مَن داخلهما في المجاديف. ولما وصلو إلى (باف) أمام (قبرص) عرفوا أن هذه السفن خرجت إلى متسع البحر، وأنها تقوم بالغارات من حين لآخر وتوقع الخسائر. فخرجوا من أول الليل وتتبعوا هذه السفن بكل سرعة، ورأوها صباحًا من مسافة ثلاثين ميلًا، فأسرعوا خلفها بالشراع والمجاديف، وأدركوها في وقت العصر. وقاموا حتى المساء بإطلاق المدافع عليها، ولمَّا حل الليل أوقد الكفار المصابيح والفوانيس، وساروا دون خوف فوجدوا أنهم أربعُ سفن حربية مثل الجبال اشتهرت إحداها بـ(جهنم السوداء)، وهي سفينة مليئة، قوية مثل قلعة. فتعقبها الباشا بهمة، وفي الصباح بدأت المعركة من جهتين، ولما أراد الباشا أن يواجهها بالأسطول؛ لم يرض بذلك البحار الشهير مراد الذي أحضره السلطان أحمد من الجزائر، وأعطى له محافظة المورا، لم يرض بسير السفن متوازية بعضها ببعض، ومعها سفينة القيادة، وقال

يجب ضربها من بعيد. وفعلًا، أطلق عليها النيران من بعيد، وبعدما حطم أعمدتها وأشرعتها وضعفت؛ سمحَ للسفن بالهجوم عليها، وساروا نحوها في وقت الظهيرة، واستولوا عليها. وكانت ثلاث سفن وكان في داخلها ما يقرب من خمسمائة مقاتلًا من الكفار، ومائة وستون مدفعًا وألفًا بندقية، وساقوا السفن ووصلوا سالمين إلى ميناء (ماغوسا). وهناك توفي مراد، وقد تجاوز الثمانين من عمره - رحمة الله عليه.

وبلغ الخبر إلى (استانبول)، ومرّوا بصيدا وطرابلس الشام دون أن يتلاقوا بسفن الأعداء، فرجعوا. وبينما كانوا في (مييس) اصطدمت إحدى السفن الثلاثة المأسورة بالصخور، وغرقت. أما السفينتان الأخرتان وصلتا سليمتين إلى باب الدولة، وهما مليئتان بالغنائم. وفي يوم اجتماع الديوان السلطاني، قدمت الغنائم هدية، وحازت القبول، وكوفئ الربان بمنصب الوزارة.

وخرج إلى البحر مرة أخرى في 1019هـ (1611/ 1610م) بالأسطول، ورجع إلى باب الدولة مرة أخرى، وقد استولى على نحو ستٍّ قطع بحرية ومائة أسير. وفي سنة 1020هـ (1612/ 1611م)، استولى أيضًا على عدة سفن، ومائة أسير. وفي خلال قيامه بمهمة الربان - أي في ثلاث سنوات - استولى على خمسين سفينة صغيرة وكبيرة.

حملة محمد باشا

لما جاء هذا الباشا من مصر، وكان صهر السلطان، أعطى له منصب الربان، وخرج بالأسطول إلى البحر الأبيض المتوسط في سنة 1020هـ (1612/ 1611م) وذهب إلى سواحل (صيدا) وبيروت، وأخذ الضرائب التي في ذمة (ابن معن)، وحملها إلى (استانبول) تحت حراسته.

وخرج مرة أخرى إلى البحر في سنة 1022هـ (1614/ 1613م)، ولما جاء من (آغريبوز) إلى رودس انفصل ليوصل سفن القوافل المصرية إلى (الإسكندرية) بعشر سفن حربية.

ووصلت السفن إلى (مصر)، وحُملت بالبارود والسكر والذخيرة والمهمات الأخرى، ورجعت السفن وتلاقت مع الأسطول في جزيرة ميس، وأراد الباشا أن يفرغ حمولة هذه السفن في جزيرة ساقيز، وكلف بهذه المهمة والي (رودس) الربان (سنان).

ولما كان قد سمع أن هناك بعض السفن الحربية للأعداء ذهب ليبحث عنها. وكانت اثنتا عشرة سفينة حربية للأعداء، قد أتت من (مسنه) وتنتظر على (رأس تكير). بينما كانت السفن المحملة سائرة غافلة تعرضت لسفن الأعداء بالقرب من جزيرة صوسام. ولما كان الساحل قريبًا؛ فقد نزل المقاتلون إلى البر، كما أن علي جبلي بن محي باشا وابن برويزيك كانا يفتحان الأبواب للجدافين، ويتركونهم فوق الرمال على الساحل. ولما كانت ثلاث قطع من السفن في الخلف تنجو هاربة. وبعدما استولى كفار (أسبانيا) على سبع قطع بحرية؛ رجع الباشا الربان بالأسطول إلى استانبول ليعزل من عمله، ويعطي منصب الربان للمرة الثانية إلى (خليل باشا).

العظة من القصة

ليس من الصواب أن تسير مجموعة من السفن في البحر غافلة دون حراسة، ولا يجب أن يكون جدافو السفن من المأسورين فقط، بل يلزم أن يكون الأتراك أكثرية. وكان هؤلاء الجدافون سببًا في هذا النوع من الأضرار في كثير من الأماكن.

حملة مالطة

توجه الربان (خليل باشا) في الثالث من ربيع الأول 1023هـ (الموافق 13 مايو 1614م) بخمس وأربعين سفينة حربية إلى البحر الأبيض المتوسط، وانضم معه صوسام بك ومحي بك والآخرون بعشرين سفينة حربية، وزيَّتوا السفن في (واوارين)، واقتحموا البحر في 21 جمادى الأولى (الموافق 29 يونيو 1614م)، ومروا من أمام (مسنيه)، ووصلوا بالقرب من جزيرة (مالطة) في اليوم الثامن والعشرين في (6 مايو 1614)، وخرج من كل سفينة عدة رجال وأخذوا ينهبون القرى. وقد أقيم على كل ميل برجٌ، فتخابر الأعداء الذين في داخل الأبراج بواسطة الدخان.

خرج جنود الأعداء المشاة والفرسان في لحظة واحدة. ودارت المعركة حتى وقت الظهر، فقبض على عدد لا بأس به من الأسرى، وقُتل أحد حكام مالطة، وكثيرون من أبناء البكوات. ولما كان موسم الحصاد، فقد أحرقت محاصيلهم الرئيسية مثل الكمون والينسون، وقطعت مزارعهم وأشجار بساتينهم. وبعد الظهر، اقترب من الدير القريب من الحصن، ولم يخرج الباشا الربان؛ عملًا بتوصية محي بك، وخرجت الإنكشارية من

جهة، وجنود المرتزقة من جهة أخرى، وحملوا على الدير، ولكن الحصن كان مجهزًا بالمدافع التي تصل قنابلها إلى الدير. فلما أطلقوا هذه المدافع، أمكن المكوث في هذه الأماكن فانسجت السفن، وظل بعض الأشخاص في البر، وما أمكن معرفة آبار الجزيرة. وأطلقت المدافع التي في مقدمة السفن حتى بعدت السفن بعيدة في البحر، ووصل إلى طرابلس الغرب في الثاني من جمادى الآخر (الموافق 16 يوليو 1614م).

وأحضر الباشا بحيلة اللص المعروف باسم (صقر طائع)، الذي كان يناصر حاكم تلك البلاد وينشر الفساد فيها، وقيده بالحديد. ولكن رجاله أغلقوا الأبواب، وأخذوا يدافعون عن أنفسهم، وقد أعطي لهم الأمانُ عند توسط بعض المشايخ. وخرج الباشا الربان من القلعة وعقد اجتماعًا، وحكم بإعدام هذا الرجل بعدما أخذت آراء الأهالي؛ فصلب على جدار القلعة. ولما وصلوا إلى (آوارين) مغادرين طرابلس الغرب في العاشر من الشهر (8 يوليو). جاءت السفن التي أرسلت للتجسس، وقد استولى رجالها على سفينة حربية محملة بالقمح، وكان في داخلها اثنتا عشرة ألف كيلة من القمح.

تهديد كفار مانيه

بينما كان سكان (مانيه) في سواحل (الموره) من الروم، وأصروا على ألا ينفصلوا على البنادقة ورفضوا إعطاء الخراج؛ أرسل ضدهم جنودًا وراء جنود. وفي هذه المرة، أرسل ضدهم من البر (أرسلان باشا) الذي كان تحت يده (ترحاله)، كما ذهب الأسطول من البحر، وتلاقى الكل في (باسول)، وخرج الجنود من السفن، وحملوا على عصاة (مانيه)، وقبضوا على كثيرين منهم، وقتلوا بعضهم، ونفوا الآخرين، وبقي الآخرون على ألا يقوموا بعد ذلك بمثل هذه الأعمال الاستفزازية. وبينما كانت السفن تزيت في (أوارين) في أواخر رجب (أوائل أكتوبر)، جاء بك الإسكندرية (سنجوان أوغلو)، وبك دمياط و(محيى بك) من استانبول، وقد ألبسوا الخلع والسيوف فأرسلوا لحراسة جزيرة (براق) على مسافة بضعة أميال. وكانت بالقرب من الجزيرة السفن الحربية للأعداء التي كانت ترى السفن القادمة، وهي لا ترى سفن الأعداء فهجم الأعداء عليها، فاستشهد (محي بك)، ونجا (سنجوان أوغلو) بطريقة ما، فأخذ الكفار السفينتين وساقوهما، بينما ظل الأسطول ناظرًا خلفهما بعد وجود السفن؛ لأن جميع السفن كانت تحت التزييت، ولما كان قد اقترب الخريف؛ رجعت السفن، ودخلت في الترسانة في 25 شوال (الموافق 28 سبتمبر 1614م).

العظة من القصة

وهي يجب على كل من يذهب للحراسة أن يكون منتبهًا، ولا يغفل؛ لأن الجيش والأسطول قد تعرضا لخسائر عظيمة بسبب هذه الغفلة؛ لأن الإهمال غير جائز في مثل هذه الظروف، ويجب أن تزيَّت السفن على قسمين، ويجب أن تكون سفن الرياسة على استعداد حتى تستطيع الخروج إلى الحراسة وقت اللزوم. كما سيرى ذلك في التوصيات للبحارة.

حملة علي باشا

أصبح علي باشا وزيرًا وربانًا؛ لأنه ساعد في بناء الجامع الجديد، وخرج في عام 1026 (1617م) بالأسطول إلى البحر الأبيض المتوسط، ولما أراد أن يذهب إلى ساحل الكفار في (آوارين)؛ لم يهتم بالسفن القديمة، وسار قائلًا: إنني رجل ولدت في داخل سفينة حربية. وبينما كان سائرًا في متسع البحر في أواسط شعبان المعظم (أواخر سبتمبر 1614)، هبت عاصفة وريح شديدة؛ شتَّتت السفن وخمسًا من السفن الحاملة للذخائر، وسفينتين من سفن الإنكشارية، وخمسًا من السفن الاحتياطية، واستقرت في قاع البحر، ولم ينج من السبع سفن شخصٌ واحد. واستطاع أن يركب بضعة أشخاص من السفينتين الأخرتين القوارب.

وكانت هناك سفينة حربية ثقيلة تحمل الجنود الإنكشارية، تقدمت الأسطول مع سفينتين احتياطيتين، ووصلت إلى (طرابلس الغرب). وثُقبت السفينة الحربية الثقيلة في الطريق، ولكن الثقب قد سُدّ بواسطة أسير أفرنكي ماهر بشرط أن ينال حريته، واستطاع حاكم طرابلس (ابن سويدان) أن يمد الأسطول بكل ما يلزمه، وأن يصلحه حتى أصبح قادرًا على السير، وذلك في خلال خمسة وعشرين يومًا، واتجهوا ناحية بلاد الروم، ووصلوا إلى (موتون) في ثلاثة أيام. والتصق عندئذ الربان بشاطئ (قالافري) وأراد أن يفرق السفن الضعيفة إلا أن المجرمين من الناس حالوا دون ذلك. وقال: فلنَجُرّها إذا كان لابد، وإن تغرق، فلتغرق في الطريق. واستطاعت أن تصل هذه السفن إلى (أوارين) و(موتون وقورون)، وكذلك السفينة الحربية الثقيلة. وهناك أقاموا الأفراح احتفاءً بهذا الأمر. وكان عدد السفن الغارقة إحدى عشرة سفينة، ولما كان موسم الإبحار قد انقضى؛ فقد رجعوا إلى الترسانة في ذي القعدة (ديسمبر) واعتلى العرش سلطان جديد، وبعدما أصبح داود باشا ربانًا؛ ترك ذلك الباشا في مكانه.

العظة من القصة

إنه من الخطأ الخروج بالسفن الضعيفة القديمة إلى البحر تعاظمًا وتكبرًا. ويجب أن يقتحم أعالي البحار بسفن قوية ومتينة؛ لأنه عند هبوب العواصف والزوابع، تتعرض السفن البالية والضعيفة للغرق.

حملة علي باشا الثانية

خرج (علي باشا) في 1027 (1617/ 1618) بالأسطول إلى السواحل العربية، وبعدما مضى من جزيرة ساقيز إلى (أتينا) أخذوا سفينتين، وعرف أن ستًّا وأربعين من سفن الأعداء كانت راسية في جزيرة (قار غاجق)، وقد عرفت بخروج الأسطول العثماني، وهربت من الجزيرة، وانطلقت نحو (كفالونيا).

وذهب الأسطول العثماني إلى الخليج، ولم يتلق أي خبر عن هذه السفن، وعاد وخرج الأسطول العثماني مرة أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط في سنة 1028هـ (1619/ 1618)، واستطاع أن يستولي على ستِّ سفن. وجاء بكثير من الهدايا إلى الديوان السلطاني، وقدمها على أنها غنائم. ودعي سفير (البندقية) من قِبَل الدولة العثمانية بتحريض صهر الوزير الأعظم (محمد باشا)، وقال: إن نصف هذه الأموال المقدمة للسلطان لم يؤخذ منا، وأن السفن ليست سفنًا حربية ولكنها أهلية، ولكن هذا القول لم ينفع. واستطاع الربان أن يتغلب، وأصبح وزيرًا أعظم بعد فترة قصيرة، وأرسل الوزير الأعظم القديم إلى حلب، ومات (محمد باشا) في 1029 (1620/ 1619م) و(علي باشا) في 1013هـ (1622/ 1621م) – ليرحمهما الله سبحانه.

ظهور القازاق في البحر الأسود لأول مرة

كان (قازاق دون) (قازاق أوزي) يقومون في الماضي بالإغارة على سواحل نهر الدانوب والبحر الأسود. وأصبحوا من فترة قصيرة يغيرون على سواحل الأناضول بإرشاد المرتدين، الذين هربوا من البلاد الإسلامية، وجاءوا في سنة 1023 (1615/ 1614) إلى قلعة (سينوب)، ودخلوا فيها فجأة. وأحدثوا خسائر عظيمة فيها، ودخل (إبراهيم باشا) بستين سفينة حربية تحت قيادته إلى البر، وأخذ يترقبهم بعدما علم بالأمر.

ولكن القازاق عرفوا ذلك، ونزلوا على الساحل، وحاولوا أن يمرروا سفنهم محمّلين تلك السفن فوق زلاقات إلى أعالي النهر. ولكنهم تعرضوا لهجمات طائفة (التتار)، الذين حاربوهم بشدة؛ فأُخذ منهم الأطفال الذين أخذوهم من (سينوب)، وقُتل كثيرون منهم. ولحقهم إبراهيم فقتل بعضهم وأسر الآخرين. وساقوا عشرين من هؤلاء القازاق إلى الديوان في أوائل رمضان الشريف (أوائل أكتوبر 1614م).

حملة محمود باشا

أصبح جاغالا أوغلو باشا في 1025 (1616) قائمقامًا، ربانَ البحر الأسود، وخرج في البحر بعدة سفن حربية، وصادف (القازاق) في ناحية (وارنا) لما كانت سفنهم على الشاطئ، فأرسى سفنه أيضًا على الساحل. إلا أن ستًّا من سفنه جنحت لضحالة المياه، ولم يجدوا وسيلة لإنقاذها. وفي النهاية، تركت في البحر واستولى عليها الكفار.

العظة من القصة

هي أن السفن الحربية يجب ألا تذهب إلى الأماكن الخطرة، ولا سيما في وقت الحرب.

حملة مافردونيا

خرج (خليل باشا) إلى البحر في سنة 1029 صيفًا (أبريل 1620)، وبعد تزييت السفن في (أوارين) استولى على سفينتين محملتين بالقمح في ميناءي (ديراج) (وفرقته)، وهجم تحت إرشاد الرؤساء على ساحل الكفار من (ديراج)، واقترب في الصباح من (مافردونيا)، وأنزل الجنود بالقرب من المنحدر، ولما كان رجال القلعة غافلين، هجموا وأخذوا القلعة الخارجية في ذلك اليوم. وفي اليوم الثالث، استولى على الحصن الداخلي، ونهب كل ما في الحصن من الأموال والمؤن.

ثم أحرقت منازلهم، وأخذ الكثيرون أسرى، ورجع إلى باب الدولة. وقد وجد في هذا الحصن ألفَ برميل من البارود الجيد، وأُخذَ إلى حملة (خوتن) حيث استخدم.

الحملة لإقامة جسر على نهر الدانوب

أمر الربان (خليل باشا) في سنة 1030 (1620/ 1621) بالذهاب إلى البحر الأسود، وخرج السلطان (عثمان خان) عن طريق البر إلى حملة (خوتن)؛ ليؤدب طوائف (القازاق) و(البولنديين). وفي الثامن من جمادى الآخرة (الموافق 30 أبريل

1612م) قام الربان من (بشكطاش) بثلاث وأربعين قطعة حربية، ووصل في 14 رجب (الموافق 25 مايو 1612) إلى جانب قلعة كيلي. وأرسل السلطان الذي نال مراده من جورلو (محمد آغا طوزقوباران) بفرمانه السلطاني فحواه أن يهتم بجمع سبع عشرة قطعة حربية في جهة (قاراجرمان)، فأرسل إلى تلك الجهة (محمد باشا) بخمس عشرة سفينة حربية، وأخذ يتجول في تلك الجهة ستة عشر يومًا، فلم يجد شيئًا، ورجع إلى (كيلي)، وانضم إلى الجيش. ولما عرف أن تلك السفن قد ذهبت إلى نواحي (كريس وكفة)، أُرسل (محمد باشا) مرة أخرى بثمانِ عشرة قطعة حربية إلى (كفة)، وحتى يحمي مضيق (أوزي)؛ جعل الربان (بالي) قائدًا لسفن (كيلي) و(أفكرمان). كما أنه أسرع بنفسه هناك مع (محمد أغا) من موظفي القصر. ولما شاع أن أربعين من السفن الحربية ذهبت ناحية سواحل الأناضول؛ خرج الربان من مضيق (كيلي) في 27 رجب (الموافق 17 يونيو 1612م)، وعبر البحر في أربع أو خمس ليال، ووصل إلى (سينوب) في أوائل شعبان (أوائل يونيو 1612م). وبعدما استراح فترة ساعتين، جاءت الأخبار بأن تسع سفن راسية غافلة في ميناء (جرزه).

ولما نالوا آمالهم بصعوبة، أرادوا أن يخرجوا من الميناء، إلا أنهم امتنعوا عن ذلك، قائلين: (لا يصحّ أن نخرج من الميناء في وقت متأخر). وعند بزوغ الفجر، انقسم الأسطول إلى قسمين: ذهب قسم منهما من البحر، والآخر من الساحل. وعندما حل المساء تقابلا، وباتا في مكان يسمّى (قوم). وفي الغد، وجدوا أن سفن العدو قد خرجت إلى البحر ورجعوا. ووجدوا في الطريق سفينة فارغة خالية من الناس تركها أصحابها خوفًا من (القازاق)، فجرّوها خلفهم وسلموها لأصحابها. وتجولوا في تلك السواحل خمسة عشرة يومًا، ولم يجدوا أي أثر لسفن الأعداء؛ لذا أتوا إلى مضيق (كيلي) مرة أخرى في التاسع من شعبان (الموافق 9 يوليو 1612م). وكان الربان (بالي) قد أرسل من قبل إلى مضيق أوزي. وقد اتحد (القازاق (البولنديين) و(قازاق (دون)، واجتمعوا في (ميسيوري) ومعهم ستون سفينة. وذهبوا إلى مرفأ (احيولي) وأحرقوه ونهبوه. وبينما كانوا راجعين هبت عاصفة شديدة؛ فافترقوا. وغرقت تسع عشرة قطعة من سفنهم في البحر. ولما كانت الباقية تمر من مضيق (أوزي) تقابلوا مع الربان (بالي) وحاربوه. ولما وصل الخبر بأن حاكم (أوزي) محمود قد لحق بالربان، واستولى على إحدى وعشرين

سفينة من سفنهم؛ أرسل نائبه (أحمد أغا) بستِّ سفن حربية إلى هناك، ولما كانوا نائمين في (كيلي) في خمسة وعشرين من شعبان (الموافق 9 يوليو 1612م)، وصل الربان (بالي) و(محمود بك) ونائب الربان، ومعهم ما أخذوه من القازاق من إحدى وعشرين سفينة، وأكثر من مائتين أسير وثلاثمائة من الرءوس.

ولما عرف أن السلطان قد وصل إلى (إيساقجي) بعد أن احتفل به احتفالًا عظيمًا في الطريق، خرج إلى الطريق ووصل إلى (إيساقجي) في الخامس من رمضان (الموافق 24 يوليو 1612م)، وعرضت السفن والأسرى على السلطان، فقتل الملاعنة بعد تعذيبهم، فلقوا جزاءهم.

انهزم القازاق في معركة تامان

بينما كان (محمد باشا) الذي أُرسل من قبل بثمان عشرة قطعة بحرية إلى إقليم (كفه)؛ سائرًا نحو (كرش) و(تامان) صادف - في مكان ما - القازاق الملاعنة قد فقدوا سفنهم؛ إثر هبوب رياح معاكسة، فاستولوا على سفينتين كبيرتين مسلمتين، وكانوا نائمين غافلين في داخل السفينتين، فحمل عليهم المجاهدون. وقامت معركة شديدة دامت أربع أو خمس ساعات، فَهَزموا بمعونة الله - سبحانه وتعالى. فقبض على مائتين واثنين وتسعين أسيرًا، وأصبح المائتان لقمة سائغة للسيوف، فأخذوا رءوسهم وأتوا إلى (إيساقجي)، وانضموا إلى الأسطول السلطاني، فعرضوا الأسرى والرءوس على السلطان، وقُتل جميع الأسرى، وأُلبس المجاهدون الخلع. وظل الباشا الربان في (إيساقجي) لإنشاء الجسر. وأمر ببناء قلعة حربية؛ فأرسل قائد الربان القازاق من مضيق (أوزي) بأربعين قطعة حربية، فأرسل القائد الربان (عبدي باشا) حاكم الموره بعشر قطع لمقابلتهم.

فعبروا في الثامن والعشرين من شوال (الموافق 15 سبتمبر 1612م) مضايق (كيلي) و(أم كرمان)، وعرفوا في (أوزي) أن هذه السفن راسية في جزيرة (تنترة). ولما حمل عليهم من (رأس قيل) تمسك الكفار بساحل الجزيرة، وأطلقوا مدافعهم على سفن (ماريول حسن بك)، وأوهنوا سفنه. ولما كان الساحل ضحلًا، لم يستطيعوا أن يهاجموه. وفي الليل، هرب الملاعنة، ورجع (عبدي باشا) في اليوم السابع إلى

الأسطول. وفي حملة العودة، قام الربان باشا في اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة (الموافق 8 نوفمبر 1612م) في الخريف، وبات في مضيق (سوليا)، ثم غادره في اليوم الثاني وقد نصحه الرؤساء المجربون بالاحتراس من عواصف الخريف، فلم يستمع إليهم.

وبينما كان خارجًا من مضيق سولونيه، رأى أن السفن الرئيسية الثلاث الكبرى إحداها سفينة الربان باله، والثانية سفينة خادم رجب أغا، والثالثة سفينة أمين الترسانة. فجنحت كلها بمن فيها من الإنكشارية والذخائر، ومن كانوا في داخلها نزلوا في البحر، وتحطمت السفن ونجا من عليها، وخرجوا إلى البر. وكانت الرياح المعاكسة هي التي سببت ذلك، واستطاعت السفن التي تسلق بالجدافين أن تنجوا بصعوبة، وتفرقت ثلاثة أقسام، وأصبح بعضها أمام الرياح، فتأخرت وذهب الباشا الربان، ووصل من (وارنه) إلى استانبول، ودخل الترسانة العامرة، ووصل جنود الإنكشارية بعد عشرين يومًا.

العظة من القصة

هي أنه يجب في أزمنة الرياح الشديدة والعواصف، الأخذ بآراء العالمين بأحوال الرياح، والمجربين في أمور قيام الأسطول أو بقائه، وإلا فالندم محقق.

وصول (القازاق) إلى يني كوي

وصل الربان (رجب باشا) بالأسطول إلى كفه في سنة 1033 (1624/ 1623) لإعلاء (جانبك كيراي) على العرش، ولما كان سكان (القرم التتار) بجانب (محمد كيراي)، انهزم جنود الأسطول في البر، ثم حدث صلح وعاد الأسطول. ولما رأى (القازاق) البحر خاليًا من الأسطول، الذي كان في (كفه) أتوا إلى حصن المضيق بمائة وخمسين قطعة بحرية، فنهبوا (يني كوي)، وذلك في الرابع من شوال (الموافق 20 يوليو 1624م)، وأحرقوا بعض الحوانيت. فقام العاملون بالحدائق والبساتين ورئيس الصيادين مع أتباعه، وركبوا القوارب وهجموا عليهم، فلم يمكث أشقياء (القازاق) لحظة فركبوا سفنهم وهربوا. ولم يحدث بعد ذلك أن قاموا بمثل هذه الحركات الاستفزازية.

هزيمة القازاق في معركة (قارا خرمان)

خرج الربان (رجب باشا) في أواخر 1034هـ (1625م) بثلاث وأربعين قطعة حربية إلى البحر الأسود، ولما وصل إلى (رأس قيل) في (أوزي)؛ سأل أهاليها عن أوضاع سفن القازاق البحرية.

قيل له إن سفنًا حربية قازاقية تطوف في تلك السواحل، وعددها يزيد عن ثلاثمائة سفينة، ثم عرف أنها اتجهت نحو (طرابزون). وبعدما تشاوروا فيما بينهم، قرروا الاتجاه نحو (طرابزون). إن هنا طريقهم، هذا ما قاله أهالي (أوزي)، فالأفضل أن تنتظروها هنا، ولكنكم لا ترسوا في السواحل وكونوا جاهزين في البحر. وظلوا ما يقرب من شهر ونصف يأتون بالسفن أمام (أوزي)، ويبتعدون عنه سبعة أو ثمانية كيلو مترات ليلًا في المضيق. وبينما كان الأسطول في الخارج قام (القازاق) بمحاولة الدخول في مضيق استانبول؛ لذا قرروا الخروج إلى شواطئ (الروم إيلي)، بينما كانت سفن (القازاق) سائرة في وسط البحر. وعلى بعد سبعة أميال أو ثمانية، صاح المراقب الذي على عمود الربان: إحدى وعشرون سفينة حربية من ثلاث وأربعين سفينة، وأما الباقية فقد وهَنَ جدّافوها، وظلوا في الخلف لعدم وجود الرياح المواتية. ولما رأى الملاعنة أن السفن متفرقة والرياح غير مواتية؛ انتهزوا الفرصة وسارت سفنهم حتى تهجم. إذ كانت سفن العدو التي تسير بالمجاديف تستطيع أن تواجه سفينة واحدة من سفن الأتراك التي تسير بالأشرعة. وأما في المناطق المجاورة ذات الرياح المواتية، فكانت سفينة شراعية واحدة تستطيع أن تقاوم مائة سفينة للأعداء. وكانت تسعٌ من السفن التركية تحمل جنود الإنكشارية، واغتر العدو وأحاطوا كل سفينة حربية تركية بثلاثين أو أربعين من سفنهم، وعلى متن كل واحدة منها خمسون جنديًّا من حاملي البنادق، فهجم الأعداء، ولما كان بكل سفينة رئيس خاص بها فقد هجمت بدون أن تنتظر السفن الأخرى، فقاتل جنود الترك - وقد يئسوا من حياتهم - قتالًا عنيفًا حتى أعجب بهم الملائكة في السماء وصفقوا لهم. وذهلوا من عنف هذه المعركة.

وقد أزيلت الفوانيس الثلاثة التي تميز سفينة الربان الرئيسية وهجم الأعداء عليها من رأسها وجوانبها. وكانت في خلف السفينة السياج؛ حيث كثيرون من جنود حاملي

البنادق، لأجل ذلك لما دخل جنود الكفار، ما يقرب من مائتين قد قتلوا قبل أن يصلوا إلى العمود الرئيسي في الوسط.

وسدت جثث الأعداء الطريق. ولما كان جميع الجدافين من الأسرى؛ فقد امتنعوا عن التجديف وظنت السفن الأخرى أن سفينة الربان قد انسحبت دون قتال. وقتلوا من فيها من الكفار، ثم أداروا سفنهم على كلتا الجهتين بعنف، وأغرقوا سفن الأعداء. كما أن سفينة نائب الربان أوشكت على العجز عن القتال، كما اشتد العدو في الهجوم على سفينة بياله باشا الطويلة فتفوقت عليهم؛ بعون الله تعالى.

لأجل ذلك منح له رجب باشا في ميناء (كلفرا) لقب نائب الربان. كما أن سفينة (محمود أفندي) الكاتب كانت تحت قيادة الربان (عبدي). فقاتل جنودها الإنكشارية بشدة وقوة، كما أن سفينة (آغا جاني عالم زادة) كانت كثيرة الجنود وسفينة سريعة الحركات، وقامت على متنها معارك لا مثيل لها، ولم تكن سفينة تستطيع أن تساعد سفينة أخرى، فأصبحوا عاجزين، وكاد الأعداء أن يتفرقوا. وفجأة، هبت الرياح – بفضل الله – فانتفخت أشرعة السفن التركية بالرياح، وكأنها بعثت من جديد، وديس على هؤلاء الكفار الذين اعتمدوا على أنفسهم، واغتروا بقوة الرياح، إذ أغرقت السفن التركية سفن الأعداء. وغرق أكثر الكفار، والباقي تشتتوا فوق البحر. وضجت السماء بصرخات الأعداء، واحمرت مياه البحر بدماء القتلى.

وخلاصة القول إن خمسين فقط من 350 سفينة للأعداء، استطاعت أن تهرب، وأن ينجو مَن عليها، وغرق أكثر الباقي. وكان جنود الأعداء يقاتلون في داخل البحر، وقد وصلت المياه إلى حلاقيمهم في داخل سفنهم. ومرَّ الوقت من الصباح إلى العصر، ولم يستطع القضاء على مقاومة سبعين سفينة للعدو. وبالقرب من المساء، كانت سفن الأعداء قد أصبحت عاجزة عن القتال. وقال الذين قضوا حياتهم فوق البحر مقاتلين: (إن معركة قازاق هذه تفوق جميع معاركهم الأخرى، وقضيت تلك الليلة هناك. وفي اليوم التالي، سجل في الدفاتر مائة وسبعين سفينة حربية للأعداء ما عدا الغارقة، وسبعمائة وثمانين جنديًّا أسيرًا.

ولا يحصى عدد القتلى والمجروحين. ولم يحدث مثل هذا الفتح في البحر الأسود. ولما وصلوا إلى (بالجيق) هبت رياح معاكسة؛ فتحطمت أربع سفن. فساروا بالباقي حتى

وصلوا إلى الترسانة العامرة في صفر 1035هـ (الموافق نوفمبر 1625م)، وأما السفن الحربية والأسرى فقد تم عرضهم على السلطان؛ فألبس الأبطال الخلع، وكافأ كلَّ واحد منهم حسب رتبته.

حملة جعفر باشا

خرج الربان (جعفر باشا) بالأسطول إلى البحر الأبيض المتوسط في أوائل 1043 (1634/ 1633)، ورأى أمام (كسنديرة) ثلاث سفن مقاتلة للأعداء. وهجم على واحدة منها بنفسه، وهجم على الأخرى نائب الربان (بياله باشا)، وكان على وشك تعطيلها. وقد يئس الكفار الذين في داخلها من النجاة، وأحرقوا سفينتهم، ولما كانت السفينة الرئيسية قد اصطدمت بسفينة الأعداء المحترقة، ولم يقدر لها النجاة فاحترقت فيها، واستطاع الربان أن ينجوا بصعوبة راكبًا قاربًا ومغيرًا شكله.

العظة من القصة

إن هجوم الربابنة بسفنهم الخاصة على الأعداء أمرٌ مخيف، بل يجب عليهم أن يقفوا بعيدًا، ويرسلوا السفن الأخرى.

حملة مصطفى باشا

خرج الربان (مصطفى باشا) في 1046 (1637/ 1636م) إلى البحر بالأسطول. ولما وصل إلى جزيرة كربة سمع بوجود سفينتين حربيتين. ولما نظر من قمة عالية في الجزيرة، رأى دخانًا من بعيد، فسار نحو تلك الجهة. وأدرك السفينتيْن قرب المساء، ولما اجتمعت سفن الأسطول قرب منتصف الليل وهبت الرياح؛ هربت السفينتان، فتعقبوهما بعد صلاة الفجر، فأدركوهما في عرض البحر. واقترب منها نائب القائد، وكانت السفن الأخرى متأخرة. وكل واحدة من السفينتين تعرضت لإحدى السفينتين، وأطلقت عليهما القنابل، واستولت عليهما.

وخرج من كل واحدة منها ما يقرب من مائة كافر، فأُسروا ووزعوا على السفن. وبعد ذلك، ذهبوا إلى (قبرص)، وزيَّتوا السفن في (أغريبوز)، وحرسوا البحار إلى القرب من الخريف، ثم أتوا إلى الترسانة العامرة.

حملة نائب الربان (بيالة)

عندما ذهب السلطان (مراد خان) إلى حملة (بغداد) في 1048ه (1638 / 1639م)، كان قد أوصى نائب الربان (بيالة) بالحملة على أزاق بحرًا، وبناء على الفرمان العالي؛ خرج إلى البحر الأسود بأربعين قطعة حربية. ولما وصل إلى مكان يسمى ممر الخان عبر بهادر كراي خان وجنوده التتار إلى جزيرة تامان، فذهب الخان إلى جهة أزاق؛ لتفقد أحوال العدو. وعاد (بيالة) نائب الربان إلى (كرش)؛ لينتظر الأخبار من الخان. ولكن (القازاق) الذين أتوا إلى (الكرش) وتامان لنهبهما لما رأوا الأسطول السلطاني؛ هربوا في ثلاث وخمسين سفينة من سفنهم إلى أزاق، ولم يصدقوا أن الخان قد سار من البر، وظنوا أنه رجع مع الأسطول من البحر، ودخل في ثلاثين قطعة سفينة ما يقرب من ألف وسبعمائة من صفوة (القازاق).

وكان غرضهم أن يهاجموا (سينوب) وما حولها في الأناضول. وفي الرابع عشر من ربيع الأول سنة 1040هـ (الموافق 21 أكتوبر 1630م)، مرُّوا من أمام تامان، ووصلوا إلى مكان يسمى (رأس طوزلا). ولما عرف هذا الخبر سار ضدهم رأسًا. ولما رأى الكفار سفن الدولة العثمانية خرجوا إلى البر، ونظموا أنفسهم وسحبوا سفنهم على أماكن ضحلة، واستعدوا للقتال. ولما كان حاكم (كفة) يوسف باشا ذاهبًا إلى أزاق؛ مرَّ بطوابير (القازاق)، وهجم عليهم رأسًا. وأخذت سفن الأسطول تطلق المدافع عليهم وعلى سفنهم؛ لتشتيتها بمساعدة (يوسف باشا). كما أن نائب الربان (بيالة) أسر ما يقرب من أربعمائة أو خمسمائة من القناصة. وبعث المغيرين في قوارب الأسطول؛ فقتل أكثر من مائة من (القازاق). ولما حل المساء، ركب الباقون سفنهم وهربوا نحو (آزاق) من نفس الطريق الذي أتوا منه، فتعقبهم (بيالة). ولما كان الهجوم عليهم في رأس (جوكجا) هربوا إلى أماكن ضحلة. ولما كان وصول السفن الحربية هناك مستحيلًا؛ فقد قاموا بإغلاق مضايق تلك الأماكن الضحلة، وأطلقوا عليهم نيران المدافع، فحمل (بيالة) المدافع إلى البر، وطاردهم من مكان إلى آخر. وفي خلال يومين من القتال والعراك، قُتل أكثر من مائتي من (القازاق). وفي الليلة الثانية، هربوا من المياه الضحلة التي أمام تامان على أمل الخروج إلى بحر آزاق، والتجأوا إلى مضيق (أداهون) الذي نجوا فيه عدة مرات من الأسطول. فتعقبهم (بيالة) مرة أخرى، وأغلق عليهم المنافذ – التي قد يهربون منها – تمام الإغلاق. وأخرج إلى البر ما يقرب من ألفين

من جنود الإنكشارية وحاملي الذخائر وأصحاب المقاطعات، وأقام مستحكمات في ثلاثة أماكن. ولما رأى الملاعين ذلك؛ خاضوا في نهر (قوبان) الذي يجري في بلاد الشركس وخلف مضيق (أداهون) آملين في الوصول إلى بحر (أزاق)، ولكن الخان و(يوسف باشا)، كانا قد أغلقا الأماكن القريبة من (أداهون) و(تمروك).

ولما كان الكفار حاملين معهم في سفنهم الأغذية الكافية لمدة طويلة؛ لذلك تركوا استحكماتهم كما هي، ورجعوا إلى مضيق (كرش)، وسار بياله باشا بخمسة عشر من السفن الخفيفة وبأربعين قاربًا متوكلًا على الله. وهجم غزاة الإسلام على الملاعين مثل الأسود، وحارب الكفار تسع سفن كبيرة في المقدمة بشدة، ولكنهم هُزموا بعون الله. فهجم المجاهدون من جميع الجهات، وقذفوا الكفار في البحر، وأصبح أكثر من خمسمائة أسيرٍ لقمة سائغة للسيف.

وهرب بعضهم في داخل الجدول، وهجم (بيالة) عليهم مرة أخرى في الرابع من ربيع الآخر (الموافق 15 أغسطس 1638م) بسفن خفيفة، ووضع المدافع فوق القوارب، وحملها بالجنود. ولما عرف (القازاق) ذلك؛ ذهبوا إلى المضيق، الذي بجانب (تمروك)، ولكنهم لم يجدوا طريقًا فيه؛ فاختبأوا بين سيقان البوص والقصب في داخل الجدول. وأغلق (بيالة كتخدا) مصب الجدول بسفن خفيفة بإحكام، فسار من خلفهم ما يقرب من خمسين ميلًا، وعندئذ اضطر الكفار أن يخرجوا إلى البر، وخرجوا من مضيق (بشر). وفي اليوم الثامن من هذا الشهر، (الموافق 15 أغسطس 1638م)، استولى على 24 قطعة من سفنهم، أما (القازاق) الذين انتشروا على البر أُسر بعضهم وقتل الآخرون. ولم يجد واحدٌ من ألف وسبعمائة من القازاق طريقًا للنجاة، ورجع نائب الربان (بيالة) إلى استانبول بمائتين واثنين وخمسين أسيرًا، وتسع وعشرين سفينة للأعداء.

حملة (بيالة كتخدا)

كان الربان (سلاحدار مصطفى باشا) قد أحال حملة البحر الأسود في سنة 1049 (1639 / 1640م) إلى نائبه (بيالة)، وكان (بيالة) من قبل سافر بأمر السلطان إلى قلعة (أوزي)، وقام بجميع ما أمر به السلطان، وأصلح هذه القلعة ومدَّها بجميع لوازمها. ولما سمع أن هناك عدوًّا يقوم بالإغارة على السواحل الإسلامية بعشر قطع من سفنه؛ توجَّه

بعدة سفن حربية إلى تلك الجهات. وقابلها في جزيرة (تنتره)، واستولى على السفن العشر، وأرسل الأسرى الذين أخذوهم من البلاد الإسلامية - وأكثرهم من الأطفال والنساء - إلى بلادهم، وعاد إلى باب الدولة قبل الخريف.

حملة بياله باشا

خرج (بيالة كتخدا) إلى البحر الأبيض المتوسط في سنة 1052 (1642 / 1643م) بعد أن أصبح ربانًا برتبة والي (الجزائر). وذهب إلى ساحل الكفار، واستولى على سفينة حربية محملة بالخشب، ولما عاد إلى باب الدولة قتل بسبب افتراء خادمه ابن عمار عليه كذبًا في الخامس من المحرم 1053هـ (في 26 مارس 1643).

وكان الربان المذكور رجلًا شهيرًا وعالمًا بالأمور في مؤسسة الترسانة، وراح ضحية مؤامرة دنيئة، وقتل الشخص الذي تسبب في قتله.

القسم الثامن

يحكي حدوث حملة كريت وسببها

نفِيَ كبير رؤساء الحريم أغادير السعادة (سنبل أغا) إلى مصر سنة 1054هـ (1643 / 1644)، وكانت سفن الآلاي غائبة، ولكن سفينة الرئيس إبراهيم جلبي حضرت - وهي مصنوعة حديثًا - من البحر الأسود، فركب الأغا هذه السفينة بأمر سلطاني عالٍ، ووضع كل ما يملكه، وكل رجاله في السفينة، كما أن قاضي مكة المكرمة (محمد أفندي البرسوي). وكثيرٌ من الحجاج المسلمين ركبوا السفينة، ولم يكن الرئيس قادرًا على أن يسلِّح سفينته من الأول؛ لذا وضع عليها عدة مدافع فقط، وهكذا اضطر إلى أن ينزل إلى البحر بدون أسلحة ومدافع، وهي تحمل أشياءَ قيّمة. وشاع هذا الخبر، وكان قراصنة (مالطة) يتجولون بين الجزر بست سفن سائرة بالمجاديف، فذهبوا إلى جزيرة (كربة) - في طريق مصر - واختبأوا في مكان مناسب، ووصل الرئيس إبراهيم جلبي بالرياح المواتية إلى جزيرة (رودس).

وأخبر بعض المسافرين الرئيس بأن السفن المذكورة تنتظرهم في جزيرة (كربة)، وطلب أهالي (رودس) من ربان السفينة أن يبقى عدة أيام في (رودس)، فقال لهم إبراهيم رئيس: (إن تلك السفن سريعة ومهما سبقْتها تدركك، ولا يمكننا أن نحل المشكلة بالحرب). ولم يسمع النصيحة، وقال: لابد لنا من أن ندرك الحج. وخرج من (رودس) في يوم مشئوم. ولما وصل إلى جزيرة (كربة) ظهر قطاع الطرق كالمصيبة التي لا يمكن تلافيها، وأدركوا سفينة إبراهيم رئيس، فقاتل الأغا والملاحون برجولة واستبسال دون أن يتقاعسوا عن العراك؛ فاستشهد في القتال (أغا دار السعادة) إبراهيم رئيس. كما أن المقاتلين الآخرين حاربوا بالبنادق والمدافع، وقتلوا. ووقع الآخرون في يد هؤلاء القتلة الذين استولوا على السفينة، وأخذوا جميع ما فيها من أموال وخزائن لا تعد ولا تحصى، فساروا مبتهجين نحو (كريت). وكان حاكم كريت تابعًا للبندقية، ولكنه كان يتعايش من مثل هذه الأموال. وقدموا ما في السفينة من أموال وجياد عربية

هدية للحاكم المذكور ولغيره. وبعدما استراحوا عدة أيام في كريت، جرُّوا السفينة خلفهم واتجهوا نحو مالطة. وانخدع حاكم مالطة بالأموال دون أن يعمل حساب السلطان ويرعى حقه، قَبِل الهدايا نظرًا لسفالته. ولما رأى بعض القساوسة العجائز هذه الخيول؛ تكهنوا قائلين: (إن قوائم الجياد التركية قد داست على هذه الأراضي، وهذا دليل على أن هذه الجزيرة ستخرج من أيدينا. وقالوا ذلك للحاكم، كما أنه ندم على ما فعله فيما بعد، ولكنه لم يستطع أن يدرك وخَامَةَ نتيجة عمله وفقًا للمثل القائل: (إذا وقع القدر عمي البصر). وقد وصلت الأخبار إلى استانبول أيضًا، وشاع الخبر بين آغاوات القصر. وفي النهاية، وصلت إلى أذني السلطان؛ فغضب غضبًا شديدًا، وعزم على أخذ ثأر هؤلاء الشهداء، وأدى هذا الحادث إلى فتح الطريق إلى (كريت)، وتمخضت عنه حملات الأساطيل.

حملة يوسف باشا

صدر الأمر السلطاني إلى يوسف باشا بالحملة على البحر الأبيض المتوسط في 1054هـ (1644 / 1645م) بعد حادثة سفينة (أغا دار السعادة)، وبعثت الأوامر السلطانية إلى حكام الروملي، فحْواها أن يذهبوا في أوائل الصيف إلى حاكم (سلانيك)، وأن يلتزموا جانبه. كما بعثت الأوامر السلطانية إلى حكام الأناضول مثل حكام (قسطموني) و(صاروخان) و(تكه) و(أنقرة) ومحافظات (آيدين) و(قرامان) و(قير شهير) و(نيكده) و(آقسراي)، وإلى حكام (جوروم) و(آماسيا) و(بوز أوق) من سيواس؛ بأن يذهبوا إلى أمام جزيرة (ساقيز)، وأن يكونوا تحت إمرة قائدهم حاكم (آماسيا) أحمد باشا، وعلى حاكم (قارامان) (طوارق باشا) أن يحمل كل هؤلاء في سفينة، وأن يرسلهم. وكان قد أصبح ربانًا عندما خرج يوسف آغا السلاحدار – من خاصة السلطان في الحرم السلطاني – من وظيفته. والآن أصبح قائدًا لجيوش الأسطول، وأسندت (الروم ايلي) إلى حسن باشا الصغير وأرسل إلى (سلانيك)، وأصبح رئيس فرسان الإنكشارية قائمقامًا؛ بدلًا من مراد باشا، وأمر بالحملة. كما أن (موسى باشا) – أيضًا – أمر بالحملة حتى يكون (حسن باشا) والوزير أن من أصدقاء القائد معينين للقائد في الاستيلاء على البلاد. ثم اكتريت السفن، وأرسلت إلى (سلانيك) تسعون قطعة بحرية وستون أخرى إلى (جشمة)، وحملت خمسة عشر ألف قنطار من البارود وخمسين ألف قنبلة، وخمسين قطعة من المدافع والذخائر والأشياء اللازمة للاستيلاء على القلاع، وأرسلت أوامر الغزو

إلى الجزائر وتونس وطرابلس، وقرئت وأذيعت في هذه الأماكن. وبعدما جُهزت كل الأشياء اللازمة للحملة دعي الرؤساء والقواد - وبعدما أُلبسوا خلعًا - إلى ركوب السفن في الثاني من صفر سنة 1055 هـ (12 يناير 1654) في وقت العصر للخروج. وفي اليوم الرابع من ربيع الأول (30 يوليو 1654)، خرج الربان وقائد السفن الباشا العظيم بالأسطول السلطاني تحت اسم حملة (مالطة) واتجه للغزو. وتلاقى معه جنود الأناضول في جزيرة (ساقيز) وفي (ترميس) مع جنود (الروم إيلي). وفي أثناء الحملة تلاقت سفن القيادة بالقرب من جزيرة (جوقة) بسفينة من سفن البنادقة تحمل البارود والرصاص والقنابل إلى (كريت)، فاستولوا عليها. وعُد هذا فألًا حسنًا. ووصلوا في الثاني عشر من ربيع الآخر (7 يونيو 1654) إلى جنوب الجزيرة، ووصى باتخاذ الأهبة لحملة (مالطة). وهناك زيِّنت السفن ووصلت السفن التونسية والطرابلسية مع سفن حربية مختلفة، وأُلبس حكام المغرب الخلع. وهناك استراحوا ثلاثة عشر يومًا. وفي اليوم الخامس والعشرين من ذلك الشهر (20 يونيو 1654)، خرجوا من الميناء. وبينما كان الكل يفكر في اقتحام البحر؛ أخرج الأمر السلطاني وقريء للحكام والقادة، وأُعلِموا أن الحملة خاصة بكريت، وهكذا كشف السر واتضح الأمر؛ فاتجهوا إلى (رأس مانيا) قاصدين فتح (كريت)، وقضوا اليوم الثاني بجانب جزيرة (جوقا). وفي اليوم الذي يليه اقتربوا من سواحل (كريت)، وخرجوا إلى الساحل، ونهبوا بعض القرى، ودخلوا في اليوم الثاني بين (تودوري) و(كريت).

محاصرة (خانيا)

أُخرجت اللوازم من السفن، ووافقوا على محاصرة (خانيا)، وتوجهوا وقت المساء للمحاصرة. وفي اليوم التالي، أدركوا البرج ما بين صلاتي العصر والمغرب، وأطلق القائد سراح الأسرى كعلامة نصر وتدبير حسن. وأمرَ الجنود ألا يهدموا البيوت، وألا يقطعوا الأشجار. وبهذا سكتت مخاوف الأهالي.

فتح (آياتودوري)

وكان بالقرب من (كريت)، وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال منها، جزيرة مستديرة. وكان لها حصنان مبنيان على الصخور الجرداء على الساحل، وبينهما مسافة ميل. وكانا حارسي (كريت). فهجم غزاة الإسلام من البر والبحر، واستطاعوا أن يستولوا على

الحصن الأعلى في ظرف أربع ساعات. ودخل الكفار في الحصن الأسفل. وبالليل، خرج الأعداء من السفن ودخلوا في هذه الجزيرة بالزوارق، ولما حاصر المسلمون الحصن السفلي في 28 من ربيع الآخر (23 يونيو 1654) ألقى الكفار من جانب الباب بعض الألغام؛ فقتلوا من كان بجانبه من المسلمين، ثم هجم غزاة المسلمين، واستولوا على القلعة وقتلوا من فيها من الكفار، فرَسَا الأسطول في ميناء (آياتودوري)، ورجاله مطمئنون.

وبعدما قام القائد والجنود بإعداد الاستحكامات حاملين المدافع في اليوم التاسع والعشرين (24 يونيو)، دخلوا في الاستحكامات في الثالث من جمادى الأولى (27 يونيو 1645) ليلًا. ووقف حسن باشا حاكم (الروم إيلي) و(مراد أغا) بسبع قطع مدفعية أمام دار المدفعية. ووقف حكام ترجالا و(كوستنديل) و(إسكندرية) و(علي أغا) من ضباط الخاصة السلطانية في اليمن؛ بأربع قطع مدفعية. وحكام (يانيا) و(سلانيك) و(أوخري) ولجترين) (إبراهيم أغا) من قادة الإنكشارية بست قطع على اليسار. وأقاموا استحكامات، ووقف حاكم (دوكاكين) والضباط الفدائيون، وقد كلفوا بالحراسة في مضيق (سودا) على الجسر الحجري يحمون الجنود من جهة، وسفن الأسطول من جهة أخرى. وهكذا استؤنفت معركة المحاصرة، فذهل الكفار الذين حوصروا. ولما خرج جنود الأعداء من سفنهم التي في الميناء وهجموا من البر؛ تعرضوا لخسائر كبيرة وانهزموا، فرجعوا.

وفي اليوم السابع عشر من المحاصرة، جاء الجنود الجزائريون في عشرين قطعة بحرية فكلفوا بالدفاع عن ميناء (سودا). وفي اليوم الخامس والأربعين من المحاصرة، هجموا أول مرة فلم يقع الحصن، وهجموا مرة ثانية في اليوم الثاني والخمسين، واستطاعوا أن يركزوا الأعلام فوق الأبراج، ومع ذلك لم يقع الحصن. وقد مات كثيرون، واستولى اليأس على الجنود فأرضى القائد الجنود فاستمروا في هجماتهم. وبعد أربعة وخمسين يومًا من المحاصرة، وحدث في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة (21 أغسطس 1654) - وكان يوم الخميس - وبين صلاتي العصر والمغرب - أن جاء قائد الأعداء إلى الفتحة التي سيهاجم منها، وهو يدق الطبول، وركز راية بيضاء.

فتح (خانيا)

ونزل في هذا المكان رجل مسن محترم وطلب الأمان، فأعطاه القائد الأمان، وساقه شخصان من اليمين والشمال.

وسلمت القلعة عن طريق الصلح. وسُمح للكفار أن يذهبوا حيث يشاءون بسفنهم، ومعهم أموالهم وأولادهم دون أن يتعرض لهم أحد. وحملوا أموالهم على سفينتين للنقل، وثلاث سفن حربية، وأُركبوا فيها وانطلقوا. واستولى جند العثمانيين على القلعة، ووضعوا في داخلها جنودًا لحراستها. وجعل (حسن باشا) واليًا عليها، وأخذت ثلاثمائة وخمسة وتسعون مدفعًا من أجواد الأنواع، وقُيّدت في السجلات، وقال بعض العارفين هناك تاريخ، أوله: الغزوة الأولى، والثاني: قد وقعت غزوتنا.

وصول سفن الكفار

وجاءت في اليوم الرابع عشر سفن الكفار وأسطولهم في عظمة، وقد ساعدتهم الرياح. وكان الأسطول يتكون من سفن حربية مختلفة، ويزيد عددها عن مائة، ومرُّوا من أمام القلعة، ودخلوا في ميناء (سودا). ورست هناك سفن (مالطة) و(دوقا) و(البابا) و(أسبانيا) و(البندقية) بخمسة من القادة، ولكن المجاهدين كانوا يقتلون من يخرج منهم من سفنهم. وكان هؤلاء قد رجعوا من حملة (خاسر) في قدرغة، وإقليم الثلوج.

وقد ظلوا عدة أيام في ميناء (سودا)، وأرادوا أن يفاجئوا (توداري) بالهجوم، فأتوا بجزء كبير من سفنهم أمام قلعة (خانيا)، فأطلق المسلمون المدافع من القلعة، واستعد الجنود للقتال.

وركب القائد السفينة الرئيسية، وحمل الأخرى بالجنود. وكان على وشك تنظيم سفنه - وقد خرج من الميناء؛ حينئذ هبت ريح شديدة، ولم تستطع سفن الأعداء الدخول في الميناء وتفرقت، أما السفن الإسلامية فقد دخلت الميناء. وكانت سفن الأعداء قد وصلت في ساعة واحدة، ولكنها بعد هبوب العاصفة لم تستطع أن تتجمع إلا في خلال ثلاثة أو أربعة أيام.

قتال كفار البندقية ضد سفن المسلمين

كان قرمانلي رئيس ربانًا في الماضي، وجاء إلى مكان يطلق عليه (دكيز منلك) بأربع سفن عليها ألفان من جنود الإنكشارية. وذهب الربان إلى الميناء بنفسه، وظلت ثلاث من سفنه في (دكير منلك) وليس عليها الجنود الإنكشاريون، وذهبت السفن التي في (بنفشة) إلى (خانيا). وكانت السفن الثلاث تحت قيادة ممش رئيس، والرئيس جاوش، وجعفر بودر. وقد علم الكفار بوجود هذه السفن هناك، وأرادوا أن يهاجموها، وأتوا بست وثلاثين سفينة، وهي ما تزال راسية. ولما كان هؤلاء الرؤساء مسافرين نحو (كريت) خارجين من الميناء، هجمت عليهم سفن الكفار في الثالث والعشرين من شعبان (14 أكتوبر 1645)، وبينما هم يهاجمون السفن الثلاث، هبت رياح شديدة - وذلك من حكمة الله - فتعرضت السفن للأمواج العالية، ودخلت فيها المياه، وغرقت سفينتان حربيتان للعدو. وكانت سفينة بودر سفينة عجيبة تستطيع أن تحمل اثنين وأربعين مدفعًا؛ فتحطم عمودها الرئيسي من أشرعته، وسقط الموجودون تحته في البحر مع الأشرعة وانثلمت السفينة. ولما سكنت الرياح، أحاطت سفن الأعداء بهذه السفن الثلاث، وأخذوا يضربونها بالمدافع الجانبية.

انهزام الرؤساء جاويش وممش وجعفر في المعركة

وحاصرت سفينة جاويش أربع سفن للعدو، وأخذت تضربها بالمدافع. ولما كانت هذه السفينة سفينة سريعة؛ فقد حطمت مجاديف سفن الأعداء بالدافع، وخرجت من بينها. فخرج الكفار، وظلوا في أماكنهم معرضين للسخرية. وبعد ذلك، حاصرت بعض سفن الأعداء سفينة الرئيس، ولكن مَن في داخلها حاربوا ببسالة، وقاتلوا قتالًا عجيبًا، أعجب بهم الملائكة في السماء، وأثنوا عليهم.

وقاتلوا حتى وقت العصر، واستشهد كثيرون منهم. ولكنهم أدبوا الكفار تأديبًا جيدًا، ثم أسرعوا بالهروب. وفي هذه المرة، حاصرت جميع السفن سفينة (بودر جعفر) بالمدافع، وكان من بين جنود الرئيس جعفر من يسمّى بالرئيس سليمان، وكان بطلًا صنديدًا؛ فأقنع الأبطال الآخرين بالقتال إلى النهاية قائلًا: (إما النصر وإما الاستشهاد)، وقاتل برجولة. وقاتلوا يومًا ليلًا ونهارًا، ولما كانت سفينتهم خالية من الشراع لم يستطيعوا

أن يهربوا منهم. وفي النهاية، لم يبق منهم إلا بعض الرجال الذين فضلوا الاستشهاد على الأسر، وقاتلوا حتى نالوا مرادهم.

وظل العدو يطلق مدافعه على هذه السفينة العظيمة حتى أغرقوها، وكان القائد قد هجم على الأعداء بالأسطول بعد هذا الحادث. ولكن دخلوا في ميناء (سودا) ولم يظهروا بعد. ورجعوا إلى (خانيا) في السادس والعشرين من شعبان (17 أكتوبر 1645)، وخرجوا منها في أول رمضان (21 أكتوبر 1645) وأتوا إلى (أغريبوز)، فسرح القادة والحكام والجنود، وتوجهوا إلى باب الدولة سعداء مبتهجين.

وكان الربان القائد قد جاء من قبل بسفينتين حربيتين وقابل السلطان، ثم أتى بالأسطول السلطاني في السادس من شوال (25 أكتوبر 1654)، ودخل به الترسانة العامرة. وكُلف (حسين باشا) الذي فارق مِن قبل (بودين) بحراسة (كريت). ولما وصل إلى (أنابولو) اقتربت منه إحدى عشرة قطعة من السفن الرئيسية لتحيته.

وبعد ذلك، حدثت غزوات ومعارك عظيمة في جزيرة (كريت)، ولم نسجل في كتابنا هذا المعارك البرية. وقد تحدثنا في كتابنا التاريخي (فذلكة) عنها تفصيلًا. أما هنا، فقد تحدثنا عن المعارك البحرية فقط.

القسم التاسع

الحملات البحرية

في جزيرة كريت بعد فتح خانيا

حملة موسى باشا ومحمد باشا

بعدما قُتل يوسف باشا في ذي الحجة (يناير 1646)، عُين الوزير (موسى باشا) ربانًا، وعُزل محمود باشا من منصب الصدارة، وكلف بالذهاب إلى (كريت) كقائد للأسطول، وخرج بالأسطول في صيف 1056 (1646) ووصل إلى المضيق، وكان الكفار قد جاءوا من قبل ذلك في 27 من صفر (25 أبريل 1646)، فحاصروا قلعة جزيرة (بوزجا) بعشرين قطعة من السفن الحربية. ولما أمرته الحكومة بالإسراع إلى نجدتها بعشرين قطعة حربية، كان البارود الذي في الجزيرة قد نفذ، وكذلك الأطعمة؛ فاستعانوا بالبارود الموجود في السفن التي في الميناء ودافعوا عدة أيام، ولكن حاكم (الروملي) كووك حسن باشا؛ أدركه بخمس قطع بحرية محملة ببعض الفدائيين، فأنزلهم في البر وهجم على الأعداء، فترك الكفار الحصار وأسرعوا إلى سفنهم ورفعوا مراسيهم، واتجهوا نحو سواحل الأناضول. وهكذا نجا الحصن من يد الأعداء.

معركة الأسطول

قامت سفن الأسطول السلطاني في العاشر من ربيع الآخر (26 مايو 1646) من غاليبولي، وسارت نحو 26 قطعة حربية كانت تأخذ تموينها من الماء في خليج (معارض). ولما رأتها سفن الأعداء أسرعت رافعة أشرعتها، ولما ابتعدت قليلًا في البحر بدأت الحرب بينهما قرب الظهر. ونشبت معركة كبيرة استمرت حتى العصر بالمدافع والبنادق، وأصيبت سفينة ربان الأعداء بقنبلة أسقطت رايتها وعمودها الكبير، وسقطت في الماء وثُقبت، إلا أن رجالها تصرفوا سريعًا وأنقذوها من الغرق، وقد تحطمت عدة من سفنهم، وتعرضوا لخسائر عظيمة. ومن هذه الناحية، وقعت قنبلة في سفينة ابن (قاسم باشا) وقتلت بعض الجدافين،

وقُتل بعض الرجال في السفن الأخرى. ولما هبت رياح شديدة ذهبوا إلى جانب الجزيرة، ثم اتجهوا إلى (كريت)، وعاد في الثالث والعشرين من ذلك الشهر (8 يونيو 1646) (أحمد باشا) الذي كان قد خرج إلى البحر الأسود بعشر قطع حربية، فأُرسل إلى كريت للنجدة. وفي 28 من جمادى الأولى (12 يوليو 1646) وصل القائد الربان إلى (خانيا)، وبينما كان على وشك حصار (حصن سودا)؛ مات (محمد باشا). وتُركت مائة وأربعون سفينة حربية أمام حصن (خانيا) للدفاع عنه، ونُصبت المدافع على جانبي الميناء. وكانت أكثر من مائة سفينة مختلفة للأعداء مستعدة لنجدة (حصن سودا).

حكاية سفينة النار

جاءت سفن الأعداء في الثاني من شهر رجب (14 أغسطس 1646)، وأخذت تطلق مدافعها على السفن الجزائرية وغيرها، التي في خارج (خانيا)، وكذلك على القلعة نفسها. ومن هذه الناحية، أطلقوا عليهم المدافع، ونشبت معركة دامت ساعتين. وبعد ذلك، اقتربت خمس قطع من السفن المحملة بالبارود والقذائف والممتلئة عن آخرها، ثم عرفت أنها سفن النار؛ فخرج بعض الناس من البر، وركبوا قوارب ووصلوا إلى جانب تلك السفن، ودفعوها بعيدًا بالعصي وأعادوها. وبعون الله، احترقت تلك السفن دون أن تسبب ضررًا، كما أن كثيرًا من سفنهم قد عاد بعدما تعرض لخسائر كبيرة نتيجة للقنابل التي أطلقت عليها.

وكان حصن (سودا) قلعة على ثلة من شاطئ البحر، ولم يكن لها طريق من البر، وكان الكفار يساعدون الأسطول الذي دخل تحت حماية المدافع في الميناء ليلًا وهم يقفون بعيدين عن مرمى المدافع. ولما كان لقلعة (سودا) مدافع عظيمة بجانب المياه، كان الوصول إلى جانب القلعة مستحيلًا. وعندئذ، تُركت القلعة وحاولوا أن يفتحوا أراضي (كريت)، واستطاعوا أن يستولوا على كثير من القلاع مثل (أبوكورنو) و(رسموا). وصدرت الأوامر السلطانية بأن يظل الأسطول العثماني خارج الترسانة العامرة دون العودة إلى (استانبول) في هذا العام أيضًا. وذهب الربان القائد إلى سواحل بلاد الروم؛ ليحضر المؤن. ورجع في العشرين من ذي القعدة (5 يناير 1647) بسفن تفوق ثمانين قطعة مشحونة بالذخائر والأرزاق، ورست سفنه في ميناء (خانيا)، ودخل الجنود في القلعة. كما استعد (حسين باشا) لحصار (قندية).

حرب موسى باشا واستشهاده

بينما كانت سفن الأسطول تحمل الذخائر إلى (كريت) في عنفوان الشتاء وتوفر الطعام اللازم لخانيا؛ قامت زوبعة كبيرة، فغرقت خمس عشر من السفن التي في مدخل الميناء وهي مليئة بالأغذية والذخائر الركاب. كما أن كثيرًا من السفن قد أصيبت. وبهذا، لم يكن هناك طريق لدخول سفن الأسطول في ميناء (خانيا) والبقاء هناك، فخرج الربان القائد بالأسطول في السابع عشر من ذي الحجة (24 يناير 1647) إلى ناحية المورة، ولما رأى أمام (أغريبوز) سفينة حربية للأعداء أحاط بها بعدة سفن حربية؛ ليدمرها، فأصابت الباشا رصاصة بندقية واستشهد، فترك الغزاة سفينة الأعداء وانسحبوا بسفنهم. فانتهز الكفار هذه الفرصة وهربوا. ولما وصل هذا الخبر المخيف إلى باب الدولة، أسند منصب الربابنة إلى (موسى باشا) الآخر الذي كان من قبل دفتردارًا.

العظة من هذه القصة

أن رسُوَّ الأسطول في موسم الشتاء في أماكن مكشوفة؛ من أفدح الأخطاء. ومحاولة الربابنة التلاحم بأنفسهم مع السفن الحربية ومحاصرتها؛ ليست رجولة، بل تؤدي إلى عار الهزيمة. ويجب على القادة أن يدفعوا الجنود واقفين بعيدًا للقتال، وإلا فعندما يذهب الرأس تضيع الأرجل، ولا يتم العمل.

حملة موسى باشا الثاني

بعدما وصل باشا في 1057هـ (1647) إلى (أغريبوز) وقام باللازم، ذهب إلى جزيرة ساقيز ليعبر بجنود الأناضول إلى كريت. وبينما كان في (جشمة) ليأخذ معه الجنود الذين هناك والآخرين الذين كانوا في عطلة؛ أحاط به الأعداء من جميع الجوانب، فلم يستطيع البقاء فيها، وعاد إلى (أغريبوز). ولما اقترب منها، عرف أن تسع قطع من سفن الأعداء تحيط بميناء أغريبوز فرجع إلى على كريت دون أن يأخذ معه الجنود من بلاد الروم وخمسة آلاف من الإنكشارية، ودون أن يخرج السفن الجزائرية والتونسية من الميناء. وبينما كان جنود المسلمين ينتظرون في خارج (رسمو) في الحادي والعشرين من ربيع الآخر (26 مايو 1647)، دخل فيها وأخذ منها بعض عمال الحفر واللغم، وهم نحو مائتين، وبعض الأغذية والمستلزمات، وظل الباقون في (أغريبوز) و(ساقيز)، ولما وصل

الربان إلى (كريت) خالي اليدين له القائد (حسين باشا)؛ لذا أخذ سبعين سفينة حربية إلى الأناضول ليحمل جنود الروم من (أغريبوز) إلى الأناضول؛ وبينما كان يبذل جهده لشحن الجنود في سفنه، جاء الأعداء في الثامن من جمادى الأولى (11 يوليو 1647) بسفن حربية متنوعة، ورسُوا خارج الميناء، وظل الأسطول السلطاني محاصرًا هناك.

ولم يستطع الجنود الذين شُحنوا أن يخرجوا من السفن، وبلغ هذا الوضع باب الدولة. وبعد المشورة، نُصب فاضل باشا من الوزراء قائدًا، وصدر الأمر السلطاني بأن يذهب إلى (كريت) سفن جنود الأناضول المحملة بالذخائر راسية بجانب ساقيز، فهجم عليها الأعداء فجأة واستولوا على كل السفن، ثم أحرقوها وظل الجنود ينظرون إليهم من الخارج مع (شعبان باشا)، بينما الكفار ينسحبون.

حملة فاضل باشا

وأصبح (فاضل باشا) ربانًا، وفي جمادى الآخرة (يوليو) خرج مع خمسة آلاف من الإنكشارية على ثلاثين من السفن الحربية، ووصل في آخر الشهر إلى (ساقيز)، واجتمع هناك بعشر قطع من السفن المستأجرة، وأخذ جنود الأناضول من (جشمة) بسفنه. وبينما كان مستعدًا للذهاب إلى (كريت) وهو ينتظر خمس سفن جيدة أُرسلت من الدولة؛ انفصلت من سفن الأعداء الراسية في (أنابولو) ست سفن من (مالطة)، وأربع سفن حربية كبيرة في 15 رجب (16 أغسطس 1647) وجاءت إلى (ساقيز)؛ فخرجت السفن الإسلامية من الميناء وأطلقت نيرانها عليها، وقامت معركة بين الطرفين بالمدافع والبنادق، حتى غطت الأدخنة السماء، ودامت الحرب حتى غروب الشمس. وعندما حل الليل، انسحب الكفار، وكرُّوا راجعين. وقد اغتنموا، ودخلوا الميناء فرحين مبتهجين سالمين.

ولما كانت السفن الباقية في (أنابولو) تنظم نفسها للخروج، وجدت السفن الحربية فرصة للخروج من الميناء. ووصلوا إلى (ساقيز) واجتمعوا هناك بجانب القائد الربان، ثم توجهوا نحو (كريت). وفي الثامن والعشرين من شعبان (28 سبتمبر 1647) وصلوا إلى (خانيا) سالمين. وبهذا قويت الجيوش الإسلامية وكانوا من قبل ذلك قد هزموا الكفار في البر، وذهبوا لمحاصرة قندية، ولم يعبر جنود بلاد الروم البحر (كريت)، ولكن الذين وصلوا هم جنود من سواحل الأناضول والإنكشارية والذخائر واللوازم الحربية.

ولما كان أسطول الكفار يحرس (قندية) من أمامها، فقد حملت المدافع عن طريق البر، ورجع الأسطول السلطاني في وقته في الثامن من رمضان الشريف (7 أكتوبر 1647) ودخل في الترسانة العامرة.

حملة ابن عمار

عُزل (فضلي باشا) من منصب الربابنة في ذي القعدة 1058هـ (ديسمبر 1647)، فعُين نائب الترسانة ابن عمار الذي كان قد أصبح أستاذ السلطان فيما مضى - ربانًا، ووصلت الأخبار في محرم 1058هـ (يناير وفبراير 1648) من قاضي (ساقيز)، بأن أسطول الأعداء قد وصل إلى جزيرة (ابصاره) التابعة لجزيرة (ساقيز). وعند ذلك، هبت عاصفة فتحطمت ثمانِ عشر قطعة حربية من مجموع سفنها، وهم سبعة وخمسون. ولما رأى محاصرو (قانديا) أن الأسطول السلطاني الذي ينتظرونه لم يأت؛ تركوا المحاصرة. ولما عرف هذا الخبر؛ قرر الأسطول ألّا يخرج.

رسُوّ سفن الكفار في مضيق الحصن

ولما كانت الطوائف المسيحية ساكنة على سواحل البحار، فهم يهتمون كثيرًا بعلم الجغرافيا، ولا يهملون أبدًا أن يتعلموا الأمور الخاصة بالبحار. وبما أن طوائف البنادقة كانوا جيران الدولة العثمانية، ويبذلون أقصى جهودهم؛ ليعلموا هذه العلوم على اعتبار أنها تنفعهم في وقت الحاجة حتى يحموا أنفسهم. وكان هؤلاء العلماء يصاحبون العثمانيين في حملاتهم البحرية، ويقومون بأعمال مفيدة لهم. وفي هذه المرة، أتت جميع أنواع سفن البنادقة إلى المضيق، وألقت مراسها خارجه؛ حتى يمنعوا خروج الأسطول العثماني. وفي نفس الوقت، خرج الربان القائد في 12 من ربيع الآخر سنة 1058هـ (6 مايو 1648) بالأسطول السلطاني المحمّل بكثير من الجنود واللوازم، ووصل إلى الحصن؛ حيث رأى أن سفن الأعداء الحربية قد أغلقت الممرات التي سيمر منها. وهنا، اضطر الربان أن يحمل كل ما تحتاجه السفن، وأن يسير من البر. وأرسل السفن الرئيسية التي كانت تنتظر خارج المضيق إلى (كريت)، ووصلت السفن الرئيسية إلى قلعة (خانيا) في الثامن من جمادى الآخرة (30 يوليو 1648) وأوصلوا رسالة من الربان يقول فيها: (بما أن سفن الأعداء تغلق المضايق، لم يستطيع الأسطول السلطاني أن يخرج في هذه

المرة). وأُرسلت مرتبات الجنود وأربعمائة من عمال الألغام. ولما سمع الجنود هذا، استولى عليهم اليأس؛ لأنهم كانوا قد أخبروا قبل ذلك بأنه قد أُرسل الأسطول إليهم وفيه جميع ما يحتاجون إليه من الجنود والذخائر والأغذية، وأن السفن على وشك الوصول. ومهما يكن، فجنود الإسلام قد تحمسوا من جديد، وبذلوا جهودهم لفتح (قانديه).

ولكنهم لم يقدروا على ذلك، وكرروا هجماتهم. وخرج بعض الكفار يومًا من الحصن الأبيض أمام الباب قائلين: (إنهم يريدون أن يتحدثوا معهم). وطالت المحادثات حتى المساء، وقالوا: (سنسلم لكم الحصن غدًا، وغدًا سيخرج لكم رجل منّا، وسيعم السلام). ولكن في تلك الليلة، وصلت المعونات للأعداء في سفن خاصة بالبابا (ومالطة) (والدوقية) وسفن أخرى محملة بجميع اللوازم، فاستولى اليأس على الجنود المسلمين، ولم يكن في البحر أسطولٌ يحول دون وصول النجدة، ومن الصعب الاستيلاء على الحصن طالما تأتيه المعونات من الخارج؛ لأجل ذلك تأخر فتح (قانديه). وأبلغ ابن عمار الوضع إلى الجهات المسئولة في استانبول، فأرسلت إليه مدافع خاصة لإبعاد سفن الأعداء عن المضيق. وفي أواخر جمادى الأولى (أواسط يونيو)، أرسلت السلطنة رجلًا لقتل ابن عمار؛ لأنه تسبب في غلق المضيق. وهكذا أزيح من الميدان، وأُسند منصب الربابنة (لأحمد باشا).

حملة أحمد باشا، وإنشاء سفينة حربية

بعد أن صعد السلطان على عرش السلطنة في رجب 1058 (يوليو أغسطس 1648)، أراد الوزير الأعظم (محمد باشا) أن يضع الأمور في نصابها، وتحدث معه في أمور الأسطول، وقال أحدهم – في أثناء الحديث –: إن الكفار قد استخدموا في أثناء الحروب سفنًا حربية تسمى قاليون. تستخدم بواسطة الرياح، وسحقوا سفن الحربية التي تسمى قادرغه، التي يستخدمها الأتراك. ويجب حماية الأسطول السلطاني أولًا، وإلّا أتى الكفار، وسدوا الباب أمامه في المضيق، ولا تستطيع أن تجابه هذه السفن بالنوع الذي يسمّى قادرغه، ويجب أن يكون عندنا هذا النوع من السفن التي تسمى قاليون. وقالوا: يجب أن نجابه القاليّين بالقاليّين. ووافقوا على صنع القاليونات. وقد استدعاني شيخ الإسلام (عبد الرحيم أفندي)، واستشارني في هذا الأمر، وسألني هل سبق في الماضي

أن سافر ربابنة الأسطول العثماني بالقاليون في البحر؟ فقلت له: إن كتب التاريخ تذكر أن العثمانيين استخدموا في حملاتهم الكبيرة مثل "قبرص" و"حلق الواد" مختلفَ السفن في حمل الجنود، ومن ضمنها الكاليونات، ولكن الحروب كانت تحدث دائمًا بالسفن المسماة بـ(قادرغه) و(ماونا)، (فخير الدين باشا) - مثلًا - وقف بأربعمائة سفينة من قادرغه ضد الكفار، وتغلب على قاليوناتهم وسفنهم الأخرى، وإذا ألحّوا في ذلك فنقول لهم: إن المهارة ليست في بناء السفن، ولكن المهارة في تسليح هذه السفن بالمدافع وكل ما يلزمها، ثم بحثوا لإدارتها عن رجال مهرة، وعن الجنود المهرة في استخدام المدافع). هذا ما قلته للشيخ المرحوم، فبذل كل جهده لتحقيق هذا الكلام، ولكنه لم ينجح في ذلك.

خروج الأسطول السلطاني والقتال

وأغلقت في سنة 1059 ربيع الأول (أبريل 1649) مصانع البنادقة، فبذلوا جهدهم لبناء أسطول عظيم. وصنعت سفن مختلفة وجهزوها بكل ما يلزمها، وخرج الأسطول في الثامن عشر من هذا الشهر (أول مايو 1649)، وسار نحو المضيق، وأرسل (المغرب) مائة وعشرين ألف قرش، واستدعيت سفنه. وذهب (درويش محمد باشا) من البوسنة عن طريق البر إلى المضيق، ونصب المدافع على سواحل بلاد الروم. ولما وصل الأسطول السلطاني هناك في الثالث والعشرين من ذلك الشهر (16 مايو 1649) أطلقت المدافع، فاضطرت السفن المعادية التي كانت راسية هناك؛ لتتحرك تجاه السواحل الأناضولية. ففتح الطريق، ومرت سفن الأسطول بسلام إلا أن سفينتين جنحتا بجانب الاستحكامات. ولما كان الأسطول يدور من خلف جزيرة (بوزجا)؛ فقد خجل الكفار، فبسطوا أشرعة سفنهم فانطلقوا من خلفهم. واجتمعت السفن في ذلك المكان مدة أربع أو خمس ساعات. ولما كانت القاليونات غير متماشية في السير مع السفن التي تسير بالجدافين؛ فجرّت من خلفها، وجابهت اثنتان من قاليونات العدو قاليوناتِ الأسطول السلطاني، ولكن الرياح كانت غير مواتية، فلم تنجحا فابتعدنا، واستشهد في هذه المعركة عدة أبطال، وجاء ربابنة البحر في وقت العصر، فاصطفت السفن كلها في الطريق.

معركة ميناء قوجا

ووصل الأسطول إلى ميناء (قاراجه قوجه) على الساحل الأناضولي، وكان الجانب الأيمن في الحصن محميًّا وصالحًا للحياة، إلا إن حارس الحصن قال: إن الرسوَّ أمام المدافع أمرٌ غير صائب. ولما كان الربّان من الذين لا يستمعون لقول أحد، ويتصرف وفق هواه، أرسى سفنه في الجانب الأيسر من الحصن. وفي هذه الفترة، وفي وقت الظهر، هجم الأعداء على الميناء؛ فخرج الباشا بالسفينة الرئيسية، وما تجرّه خلفه إلى الأعداء، وتقاتل معهم قتالًا شديدًا. ولما هجم الباشا ورجاله على سفينة الأعداء، دخل الكفار في مخزن السفينة وأحرقوه، فاشتبكت السفينة التي كان تجرّها سفينة الباشا بتلك السفينة المحترقة في مكان ضحل؛ فاحترقت معها، وما قدرت لها النجاة؛ فارتمى البحارة في البحر من فوق ظهرها.

وانتهز الكفار هذه الفرصة واستولوا على بضعة سفن، وانسحبوا جارّين لهذه السفن، وانضم بعض جدافي سفينة مع ربانها إلى الكفار. وبعد هذه الهزيمة، رجعوا إلى مدخل الميناء، وظل الربان ناظرًا خلفهم تحت الحصن فوق سفينته. وبعد أن وصلت السفن الرئيسية، خرج واتجه إلى (كريت).

العبرة من القصة

وهي أنه ليس من المهارة والحكمة الرُّسوُّ في ميناء من الموانى دون إرشاد دليل، وبينما تكون في مكان مناسب في الميناء، ثم تغير مكانك متكبرًا؛ أمر وخيم العاقبة.

استشهاد الباشا الربان في حصار سودا

ولما وصلت سفن الأسطول والسفن الأخرى، التي أجرت من (الجزائر) و(تونس) و(طرابلس) و(مصر) تحت حصن قانديا؛ لم يسمح الربان القائد للسفن بالاقتراب من الشاطئ، بل حاصر حصنًا صغيرًا بجانب حصن قانديا من البحر والبر، واستولى عليه. ولما كان بينه وبين (حسين باشا) فتورٌ وسوءُ فهمٍ، لما طلب منه (حسين باشا) المدافع والمعونة؛ فلم يعطها قائلًا: (إننا ندافع عن البحر). وفي هذه الفترة، ظهرت سفن الأعداء وسارت نحوه، فغادر قانديا، وسار نحو (خانيا). ولما كانت بعض السفن قد دخلت فيها المياه، وأمر بسد الثقوب بالقار، وكتب أسماء بعض المتطوعين؛ ليركبوا القوارب

متوهمًا أنه سوف يستولي على قلعة (سودا) بهذه القوارب، وذهب هو عن طريق البر إلى جانب (أحمد باشا) حاكم (آماسيا). وبينما كان يبذل جهده للاستيلاء على القلعة بهذه القوارب؛ جاءت قنبلة من القلعة وأطارت رأسه. واستشهد في 18 رجب (28 يوليو 1649) فرجعت القوارب إلى (خانيا).

العبرة من القصة

من الحماقة أن يحاول القائد أن يحاول هو الاستيلاء على حصون قوية بطريق سهل، وبواسطة بعض القوارب. وهذا يشبه بعض ما قاله العظماء: إذا سيقت قوارب كثيرة ضد القاليونات الراسية في المضيق؛ تثقب قعرها، وتستولي عليها. ولما وصل هذا الخبر إلى (حسين باشا)، كان الأسطول يحتاج إلى ربان؛ لذا أمر بأن يعين ربانًا قائدًا للأسطول حاكم بلاد الروم بييقلي مصطفى باشا. وفي نفس الوقت، أرسل إلى رجال الدولة بأن يُعطى له هذا المنصب، فأعطي له.

حملة ابن حيدر أغا

أصبح (محمد باشا ابن حيدر) الذي فارق مصر، ربانًا. وذلك في الثالث من شوال سنة 1059 هـ (10 أكتوبر 1649)، فقد أرسل مع كور حسن أغا – رئيس الصيادين في القصر السلطاني إلى (كريت). وفي الثامن من هذا الشهر (15 أكتوبر) خرجا ذاهبين في سفينتين حربيتين، ووصلا إلى (كريت) في 28 ذي القعدة (3 ديسمبر 1649). وبعد عدة أيام، أخذ الأسطول السلطاني ورجع عائدًا، ودخل في الترسانة العامرة. وفي الثاني عشر من ربيع الآخر 1060 (14 أبريل 1650)، وصل إلى المضيق عشرون قاليون وعشرة من السفن الأخرى المعادية؛ فأرسل (أحمد باشا) العنكبوت – من الوزراء – للدفاع. كما أن القائد الربان خرج من الأسطول العثماني في 5 جمادى الأولى (6 مايو 1650)، وذهب إلى المضيق ولم يجد طريقًا للخروج؛ فأطلقوا من البر بعض المدافع نحو سفن الأعداء، ولم تنفع الكثرة واقتراب الكفار من القلعة. وأطلقت مدافع كثيرة نحوها، وأرسل جنود إنكشارية عزاب من استانبول ووصلوا من البر، كما أن (عبد الرحمن باشا) أتى من استانبول؛ فأجبروا السفن المعادية أن تتجمع في ساحل ما. ولكن جنود الأسطول تفرقوا واختلت

صفوفهم وتعطلت كثير من السفن، ولكنهم استطاعوا أن يكملوا ويجهزوا خمسًا وعشرين سفينة، وكلما قيل لمن في هذه السفن (تقدموا وتحركوا)! وقفوا دون أن يبذلوا جهدهم للخروج من المضيق.

ثم تُركت مسألة الخروج من المضيق جانبًا، وخرج القائد الربان من السفينة في رجب (يوليو 1650)، وركب السفن الرئيسية ذاهبًا من البر إلى (كريت) بما استطاع أن يأخذ من المستلزمات. ولما وصل هناك، وانهمك الجنود في إخراج الذخائر؛ ظهرت سفينة للكفار، فرجع إلى عرض البحر، وظل بعض الجنود في السفينة. كما أن الخارجين من الحصن لم يستطيعوا أن يحصلوا على الذخائر، ورجعوا عائدين إلى جزيرة (ساقيز)، وفكروا في أن يخرجوا، وأن يعدوا أسطولًا قويًّا في الصيف ووسائل ذلك، وصدر الأمر السلطاني في 23 من رجب (22 يوليو 1650) ببناء عشرين أو ثلاثين قاليونًا، وسفنًا أخرى؛ ونصبت المرافئ لأجل ذلك. وجاء رسول من (كريت)، وأخبر أن العدو هجم فجأة على قلعة (تودوري) واستولى عليها، وعزل الربان (ابن حيدر أغا) من منصبه، وعين مكانه حاكم (رودس) (علي باشا ابن حسام بك).

حملة علي باشا

وفي الثامن من ذي القعدة سنة 1060 (3 نوفمبر 1650)، أعطي (لعلي باشا) ما يقرب من 4000 مقاتلًا من مختلف مؤسسات الإنكشارية والفرسان، بشرط أن يحمي (كريت) في خلال ثلاث سنوات. ولما كانت الجزيرة في حاجة إلى النجدة في وسط الشتاء، ركب القائد الربان السفينة، ومعه القوات المذكورة في الثامن عشر من ذلك الشهر (13 نوفمبر) ومعه ثماني عشرة قطعة من السفن الحربية المحملة بالجنود، وخرج نحو البحر الأبيض المتوسط. وجاءت السفن الرئيسية من الخارج إلى جزيرة (ساقيز). ومن هنا، اتجهت كل السفن إلى (كريت)؛ حيث وصلت في التاسع من المحرم (2 يناير 1650)، واقترب الأسطول من ميناء (أياق حصار). وفي وقت العصر، خرج الجنود إلى الساحل، فرجع علي باشا سالمًا، وقد عدَّ هذه العودة السلمية نعمة كبرى. ولم يحدث قط أن خرج مثل هذا الأسطول في غضون خمسة أيام إلى عشرة، وما ينعم به الله يتم في سهولة.

حادثة قاليون

شرع الصدر الأعظم (ملك أحمد باشا) في صنع قاليون كبير في (باغجة قابو)، وكان قد أنفق على صنعه كثيرًا. وكان على قارعة الطريق، وأخذ الناس يهزلون قائلين إنه لم يرَ مثل هذا (القاليون) العظيم، وتم بناؤه في 25 جمادى الأولى (1061) (16 يونيو 1651)، وبينما كان الأعيان والأركان والعظماء يدعون عند نزوله إلى البحر، فإذا به ينقلب على جانبه لبعض العيوب عند صنعه، وامتلأ أكثر من نصفه بالماء. وحاولت السفن إخراجه بعد أن ربطوه من جانبيه بقوة، ولكنها لم تستطع. وفي النهاية، نقلوا ما فوقه وعدَّه الناس سفينة مشئومة، وهم يتحدثون عن هذا القاليون.

حملة علي باشا الثانية

وقد تم إعداد السفن وكل مستلزماتها في جمادى الآخرة 1061 (مايو/ يونيو 1651) وجاء كثيرٌ من جنود الإنكشارية من المؤسسات المتخلفة، (وأحمد باشا) من حكام الأناضول - بكل جنوده، والحكام الآخرون الذين عينوا لهذه الحملة، ودخلوا في السفن وانتظم كل واحد في مكانه، وخرج القائد الربان في 23 من هذا الشهر (14 يونيو 1651 بثلاثين قطعة قاليون، و35 قادرغة و6 (ماونا) أي بواحد وسبعين سفينة مختلفة من بشكطاش. وبعدما استراح يومين أو ثلاثة، اتجه إلى البحر الأبيض المتوسط. ولما كان المضيق خاليًا في هذه المرة من سفن الكفار؛ فقد وصل في رجب (يونيو - يوليو) إلى ساقير، فجاءت السفن الرئيسية والأخرى حتى اجتمعت 150 قطعة بحرية، وتكوّن أسطولٌ عظيم اتجه إلى (كريت) في 12 من رجب (أول مايو 1651) في فخامة وعظمة.

معركة ناقشا

وكانت السفن الإسلامية تسير في قوة وهدوء، وقد بسطت أشرعتها والريح رخاء، ولما وصلت إلى جانب جزيرة (صانترون) القريبة من (كريت)؛ ظهرت سفن الكفار، ونشبت معركة في ذلك اليوم بالمدافع والبنادق. وهجم جنود المسلمين على الأعداء بقوة، وظهروا عليهم. وجاء المساء، فتوقف القتال بين الطرفين. وكانت (كريت) تبعد عن هذا المكان بمسافة مائة ميلٍ. وقالوا إذا وقعت المعركة، فإنهم سيحتاجون إلى الماء؛ لذا ذهبوا نحو جزر (نقشبارا) للتموين بالماء في الصباح، فتعقبهم الأعداء. ولما دخلت السفن الإسلامية الميناء، اقترب الكفار من

الشاطئ خارج الميناء. ولما قامت سفن الأسطول للخروج من الميناء واحدة تلو أخرى بعد التمون بالماء غافلة، هجمت السفن المعادية عليها، فحارب الربان الباشا بسفينته حربًا شعواء. ولكن السفن الأخرى للقادة الآخرين ظلت في مكانها تنظر إلى سفينة الباشا وهي تحارب ولم تهتم بالأمر. وتركوا القاليونات التي تجرّها سفنهم، وانسحبوا. وقليلون منهم اشتركوا في المعركة لمدة قصيرة. وظل الربان القائد في وسط الكفار، وأخذ يقاتل بدون أمل، ولكن ابنه أدركه في آخر لحظة، وجرّ سفينة القيادة وأخرجها من المأزق، وكان الموقف يشبه الهزيمة، فابتعد من هذا المكان. ولما كانت الريح واقفة، فقد أحاط الكفار بالقاليونات، وحارب (أحمد باشا) حاكم الأناضول في داخل قاليونه، واستشهد وهو يقاتل، وأحرق (قاليونه)، وجرد العدو جنود ستِّ قاليونات وسفينة أخرى من أسلحتها، وجرّ السفن خلفه. ولما كان عدة قاليونات قريبة من شاطئ البحر؛ فقد نزل من فيها من الجنود إلى البر، واحترقت. وبعد هذه الهزيمة والخسائر التي نزلت بالسفن الإسلامية، انصرف الكفار ذاهبين إلى (كريت)، وكان حصن (قنديا) يفكر في الاستسلام. ولكن لما رأى رجاله ستَّ قطع من القاليونات منكّسةَ الأعلام، تمرُّ من أمامهم، وترسو في جزيرة (استنديا)؛ فقد حصلوا على كثير من المؤن، وأربعمائة مدفع وتقوَّوا فامتنعوا عن الاستسلام. وبعدما استراح القائد الربان في جزيرة (رودس) قليلًا ذهب إلى (كريت). ومن هناك إلى (استانبول)، وطلب الصفح من المسئولين.

حملة علي باشا الثالثة

كان (علي باشا) قد توجه بالأسطول السلطاني إلى البحر الأبيض المتوسط للمرة الثالثة في 1062هـ وأوائل جمادى الآخرة (في أواسط مايو 1652)، ولما كانت سفن الكفار قد وصلت إلى المضيق لم يستطع أن يخرج، فأرسل ثماني قطع من السفن الحربية إلى الخارج. إذ مرُّوا من المضيق مثل قافلة الجمال. بينما كان العدو نائمًا على سواحل الأناضول، فلم يشعر بخروجهم، وذهب القائد الربان من البر حتى (مدللي) حيث صعد على سفينة، ووصل إلى ساقيز. وكان قد خرج إلى البحر؛ لينهب جزيرة (استنديل)، ولكنه تعرض لهجمات العدو، فاضطر أن يعود إلى جزيرة ساقيز، ولما كان حاكم (قارا باطاق) قد تأخر في الخلف؛ فقد أُسر من قبل كفار (مالطة)، ثم فك أسره مقابل أسير عظيم من الكفار.

وكان الوزير الأعظم (محمد باشا الجورجي) قد جمع في أوائل هذا الشهر ألفين من الفرسان، وأرسلهم للنجدة في سبع سفن. وأرادوا أن يحُولوا دون دخول السفن المعادية في المضيق، وأن يبنوا حصنين آخرين، ولكن بعد مشاورات وتباحثٍ؛ وجدوا أن مدافعها لن تصل إلى نصف المسافة؛ لذا تُرِك هذا الأمر. وأُعطي للقائد الربان في هذه الفترة ولاية (المورة)، وأصبح (درويش محمد باشا) ربانًا بدلًا منه، وذلك في 29 من شوال (3 أكتوبر 1652). وبينما كان يستعد لتولي منصبه عُين في منصب الصدر الأعظم في 20 من ربيع الآخر (20 مارس 1653) وأُعطي منصب الربابنة وقيادة البحر (لمحمد باشا ابن جاويش) بعدما ترك ولاية إقليم (سيواس).

حملة محمد باشا

خرج الباشا المذكور في 1063 صيفًا (1653م) بالأسطول السلطاني، وقد وجد المضيق خاليًا من الأعداء. وذهب إلى (كريت)، وبعدما استراح في (خانيا) أربعة أيام حمل اثنتي عشرة قطعة من السفن الرئيسية المدافع والذخائر، وذهب إلى حصن (سلنه) في جنوب الجزيرة وعلى شاطئها، وكان كفاره يتظاهرون بالخضوع، ولكن في الواقع كانوا متمردين، فحاصره بأربعة مدافع، واستولى عليه في الرابع والعشرين من الشهر (20 يوليو 1653).

وقد اعترض على ذلك (حسين باشا) قائلًا: إن سكان هذه القلعة كانوا خاضعين للأمر السلطاني، ويدفعون الخراج. ولما عاد القائد الربان إلى (رودس) جاء الأسطول المعادي وحاصره فترة في الميناء. وكان سفير البنادقة قد وصل في أوائل هذا العام، ولما كان غير صادق في قوله فقد نُفي إلى إدرنه وسُجن. وجاء في محرم 106 (نوفمبر-ديسمبر 1653) إلى باب الدولة حاكم (بودين) الوزير (مراد باشا)، وأصبح ربانًا.

حملة مراد باشا

جهزت مستلزمات الأسطول وفق القوانين في 1064ه‍ (1654/ 1653)، وخرج الباشا المذكور بالأسطول في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة (19 أبريل 1654). ولما وصل إلى حصن المضيق بعد أربعة أيام، وجد السفن المعادية المختلفة منتظرة خارج المضيق، وعلى هذا لزم القتال. وفي اليوم الثاني، اصطفت السفن وفق قدراتها القتالية بعضها خلف بعض وسارت والريح رخاء، وقد دقت طبول الحرب، وخرجت

من المضيق. ولما كانوا على وشك الهجوم على الأعداء ركب الربان القائد فرقاطة، وانسحب خلف الأسطول مخالفًا بذلك القوانين، وكأنه يريد أن يسوق الجنود من الخلف، وأُطلقت المدافع من الجانبين حتى غطت الأدخنة السماء. وهجم الربان أمير ربان القاليونات أولًا على سفينة العدو القيادية، وقاتل ثلاث ساعات. واستشهد كثيرون ممن في داخل سفينته، وجرح البعض الآخر. وبعدما ضاعت الفرصة، أحرقوا سفينة العدو. وقفز الأعداء الذين في داخلها في البحر، وأُنقذوا بواسطة القوارب، وهجم الربان محمد – من الإسكندرية – على القاليون، وحارب ببطولة لا توصف.

وفي النهاية، مات الربان المذكور، ولما قطع الكفار أملهم في النصر؛ أحرقوا سفينتهم، فلم يستطع قاليون المسلمين أن ينفصل عن سفينة العدو، فاحترقت وغرقت السفينتان معًا. ثم أحاطت السفينة الرئيسة الإسلامية بالسفينة الرئيسة المعادية، ولما جاء قائد العدو بسفينته وخلفها سفينتان مقاتلتان أيضًا، وهجم على السفن الإسلامية؛ دفعها نحو سواحل بلاد الروم، وهناك رست السفن المعادية. وكانت السفينة الإسلامية قد اقتربت من الشاطئ؛ فخافت وانفصلت عن سفن الأعداء، وذهبت لتجمع السفن الأخرى والسفن الحربية المسماة (ماونا). وتعقبت سفن العدو من هذا النوع، وأطلقت عليها مدافعها، وأسقطت الخشبة العريضة فوق الساري الثاني. وعندئذ، هجمت عليها سفن المسلمين، ففكر الأعداء بعد ذلك في الهروب. وجاء الربان القائد إلى السفينة الرئيسة، وهجم على سفينة الأعداء القيادية. ولحقه في هذا المكان أمراء البحر، وهجموا على السفينة الخلفية لسفينة ربان المضيق بالمدافع وحطموها، عندئذ أحرقها الكفار. وهرب (قاليون) ربان الأعداء وقد استفاد من الرياح المواتية، وأطلقوا من خلفه ما يقرب من مائتي قنبلة. فتحطمت وتمزقت أشرعتها واختلطت حبالها، ولكنها سارت على هذا الشكل. وهلك أربعة من رجال الربان القائد الذين يخدمونه، وانسحبت سفن الأعداء بالقرب من (امروز)، ووصل الأسطول السلطاني أمام ميناء استانبول القديم. وجاءت السفن المصرية والجزائرية هناك، ووصلوا إلى جزيرة (يوزجه)، ومكثوا في ميناء (بويراز) ثلاثة أيام، فصلّوا على الشهداء ودفنوهم. ولما وصلوا إلى (ساقيز) جاءت إحدى عشرة سفينة جزائرية، وانضمت إليهم. وبينما كانوا سائرين من (إسكيري) إلى (أغريبوز) أخبروا بأن أسطول الأعداء في (دكيز منليك) فأدركت جزيرة (إستنديل).

نهب جزيرة (إستنديل)

وكانت سفن حكام الأقاليم قد تتبعت (قاليون) قرصان (ليجورنرو)، وأحرقوه على ساحل الجزيرة. ولما وصلوا قرب المساء إلى الجزيرة عُين (سيدي أحمد باشا) رئيسًا لهذه السفن. وقد حاصروا الحصن من جميع الجهات في منتصف الليل. ونهبوا قرى الجزيرة وأحرقوها في خلال يومين حرقًا لا يوصف. ولم يبقَ شيء من الابتهاج في تلك الجهة، ودخل أكثر الأهالي في الحصن وأغلقوا أبوابه على أنفسهم. وفي اليوم الثالث، دخل جميع الجنود في السفن، وغادروا المكان.

المعركة الثانية

عندما وصلوا إلى (دكيز منلك) جاء الرعايا، وأخبروا أن الأسطول المعادي في أسفل الجزيرة، لذا قضي الوقت في تلك الليلة في البحر. وفي صباح اليوم التالي في 26 من رجب (12 يونيو 1654)، ظهر الأسطول المعادي وحدثت المجابهة قبل الظهر وقامت معركة عظيمة بالمدافع. ولما كانت الرياح شديدة، لم يستطيعوا أن يتلاحموا مع العدو. وانفصل كل واحد من الأسطولين عن بعضهما، وذهب كل واحد منهما إلى جهة. ودخل (قاليون) سيدي (أحمد باشا) بين سفن الأعداء، ومرّ من بينهم مقاتلًا. ولما كانت الرياح شديدة لم يجد فرصة للعودة إلى الأسطول، واتجه نحو (منكشة) وذهب الربان القائد إلى (ساقيز). ومن هناك إلى (فوشه) حيث ترك سفنه، وجاء إلى (أغريبوز) (أحمد باشا) أيضًا بعدما خرج من سواحل بلاد الروم بخمسين قطعة بحرية. ولما أحس الكفار أنه يريد أن ينهب جزر (جوكه) و(منكشة) وكافالونيا ذهب الأعداء إلى تلك الجهات للدفاع عنها. ولكنهم امتنعوا عن فكرة نهب تلك الجزر، وذهبوا إلى شرق جزيرة (إستنديل) في السادس والعشرين من شعبان (12 يوليو 1654)؛ حيث أنزلوا الجنود، وخربوها.

ووصل إلى (ساقيز) بعد يومين، وأتت هناك خمس قطع من السفن التونسية. ثم زيّتت السفن في (قاره فوشه) بعد يومين، وأتت هناك خمس قطع من السفن التونسية. ثم زيّتت السفن في (قاره فوشه)، ثم خرجوا من هناك، وذهبوا إلى (ميديللي) وامروز وسلانيك. وعاد من كولوز وإسكتكور إلى ساقيز في 14 من شوال (28 أغسطس 1654)، فسمح للسفن المغربية بالعودة.

وفي اليوم الثالث، توجه إلى (كريت). وبينما كانوا سائرين بالقرب من (نقشاباره) أُخبروا بوجود (قاليون) حربي للعدو، فأرسل ضده تسع قطع من سفن الأقاليم تحت قيادة (عبدي باشا). ووجدوا بالقرب من (سانتروم) سفينة خمر، ولما كانت سفينة حربية؛ فقد خرج الكفار وتركوها. والسفن التي خرجت من قبل وجدت (القاليون) واستولت عليه. وقد هلك من الجهتين ما يقرب من عشرين أو ثلاثين شخصًا، وسقط من الجرحي، وقد جروا القاليون من خلفهم، وأرسلت سفينة الخمر التي استولى عليها أولًا إلى حصن (بودروم). وفي اليوم التالي، وصلوا أمام (قنديا) ورست السفن أمام (شاي) مبتهجة فرحة سعيدة، وجاء (حسين باشا) ليلًا أيضًا، وتحدث مع الربان القائد. وفي وقت العشاء، ركب (مراد باشا) السفينة الرئيسية وانتظم في الطريق. وذهب إلى إقليم (كريه) ووصل إلى (رودس) في أوائل ذي القعدة (في أواخر أغسطس 1654)، وبينما كان حاكم مصر آتيًا بسفينة هولندية صادف في (ميس) قطعتين حربيتين من سفن القراصنة، فتقاتلا. ولما وصل هذا الخبر إلى الجانب الإسلامي، وأرسل هناك سبع قطع من سفن حكام الأناضول، فجرُّوا هذا القليون من خلفهم، ولم يبق في داخله إلا تسعة أشخاص، ومات الباقي وثقب القليون من جميع الجهات. وأخذ عبدي باشا يتجول بين الجزر بعشر قطع حربية، وغادر جزيرة (رودس) في الحادي عشر من هذا الشهر (3 أكتوبر 1654)، أدرك مدينة أزمير عن طريق (صوصام) و(ساقيز)؛ حيث احتفل بالعيد، وجاء (عبدي باشا) أيضًا من (ساقيز)، ومر من المضيق وأذن لحكام البحار والأقاليم بمغادرة غاليبولي، ووصل في العشرين من ذي الحجة (أول نوفمبر 1654) إلى الترسانة العامرة، ونال تقدير السلطان ومكافأته، ثم أعطي له الإذن بالمغادرة مرة أخرى في حادثة (بشير باشا).

حملة مصطفى باشا

أصبح مصطفى باشا ربانًا في 1065 والخامس من رجب (21 مايو 1655).

ولما خرج بالأسطول في أوائل شعبان (أوائل يونيو)، ووصل إلى حصن المضيق، وجد أن السفن المعادية قد رسَتْ خارج المضيق، ففرض القتال في السادس عشر من ذلك الشهر (21 يونيو) يوم الاثنين. وساروا وقت الظهر بالرياح المواتية، ونظموا السفن حسب الأصول، ووضعت سفن قاليون في المقدمة وسفن أخرى خلفها، حتى وصلوا تحت مرمى مدافع العدو. وسارت سفن القاليون نحو سواحل بلاد الروم، وقد جرفها

التيار قليلًا، وبسطت قاليونات الأعداء أشرعتها. وقد أطلقت سفينة الربان القائد والسفن الأخرى مدافعها من خلف سفن الأعداء، واستمرت المعركة حتى غروب الشمس وتلوَّن وجه البحر بالدماء، وغطت الحبال والأشرعة والأخشاب وجه البحر. وكان رئيس جماعات الإنكشارية رئيس ثلاث وثمانين جماعة في حالة لا يستطيع بها أن يتحرك بعدما قاتل قتالًا عنيفًا، ثم جرح بشظية قنبلة، وأحاط بقاليون (قاطرجي أوغلو) سبعٌ من سفن الأعداء، فحارب حتى وقت العشاء، وفقدت السفينة عجلة قيادتها وأعمدتها، وأشياء أخرى. ولم يبقَ في السفينة مما يقرب من أربعمائة مجاهدٍ غازٍ إلا ثلاثون، وأخذت سفينة تجر هذه السفينة بعدما قطعت حبالها، فتركها العدو؛ لأنه لم يستطع أن يجرَّها. ولما ساقت الرياح جسم السفينة الخالية من كل شيء إلى سواحل الأناضول؛ خرج من بقي في داخلها من الأحياء إلى البر، وأحرقوا السفينة.

كما أن سفينة من سفن الأعداء احترقت، والآخرون غرقوا. وبعد المعركة، خرج الأسطول السلطاني وتوجَّه إلى ناحية ما، وأُرسلت سفن الحكام إلى جزيرة (بوزجا)؛ حيث صُليت صلاة الجنازة على مائة وعشرين شهيدًا، غير من كان مجروحًا من الجنود الجدافين.

كما أن الكثير من الأعداء، قُتلوا وفقدوا ما يقرب من سبع قطع من قاليوناتهم، وأكثرهم قد جرح. واتجه الأسطول السلطاني نحو ساقيز. كما أن الكفار قد أنزلوا جنودهم، وحاصروا حصن (منكشة). ولكن الربان القائد بذل كل جهده، فهجم عليهم من البر والبحر حتى بث الرعب في قلوبهم.

وبعد كل هذه الجهود، أصر العدو على الهجوم، واقترب من الاستيلاء على القلعة، فأحضر الباشا المدافع من الأناضول، ونقلها من البر على السفن؛ فاضطروا للهروب. وقام الباشا المذكور بأمور عظيمة مثل الأعمال العظيمة التي ذكرناها. ولما رجع إلى باب الدولة؛ أُكرم إكرامًا عظيمًا فأُعطي له إقليم أرضروم.

حملة كنعان باشا

نظم الأسطول السلطاني من جديد في 1066هـ (1656/ 1655)، فجاء الباشا المذكور من (سلستره)، وأصبح ربانًا خلفًا لـ (مصطفى باشا) في شعبان (مايو/ يونيو)، وخرج من استانبول في الثاني والعشرين من هذا الشهر (15 مايو 1656) بأربعين سفينة حربية من طراز

(قادرغة)، وعشر سفن (مافنا) وثلاثين قاليونًا، ووصلوا إلى (بشيكطاش)؛ حيث مُدت السفن بجميع لوازمها، وخرج من هناك فورًا، ووصل إلى المضيق، فنظموا السفن وفق العادة: القاليونات في المقدمة، وخلفها سفن (مافنا)، وخلفها السفن السائرة بالمجاديف. وقرروا أن يهاجموا سفن الأعداء في خارج المضيق. وفي يوم الاثنين، الثالث من رمضان (25 يونيو) صباحًا، خرج من المضيق. وفي نفس الوقت، خرج قاليون ملأ الهواء أشرعته من ناحية الأعداء، وسار نحو الأسطول العثماني، فاتجهت السفن الإسلامية نحو سواحل الأناضول. ونتيجة لشدة الهواء ومدافع هذا القاليون؛ تداخلت السفن بعضها ببعض، وفسد النظام الذي كان قد رُتِّبت عليه السفن في الأول، وسادت الفوضى، وظلت كل سفينة في ناحية ما. ورَسَا بعضها وجنح بعضها، ولم يبق هناك مجال للحركة والقتال، ونزل الجنود في البحر. ولما كانت المياه ضحلة، فقد جنحت أكثر السفن فكانت هزيمة مخجلة. كما أن الجدافين الذين كانوا من أسرى الكفار انتهزوا فرصة الهزيمة وجدفوا سفنهم والتحقوا بالأعداء. كما أن العدو أحرق السفن الجانحة، وكان القاليون الذي جاء أولًا باسطًا أشرعته قد جنح أيضًا في المياه الضحلة، فأحرقه العدو أيضًا.

ومات آلاف من الأشخاص غرقًا في البحر كما أسر الكثيرون، كما أن أربعة آلاف من جدَّافي أسرى الكفار رجعوا إليهم. فكانت هزيمة وخسائر عظيمة لم يحدث مثلها من قبل.

ودخل الربان القائد الحصن بسفينة القيادة وقد رأى هذا المنظر، كما كان معه سفينة ثقيلة من طراز (ماونا) وسبع عشرة سفينة (قادرغه). وهذا هو تاريخ الهزيمة: (أعطوا الكفار الأسطول بدون حرب ولا قتال).

وهكذا نال الكفار هذا القدر من الجدافين الأسرى، والسفن والمدافع وغيرها من الذخائر والمؤن. واستولى العدو على جزيرة (بوزجه) دون أن يقاومه أحد، وحاصر قلعتها واستولى عليها صلحًا. ثم ذهب إلى جزيرة (ليمني) واستولى على حصنها بعدما حطمها بمدافعه. ومن جهة أخرى، صدر الأمر السلطاني ببناء سفن جديدة حتى ينتظم أسطول قوي جديد، وبدأ العمل - فعلًا - وفقًا للأمر السلطاني.

أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يعينهم في التغلب على أعدائهم والانتصار عليهم.

تكملة الجزء الأول

كل هذه الحملات كانت من أجل جزيرة كريت، ومازالت مستمرة حتى يومنا هذا. ولنكمل القسم الأول بذكر بعض الأشياء الخاصة بهذه الجزيرة:

بناءً على ما كتب في كتاب الأطلس، فجزيرة (كريت) جزيرة مستطيلة، وطولها من الشرق إلى الغرب مائتان وسبعون ميلًا، وعرضها خمسون. ومحيطها الدائري خمسمائة وثمانون ميلًا. وفي داخلها، جبال عظيمة ومياه جارفة، وهي جزيرة بهيجة وخصبة، يقول عنها بلينوس: (ينبت في جزيرة كريت أحسن المحاصيل، وفواكهها جميلة، وفيها العسل والزعفران والصمغ، وآنتيمون. ولا توجد فيها الحيوانات المفترسة، مثل: الذئب والثعلب والثعبان. وإذا جلبوا إليها البومة؛ تموت في التوّ والحال.

ويقول الكتاب الأوائل: إن (خوبيتر) هو الذي كان يحكم هذه الجزيرة، ثم خلفه (راد مانتوس)، وبعده (مينوس) ومنهم أخذ اليونانيون الحكم، وظل في أيديهم إلى أن ظهر الرومانيون والقياصرة، فانتزع (متللوس) الحكم من اليونانيين، وجعل الجزيرة تحت حكمه؛ لذلك سمي هذا القائد (كرتيكوس)، ثم دخلت تحت حكم قيصر بيزنطة، وكان حاكم (فلاندريا) وملك القسطنطينية والجزيرة، ووهب هذه الجزيرة لحاكم مونكرات. وباع هذا جزيرة كريت لحكام البندقية في 1194 الميلادية، وأصبحت الجزيرة من نصيب سلطنة (قاندية) من البنادقة.

وجاء في كتاب الأطلس أيضًا أن (أرسطو طاليس) يقول في المقالة الثانية والباب الثامن من كتابه (تدبير المدينة): إن هذه الجزيرة لازمة للسلطنة اليونانية؛ لأنها في وسط البحر، وقريبة من شواطئ اليونان. ولما كانت إحدى جهاتها قريبة من (الموره) (وأوروبا)، وجهتها الثانية قريبة من (رودس) (وآسيا)؛ فقد استولى عليها في الماضي ملك (مينوس)، واقتحم البحر واستطاع أن يحتل جزرًا كثيرة. وأقام حفلات فيها عندما كان عاطلًا من العمل.

والأوضاع الأخرى للجزيرة مكتوبة في (المينور) الذي ترجمناه، ونكتفي هنا بهذا القدر. وهنا يتضح شدة تمسك البندقية بهذه الجزيرة؛ حيث تضحي في سبيلها بكل غالٍ ورخيص.

الإضافة

لم يرد في كتاب الأطلس أي معلومات عن فتح هذه الجزيرة في الماضي، ولما كانت الكتب الإسلامية قد تناولت هذا الموضوع. إذ جاء في (الروض المعطار) أن والي مصر عبد الله بن سعد فتح هذه الجزيرة في عهد بني أمية، ولا بد أنه يقصد أنه استولى على بعض أماكنها أو أخضع بعض جهاتها. وفي عهد العباسيين، ظهرت في الأندلس أيام حكم ابن هشام من الأمويين حادثة (ربض)، وقد نفي ما يقرب من عشرة آلاف شخصًا من قرطبة، واستقرت هذه الجماعة فترة في الإسكندرية، وانتقلت هذه الجماعة من الإسكندرية إلى جزيرة كريت واستولت عليها، وأصبح رئيسهم عمر بن عيسى ملكًا لهم، وظلت كريت ثمانين عامًا في أيديهم. وفي عام 345هـ (597/ 596م)، انتقلت إلى أيدي الكفار مرة أخرى، واستولوا عليها. وقامت حادثة الربض كما تحكي النجوم الزاهرة في رمضان 198هـ (مايو 814م) بسبب الظلم الذي وقع على أهل قرطبة، إذ هؤلاء لما وقع عليهم من الظلم، وجرى بينهم وبين الحاكم قتال؛ حيث انتصر فيه الحاكم ونفَى الثائرين.

وكان انتقال الأندلسيين إلى جزيرة كريت في سنة 212هـ (828/ 827م)؛ لإخماد ثورة أهل (كريت) في عهد عبد الله بن طاهر - من الصفاريين - والي مصر من قبل العباسيين. ويقال إن سلالتهم قائمة إلى يومنا هذا، ولكن النويري يحكي ذلك بشكل آخر في (نهاية الأرب). ويقول إن الذي غزا هذه الجزيرة قبل المسلمين (جنادا)، وهو الذي أنشأ البرج العربي في رودس، وكان ذلك في أيام معاوية، وفي سنة 92هـ (808/ 807م) استولى على جميع الجزر بعد فتح الأندلس، أما كريت فقد استولى على بعض أماكنها. كما أن قائدها (هارون الرشيد حامد بن منصور) استولى على بعض أماكنها الأخرى، ثم استولى أبو حفص عمر بن حبيب الأندلسي على قلعة من قلاعها، وجعلها مقرًّا له، وذلك في عهد المأمون العباسي. ومع مرور الأيام، استولى على كل الجزيرة، وفرض على الكفار الخراج، وأصبح أبناؤه أصحاب الجزيرة بالوراثة. وفي سنة 198هـ نفى الحكم بن هشام الأندلسيين إلى الإسكندرية، وهؤلاء انتقلوا بالهجوم على الجزر المجاورة بأربعين قطعة بحرية، ولم يكن قيصر القسطنطينية قادرًا على الحراسة؛ لذا أراد أن ينصرف عن طريق السلم، فأرسل القيصر (أرمانوس) إلى ملك الجزيرة عبد

العزيز بن حبيب سفيرًا، ووضع أسس الصداقة. وقال: إننا سنعطي كل ما يحصلون عليه بعدما يبنون السفن ويعدون الجنود للقتال، وينهبون البلاد، وأكثر من ذلك. لماذا كل هذه المشاق والصعوبات؟ لقد انقطعت الطرق من جانبين، وزال الأمان. والأرجح ألا يخرج الملك بسفنه، وليأخذ منا ما يحصل عليه عن طريق النهب، وإننا سوف نرسل إليه برضانا مبتهجين.

وبهذه الطريقة الخادعة، استطاع أن يخدع عبد العزيز ويصده. وظن هذا الأخير - هو والأعداء - أنها نصيحة غالية، ووافق على هذا الأمر فسحب السفن، وبات لايهتم بالجنود. وأخذ أرمانوس يرسل، سنة أو سنتين، الهدايا التي وعد بتقديمها؛ حتى يكمل حيله وخداعه. وبعث بتجَّاره لتلك الجهة، وبُلي عبد العزيز بجمع المال، ونسي القتال والغزوات، وانصرف عنها.

ولما وقع الصلح مع العدو؛ قطع مرتبات الجنود، قائلًا: (إن إعطاء النقود إلى الجنود - عبثًا - ؛ يفرغ الخزانة من أموالها). ولم يعط الناس حقوقهم، وبعث القيصر المكار رسوله مرة أخرى، وأخبر عبد العزيز أن بلاده قد أصابها القحط، ولم تنبت الأراضي، ولم تنتج المحاصيل، فلتذهب ما يقرب من اثني عشر فرسًا لترعى في مراعيكم، وما تلده من الذكور للملك. فوافق على ذلك وأرسل القيصر الخيول. وبعد ذلك، أرسل حاكم الأناضول - ويطلق عليه في لغتهم اسم (دمستق) - في سفن مع الجنود، ووصل هذا إلى كريت، وأركب الخيول السفن. وبينما كان عبد العزيز غافلًا، وصلوا إلى عاصمة البلاد. وعندما فتحت الأبواب في وقت صلاة الفجر، دخلوا القصر، وقتلوا كلَّ من وجدوا فيه. وقتل عبد العزيز في هذه الفترة، فأخذوا كل الأموال التي قد أرسلوها، وأكثر منها وأرسلها إلى القيصر. وصدر أمر القيصر بأن الرعاة المسالمين من المسلمين يعطون الأمان، وأما الجنود فيقتلون. فقام الكافر بتنفيذ أوامر القيصر، ثم نصب حاكمًا على (كريت)، ورجع إلى القيصر. وكان هذا الحادث سنة 305هـ (918/ 917م). وفي تلك السنة، لم يأخذ والي كريت المسيحي الضرائب من المسلمين، ولكنه جمعهما في عيد الميلاد، وقال لهم: (قد أحسن القيصر لكم، وأنعم عليكم، والأنسب لكم أن تذهبوا إليه، وتهنئوه وتشكروه).

فذهب مائة منهم إلى (أرمانوس)، الذي أكرمهم وألبسهم الخلع، فندم الذين لم يذهبوا. وفي العام القادم، ذهب أكثرهم. ولكنه في هذه المرة، أمر بسجنهم جميعًا، ومنع

عنهم الطعام والشراب، وعرض عليهم أن ينفروا، ولما كادوا يموتون جوعًا تنصَّروا، ورجعوا إلى (كريت). ولكن والي (كريت) منعهم من دخول منازلهم، ووضع حراسًا يحرسونهم حتى يتنصر أولادهم وزوجاتهم. وبهذه الطريقة، أصبح كل من في كريت نصاري. وهذا لا يناقض ما يذكره الأطلس؛ لأن الأطلس - وفق ما يقتضي فن الكتابة - ترك هذا الموضوع مستورًا.

العبرة من القصة

يجب على الحكام ألا يغفلوا عن حيل العدو في أي وقت من الأوقات، وليس صحيحًا أن يخدع حاكم بنصائح العدو دون أن يفكر، وأن يترك الفكر والعقل، وأن يتساهل في موضوع القتال والغزوات، والندم فيما بعد لا ينفع. ويجب على الإنسان أن يهتم بعمله، وأن يفكر في كل جوانبه.

الجزء الثاني

الترسانة العامرة، وأمور الأسطول والبحار والموضوعات الخاصة بهما مع أجزائه المختلفة

القسم الأول

يحكي عن الربابنة في الدولة العثمانية منذ إنشائها إلى أيامنا هذه

أولًا: إن كلمة (قابودان) تعني رئيس القوم وقائدهم، مخففة من كلمة (قيتان) الإيطالية. ولما كانت البلاد الإسلامية قد بدأت فتوحاتها مستعينين بالروم عن قريب؛ فكل الكلمات التي تتعلق بأمور السفن والبحر إما إسبانية أو إيطالية أو رومية، واستخدموها كما سمعوها. والكلمات مثل آلارغة وآلاباندة وأورسة بوجهٍ من هذا القبيل. وبعد ذلك، استطاع الربابنة أن يستولوا على مقاطعة غليبولي؛ لأنهم كانوا في حاجة إليها بعد فتح استانبول، فأعطيت هذه المقاطعة لبعض الوزراء كمصدر رزق لهم، ونُصّبوا ربابنة. كما أن بعضهم من الذين قاموا بخدمة تساوي خدمة حكام الأقاليم، أُعطيت لهم ولاية الجزائر، ثم الوزارة.

وها هم كل هؤلاء الربابنة؛ وفق هذا الترتيب:

- **سليمان بك**: ويعرف بلقب بـ (الطا أو غلي)، وقد قام بخدمات كثيرة، إذ أنزل السفن من البر إلى البحر عند فتح استانبول، وكان أول ربّان هو سليمان بك هذا.
- **يونس الخاص**: بعد فتح السلطان (محمد الفاتح) (استانبول)، أوصاه بفتح (اينوز)، وترك له أمور الأسطول، وبعثه هناك من البحر.
- **محمود باشا**: عندما كان صدرًا أعظمَ، أعطيت له محافظة (غاليبولي) في 872 هـ (1467/ 1468)، وأمر بأن يجهز السفن لفتح (آغريبوز).
- **أحمد باشا كدك**: كان من الوزراء، وكلف في 880 هـ (1475/ 1476) بالذهاب إلى كفه وآزاق، وبعد العودة منهما ذهب وفتح (بولية).
- **مسيح باشا**: عندما كان من الوزراء أصبح في 884 هـ (1450/ 1479م) ربانًا

وقائدًا، وذهب لفتح (رودس)، وعندما عاد من هناك أُعطيت له محافظة (كليبولي).

- **كويكو سنان باشا:** عندما كان ربانًا في سنة 897 هـ (1401/ 1402م)، وصل إلى أولونية بثلاثمائة قطعة بحرية، ونهب تلك السواحل.
- **داود باشا الثاني**: كان ربانًا في عهد السلطان (بايزيد)، وذهب في سنة 898هـ (1492/ 1493م) لفتح (إينه بختي) فوصل في سنة 907هـ (1501/ 1502م) لنجدة جزيرة (ميديللي).
- **أحمد باشا ابن هرسك**: بينما كان وزيرًا أعظمَ عُزل من منصبه، وفي سنة 910هـ (1504/ 1505م) أصبح ربانًا، واستمر في منصبه خمس أو ست سنوات، وأصبح عام 917هـ (1511 / 1512م) وزيرًا أعظم من جديد.
- جعفر بك: أصبح ربانًا في عهد السلطان (سليم)، وصُلب في سنة 926هـ (1409 / 1410) في عهد السلطان (سليم) متهمًا بالظلم.
- **بيلاق مصطفى باشا**: كان ربانًا في فتح (رودس)، فعُزل من منصبه، وذهب إلى (مصر).
- **أحمد بك كمانكش**: خرج بالأسطول في سنة 940هـ (1533 / 1534)، وكان ربانًا في منتهى القوة يستطيع أن يسبح معلقًا بين إصبعيه خروفين، وكان ماهرًا في شد القوس ورمي النبل، ولا يستطيع أن يجاريه في هذا أحد. وله منزل في ميدان السهم في (استانبول).
- **خير الدين باشا:** جاء من الجزائر في 940 (1533 / 1534)، وأصبح ربانًا، وظل في منصبه إلى أن مات في عام 953هـ (1546 / 1547م)، وتاريخ وفاته: (مات رئيس البحر) وله مدرسة وضريح في (بشكيطاش)، وقد كتبت مناقبه وغزواته بالتفصيل.
- **محمد باشا الطويل من البوسنة:** كان من خدمة الحرم الخاص، فترك هذا المنصب، وأصبح ربانًا مكان (خير الدين باشا)، ثم أُعطي له إقليم (بلاد الروم)، وكان وزيرًا أعظم في سكتوار، وقد نجح في إقامة كثير من المؤسسات الخيرية. سافر إلى المغرب في سنة 998هـ (1589 / 1590م)، ومات بعد العودة.

- **سنان باشا أخو رستم باشا:** أصبح ربانًا بعد من مرّ ذكر اسمه. ومات سنة 961هـ (1553 / 1554م) وتاريخ وفاته: (غاص الربان في بحر الرحمة) وله جامع في (بشيك طاش).
- **بياله باشا:** من أصل كرواتي، خرج في 954هـ (1547 / 1584م) من وظيفته في القصر السلطاني، وأصبح ربانًا في 962هـ (1554 / 1555م) وأُعطي له محافظة (كليبولي). وبعد ثلاث سنوات من الخدمة أُعطيت له ولاية (الجزائر) مقابل خدماته، وفي 876هـ (1559 / 1560م) فتح (جربة) وأتى بربان (آنابولو)، وأصبح صهر ولي العهد السلطان (سليم).

وفي 973هـ (1565 / 1566م) استولى على (ساقيز)، ورقي إلى منصب الوزارة، وأصبح في 975هـ (1567 / 1568م) الوزير الثالث من الخاصة، ومات في الثاني من ذي القعدة (29 أبريل 1568)، ومدفون في فناء جامعه الذي في (قاسم باشا).

وتاريخ وفاته هو (تعرض بياله باشا لأجله فجأة)، وكانت حديقته في (أسكدار) من عجائب الدنيا.

- **علي باشا المعروف بابن المؤذن:** بينما كان قائدًا للإنكشارية في سكتوار، أصبح ربانًا بعدما اعتلى السلطان (سليم) عرش السلطنة في 875هـ (1567 / 1568م)، واشترك في فتح (قبرص). وفي 979هـ (1571 / 1572)، واستشهد في هزيمة الأسطول. واستمر في منصبه أربع سنوات.
- **قيليج علي باشا:** كان من رجال (خير الدين باشا)، ومنه تعلم أمور البحر، وبينما كان ربان (الجزائر)، وعندما هُزم الأسطول؛ جاء إلى باب الدولة، وأصبح ربانًا. واستمر في منصبه سبعة أشهر، ومات في 95هـ (1576 / 1587م) وهو مدفون في فناء جامعه الذي في (طوب قابي).
- **إبراهيم باشا:** كان ربانًا بعد من ذكر اسمه في 996 هـ (1587 / 1588م)، وفصل عن منصبه.
- **حسن باشا أولوج:** جاء في ذلك التاريخ من (المغرب)، وأصبح ربانًا، وسافر

إلى المغرب في سنة 998هـ (1589 / 1590م). ومات بعد العودة.

- **سنان باشا جغالة أوغلو**: عندما كان حاكم (وان) أصبح ربانًا بعد الربان السابق، وخرج إلى البحر في 999هـ (1590 / 1591م). ذهب إلى ديجة مرتين، ونهبها، وعُزل من منصبه في سنة 1003هـ (1594 / 1595م)، وأُعطيت له الوزارة.
- **خليل باشا البوسنوي**: كان وزيرًا وصهرًا للسلطان. وقد أصبح في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 1003 (29 يناير 1595م) ربانًا، وخرج إلى البحر الأبيض المتوسط في سنة 1596م؛ للدفاع عنه، وعزل في 1006 (1597 / 1598م).
- **سنان باشا جغالا أوغلو**: أصبح ربانًا للمرة الثانية، وذهب بالأسطول إلى (إينه بختي) في سنة 1007 (1598 / 1599م) وإلى (مسنة) في سنة 1008 (1599 / 1600م)، وذهب إلى الإسكندرية في سنة 1012 (1603 / 1604)، وأمر بإحضار الخزينة. وفي سنة 1013هـ (1604 / 1605م)، وعُين قائدًا للحملة الإيرانية وهو ربان، وهناك توفي.
- **مصطفى باشا ابن قايا باشا**: كان جغالا أوغلو قد جعل أغا المسمى برويز نائبًا عنه، وقد كتب في بعض التاريخ أنه سافر إلى البحر بالأسطول، وهو نائب.
- **درويش باشا**: عندما كان رئيسًا للبساتين السلطانية، عُزل من منصبه هذا؛ ليكون ربانًا في 15 شعبان 1014 (26 ديسمبر 1605م)، أصبح وزيرًا أعظمَ في 15 المحرم 1015 (23 مايو 1606)، لم يسافر. وقتل من قبل السلطان بعد وقت قليل. وتاريخ وفاته: (قتل السلطان درويش).
- **جعفر باشا**: وكان من عبيد (قيليج علي باشا)، وأصبح ربانًا بعد (درويش باشا)، وسافر مرتين وأحضر خزانة مصر من الإسكندرية سنة 1015 (1606 / 1607م)، وفي سنة 1016 (1607 / 1608) ذهب إلى (أوارين) لحراستها، وعُزل عن وظيفته.
- **حافظ أحمد باشا**: قد نشأ في الحرم السلطاني، وأصبح في 1016 (1607 / 1608م) ربانًا، وذهب في 1017هـ (1609/ 1608م) إلى الإسكندرية، وأحضر خزينة (مصر) وإيراداتها. بينما كان الأسطول في (الإسكندرية)، هجمت سفن القراصنة المقاتلة على السفن المصاحبة لقوافل السفن المصرية،

فهزمتها في (رودس)، واستولى على عدة سفن. وصل الربان ووجد تلك السفن مهزومة، ولما رجع إلى باب الدولة؛ عُزل من منصبة لهذا السبب.

- **خليل باشا:** من أصل أرمني، رُقي من قيادة الإنكشارية، وأصبح ربانًا في 1018 (1609/ 1610)، وذهب بالأسطول إلى البحر الأبيض المتوسط، وقام بحملة (جهنم السوداء). ولما رجع عزل من منصبه.
- **محمد باشا:** كان ابن بيطار في جمرك البر، وقد نشأ في الحرم السلطاني، وذهب إلى مصر. وقام هناك بأعمال عظيمة، ولما عاد أصبح صهرًا، عُين ربانًا في 1019هـ (1610/ 1611م)، وخرج إلى البحر عام 1020 (1611/ 1612)، وقام بحراسته، وذهب إلى (رودس) في سنة 1022 (1613) بالأسطول، فاستولى العدو على تسع قطع بحرية، فقفل راجعًا، وعُزل من منصبه.
- **خليل باشا:** أصبح خليل باشا قابودانًا للمرة الثانية في 1023 (1614/ 1615م)، ووصل إلى (مالطة)، وخرج مرة أخرى للحراسة في 1024 (1615)، وأصبح وزيرًا أعظمَ في التاسع من محرم 1026 (17 يناير 1617)، وذهب إلى (أردبيل).
- **علي باشا:** ابن أحمد باشا من (استانكوي)، وهو الذي قتله (يحيى جلالي) عندما كان حاكمًا على (تونس). وقام بوظيفة حاكم (دمياط) خمسة عشر عامًا، وأصبح حاكم (اليمن) في 1011 هـ (1602 / 1603م) وواليًا على (تونس) عامين. ولما كان في محافظتي المورة و(قبرص) أصبح وزير ديوان، ثم عين ربانًا، ولما اعتلى السلطان مصطفى عرش السلطنة؛ عُزل عن عمله.
- **داود باشا:** جاء من ولاية بلاد الروم، وأصبح ربانًا لأربعين يومًا، ثم أعيد إلى ولايته في بلاد الروم.
- **علي باشا:** عين ربانًا للمرة الثانية، وخرج إلى البحر المتوسط لحراسته في سنتي 1027/ 1028هـ (1617 / 1618م) (1618/ 1619م)، وأصبح وزيرًا أعظمَ في 1029ستة عشر من المحرم (23 ديسمبر 1619م)، ومات في 1030 (1620/ 1621).

- **خليل باشا:** أصبح ربانًا للمرة الثالثة، وذهب إلى البحر الأسود. وحضر إلى خوتن لإقامة الجسر.
- **مصطفى باشا:** من نيكده، هو قائد الجيوش الإنكشارية في (خوتن)، وعندما عاد إلى الجسر أصبح ربانًا. بينما كان الربان الذي قبله في السفينة القيادية ينزل، ترك عليها، ونزل (مصطفى باشا) إلى البر. وبينما كان دفتردارًا قُتل في 1042 (1632/ 1633).
- **خليل باشا:** أبقيَ في مكانه للمرة الرابعة، وجاء بالأسطول (استانبول)، وكان رجب باشا قد ذهب إلى البحر الأسود كقائد، أما هو فقد ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط في 1038هـ (1628 / 1629م)، وهكذا احتل مكانه، وأنقذ كرامته.
- **رجب باشا:** بينما كان رئيسًا للبساتين السلطانية أصبح وزيرًا، وأصبح في 1031هـ (1621/ 1622م) نائب الربان في البحر الأسود. وقد حارب (القازان) حتى أواخر رمضان (10 أغسطس 1622م) أربع مرات، ثم رجع وأصبح ربانًا في 1032هـ (1622 / 1623) وذهب إلى البحر الأبيض المتوسط، وقام بالحراسة وذهب إلى البحر الأبيض المتوسط للمرة الثانية؛ لإجلاس الخان على العرش. وفي حملته الثالثة، حارب مائتي سفينة روسية، وتغلب عليها. ثم أصبح قائمقامًا ووزيرًا أعظمَ، وقُتل في شوال 1041هـ (مايو 1631).
- **حسن باشا:** كان من رجال أغا دار السعادة، وكان يعرف في (استانبول) بحسن جلبي من الجه، وبينما كان رئيس الإسطبلات السلطانية أصبح ربانًا في الثامن عشر من شهر شوال سنة 1035هـ (13 مايو 1626). وخرج في حملته الأولى إلى البحر الأبيض، ووصل إلى الخليج، وسافر في المرة الثانية في البحر الأسود، إذ ذهب ليجلس (جانبك كيراي) على العرش، وعزل عن عمله في 1041هـ (1631/ 1632)، وذهب إلى بلاد الروم ليسوق الجنود، ومات في يكيشهر.
- **مصطفى باشا ابن جانبلاط:** بينما كان في دائرة الحرم السلطاني سلاحدارًا، رقي إلى منصب الربابنة، وذهب إلى البحر الأبيض، واستولى على اثنين من سفن

الإسبان، ورجع إلى استانبول ليصبح حاكم بلاد الروم. وذهب لنجدة (روان)؛ ليسوق العساكر، فمات في أرضروم في 1046 (1637/ 1636).

- **جعفر باشا:** بينما كان رئيسًا لبستانين أصبح ربانًا في الثالث عشر من ذي الحجة (1يونيو 1163). وفي حملته الأولى ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط، وقد وقف أمام غاليون للأعداء، وكاد أن يؤسر. ولم يستطع أن يقوم بأي عمل في حملته الثانية إلى البحر الأسود؛ فأعطيت له ولاية (بودين)، وقتل في 1045هـ (1635 /1636).
- **حسين باشا:** بينما كان أمير إسطبلات السلطان أصبح ربانًا في 1044 الرابع من شهر المحرم (أول يوليو 1634)، وسافر إلى (روان) تحت رعاية السلطان، وكان كتخدا بياله، ظل نائبًا في الترسانة، وأنعم عليه بمنصب حاكم (مصر) في 1045هـ (1636/ 1635)، والآن هو قائد قوات الحراسة في (كريت).
- **قره مصطفى باشا:** بينما كان قائد الإنكشارية أصبح ربانًا في العودة من (روان)، وجاء إلى باب الدولة، وسافر إلى البحر الأبيض المتوسط 1046هـ (1637/ 1636)، ونظم أعمال الترسانة العامرة، وعمل على صنع أربعين سفينة حربية كل سنة.
- **مصطفى باشا سلاحدار:** أصبح ربانًا في سنة 1047هـ (1638/ 1637)، وذهب مع السلطان مراد إلى حملة بغداد ثم أعطيت له ولاية بلاد (الروم)، ثم رفع إلى (طمشواره)، وقُتل 1643/ 1052).
- **حسين باشا:** أصبح ربانًا مكان الذي ذكر اسمه مرتين. وبينما كان في البحر الأسود، أسند إليه حراسة (أوزي) في جمادى الأولى من سنة 1050 (أغسطس/ سبتمبر 1640).
- **سيواش باشا:** بينما كان سلاحدارًا خرج من الحرم السلطاني، وأصبح ربانًا مكان الذي سبق، وذهب في 1051هـ (1941 / 1642م) إلى أزاق بالأسطول، ولما رجع دون أن يستولي عليها عُزل من عمله. ومات وهو وزيرٌ أعظمُ في 1065 (1656/ 1655).
- **بياله باشا:** أصبح ربانًا 1052 (1643/ 1642) وخرج بالأسطول إلى البحر

الأبيض، وذهب إلى السواحل المعادية، واستولى على سفينة محملة بالخشب. ولما رجع بُلّغ عنه خطأ أنه أخذ أموالًا من (تونس)؛ فقُتل في الخامس من المحرم سنة 1053 (26 مارس 1643).

- **بكير باشا:** بينما كان حاكم رودس عُين ربانًا مكان الربان السابق، وذهب بالأسطول إلى البحر الأبيض، وذهب أيضًا إلى شواطئ (قليوني). ومات عند العودة في أوائل المحرم 1054 (في أوائل مارس 1644).
- **يوسف باشا:** بينما كان سلاحدارًا خرج من الحرم السلطاني؛ ليكون ربانًا في الثالث من ربيع سنة 1054 (21 فبراير 1564). وفي سنة 1055 (21 فبراير 1644م) ذهب إلى (كريت) بالأسطول، واستولى على حصن (خانيا). ولما عاد أصبح صهرًا، وقتل في الخامس من ذي الحجة من نفس السنة (22 يناير 1645م) بدون سبب؛ إثر مزاح.
- **موسى باشا:** عندما كان من الوزراء، أصبح ربانًا بدلًا من الذي سبق ذكر اسمه، ووصل إلى كريت بالأسطول في 1056 (1647/ 1646) فأحاط به قليون القتال أمام أغربيوز، فاستشهد في الخامس عشر من ذي الحجة 1056 (22 يناير 1647).
- **موسى باشا:** بعد ما مر بوظائف مختلفة مثل كاتب الإنكشارية وآغا وحدات الإنكشارية، فقائد الإنكشارية؛ أصبح ربانًا بدلًا من الربان السابق. وذهب بالأسطول إلى (كريت). بينما كان ينقل جنود الأناضول وبلاد الروم، ظل محاصرًا في (أنابولو) فعزل عن عمله، وعين مكانه فضلي باشا.
- فضلي باشا: خرج بالقاليونات من (استانبول) في جمادى الآخرة سنة 1057 (يوليو 1647م) وصل إلى (كريت) مارًّا بـ (ساقيز). وبعد ما وصل إلى باب الدولة، عزل عن وظيفته في الثامن والعشرين من ذي القعدة ذلك العام (5 يناير 1647).
- **ابن عمار:** بينما كان رئيسًا للترسانة أصبح ربانًا مكان الربان السابق، ووصل بالأسطول إلى المضيق فحوصر، فبُعث إليه من يقتله. وقُتل.
- **أحمد باشا:** أصبح ربانًا مكان ابن عمار، فخرج بالقاليونات والأسطول الكبير

في ربيع الآخر من سنة 1059 (أبريل/ مايو 1649)، فبوغت بالقتال في (فوجه)، ووصل إلى (كريت). وكان يأمل أن يهاجم حصن (سودا)، فاستشهد في الثامن عشر من رجب (28 يوليو 1649).

- **بيقلي مصطفى باشا:** بينما كان حاكمًا في (بلاد الروم)، ومشتركًا في حملة (كريت)، أصبح ربانًا بترشيح (حسن باشا) له، ثم أقرته عليه الدولة في منصبه.
- محمد باشا: جاء من مؤسسة حيدر أغا زاده الإنكشارية، غادر مصر وأصبح ربانًا في الثالث من شوال سنة 1059 (10 أكتوبر 1649)، ولما وصل إلى المضيق بالأسطول لم يستطع أن يخرج، وعُزل من عمله في الحادي عشر من شوال سنة 1060 (18 أكتوبر 1649)، وقتل في سنة 1066هـ (1656/ 1655).
- **علي باشا:** بينما كان حاكم (رودس)، عين ربانًا مكان (محمد باشا)، وساعد (كريت). وفي حملته الثانية أخذت منه في معركة (نقشه) عدة سفن، فعزل من عمله بعد سنة.
- **درويش محمد باشا:** أصبح ربانًا في التاسع والعشرين من شوال 1062هـ (3 أكتوبر 1652)، وصُدق على وظيفته من قبل السلطان في 22 ربيع الأول 1063 (3 أكتوبر 1652)، لم يسافر، ومات سنة 1064 (1654/ 1653).
- محمد باشا ابن شاويش: عزل من ولاية (سيواس)، وعين ربانًا في أوائل 1064 (1653م) ووصل بالأسطول إلى (كريت)، واستولى على حصنها، ولما وصل إلى (رودس) عُزل عن عمله، وسجن هناك.
- **مراد باشا:** كان – قديمًا – وزيرًا أعظم، وبينما كان ذاهبًا بالأسطول السلطاني إلى مصر، تقابل في المضيق مع الأعداء، وهزم الكفار. وبعدما رجع من (كريت) أصبح – مرة ثانية – وزيرًا أعظمَ في رجب 1065 (مايو 1655)، وكلف **دلاك** مصطفى باشا الربابنة، فلم يقبله.
- **مصطفى باشا:** ويشتهر بعازف المزمار، أصبح ربانًا في الخامس عشر من رجب (9 مايو 1656)، وخرج بالأسطول، وقاتل الكفار في المضيق. ووصل إلى (كريت). ولما كان الكفار محاصرين حصن (منكشة)، ساعد رجال الحصن؛ حتى أنقذه من الكفار. ولما رجع علي إلى باب الدولة، أصبح قائمقامًا ووزيرًا

أعظمَ بعد عدة أيام. بعدها اقتضت الأمور أن يرسل إلى أقليم أرضروم واليًا له.

- **مصطفى باشا:** صهر خاليجي أوغلو أصبح ربانًا في أوائل رجب 1066 (25 أبريل 1656)، فأعطي له بعد ثلاثة أشهر ولاية مصر.
- **كنعان باشا:** جاء من (بودين) وأعطي له (سيليستره)، ثم أصبح قبودانًا في رمضان سنة 1066 (25 أبريل 1656)، ولما وصل إلى المضيق، انهزم وذهب إلى (قواله).
- **سيدي أحمد باشا:** جاء من (سيواس)، وأصبح ربانًا في شوال 1066هـ (يوليو/ أغسطس 1656)، وبعدما قام بالحراسة في المضيق عدة أسابيع، رجع وقام بخدمات في الترسانة العامرة. وأعطيت له ولاية البوسنة في أواخر صفر (أوائل ديسمبر 1657).
- **محمد باشا:** كان يجمع بين الوزارة ورياسة ولاية (طمشوار)، ثم أصبح ربانًا بعد سيدي أحمد باشا.

القسم الثاني

أحوال الأشخاص الآخرين في الترسانة والجنود المقيدين بحكم الربابنة

وهم نوعان

النوع الأول: العزاب: يقال لهم جماعات الترسانة ورجالها، وهم: الربابنة الرؤساء الجلفاطون الذين يسدون جزور السفينة، وصانعو السدادات والنجارون الآخرون، ومجموعهم ألف وثمانمائة وثلاثة وتسعون شخصًا. وتصل مرتباتهم السنوية إلى سبعين يوك حملًا من الدراهم الفضية.

النوع الثاني: البكوات: (وهم حكام الأقاليم)، والزعماء وأصحاب الإقطاعيات، وعددهم كما بينه لنا على أفندي في سنة 1017هـ (1609/ 1608م)؛ غير مستقر، يزيد أو ينقص حسب العهود.

- **إيالة أو ولاية**: وهي خاصة بالربان والباشا، وتتكون من أحد عشر سنجقًا (تقسيم إداري في عهد الدولة العثمانية)، ومرتبات أصحاب هذه السناجق الثلاثة سنوية، والسناجق الباقية تابعة للخواص: (وهم جماعة من الضباط، استحقوا الحصول على هذه الأراضي؛ لما قدموه من التضحيات، وأظهروه من البطولات أثناء المعارك). وتزيد إيراداتهم من هذه السناجق عن مائة ألف درهمًا فضيًّا. ولهذه السناجق إداراتها الخاصة، ومدراؤها، وسجلاتها.
- **وغليبولي**: سنجق خاص بالباشا والربان، وما يخص الربان من الإيراد ثمانون ألف درهمًا فضيًّا، ولزعامة مدير الحسابات ثمان وثمانون ألف وثلاثمائة وتسعون درهمًا. ولزعامة مدير حسابات أصحاب الإقطاعيات اثنان وستون ألف وسبعة وسبعون درهمًا.

وفي سنجاق غليبولي أربع عشرة زعامة، واثنان وثلاثون من أصحاب

الإقطاعات، وهذه هي سناجق هذه الولاية، وهؤلاء هم حكام وبكوات الولاية:

- سنجق آغريبوز: ولخاصته أربعمائة وأربعون ألفًا من الدراهم، ثمانون من أصحاب الإقطاعيات، ويشترك حاكمه في الأسطول بسفنه.
- **سنجق إينه بختي**: ولخاصته ثلاثة أحمال، وفيه ثلاث عشرة زعامة ومائتان وسبع وسبعون من أصحاب الإقطاعيات، ويشترك حاكمه في الأسطول بسفينة واحدة.
- **سنجق ميديللي**: لخاصته حملان (يوك)، وأربعون ألف درهمًا، وله أربع زعامات، وثلاث وثمانون إقطاعية، ويشترك حاكمه في الأسطول بسفينة واحدة.
- **سنجق صيناجق**: لخاصته ثلاثة أحمال (يوك) درهمًا فضيًّا، وفيه اثنتان وثلاثون زعامة، ومائتان وثلاثون إقطاعية، وهو خاص بمدير الترسانة العامرة.
- **سنجق قوجه ايلي**: ولخاصته حملان (يوك)، وثلاثون ألفًا وخمسمائة درهمًا فضيًّا، وخمسة وعشرون ألفًا للزعامة، وسبعمائة وسبعة لأصحاب الإقطاعيات. وكان حاكمه يشترك في الأسطول بسفينة واحدة، ثم فُرض عليه أن يمد الترسانة العامرة بألف شجرة.
- **سنجق قارلي ايلي**: لخاصته حملان (يوك)، وستون ألفًا وأربعمائة درهمًا فضيًّا، وفيه إحدى عشرة زعامة، ومائة وتسع عشرة إقطاعية. ويشترك حاكمه في الأسطول بسفينة واحدة.
- **سنجق رودس**: لخاصته حملان (يوك)، أي سبعة وسبعون ألف درهمًا فضيًّا، ويتكون من خمس زعامات، وإحدى وسبعون إقطاعية، ويشارك حاكمه بسفينة واحدة، وتعطى له خمس سفن من الحكومة.
- **سنجق بيغا**: لخاصته حملان (يوك)، وثلاثة عشر ألف درهمًا لخاصته. وفيه ست زعامات، ومائة وست وأربعون إقطاعية، ويشترك حاكمه بسفينة واحدة.
- **سنجق مزستيره**: وهو في المورة، ولخاصته حملان (يوك)، تسعة عشر ألف من الدراهم الفضية. ويتكون من إحدى وتسعين إقطاعية، ويشترك حاكمه بسفينة

واحدة، وأخرى احتياطية.

- **سناجقساليانه:** وهي (ساقيز) و(نقشه) و(مهدية)، وثلاثة سناجق في قبرص، ويأخذ كل واحد منها النقود من الأمناء، ويسافر كل واحد من حكامه بسفينة واحدة.
- **ولاية قبرص:** تتبع ولاية قبرص الإدارة البحرية وقلم الربان. ولها خزانتها الخاصة، ومدير، وكاتب حساباتها الخاص. وفرض على (لفكوشا) من سناجق الباشا سبعة آلاف شجرة صنوبر. ولهذه الولاية سناجق: ثلاثة منها على شاطئ البحر، وأربعة في البر، وسناجفها (طرسوس) و(سيس) وهي للخاصة. وسناجقها البحرية لفكوشه، باف وكيرينا. ويشترك كل سنجق في الأسطول بسفينة واحدة، ولحاكمها سفينة خاصة وسفينة احتياطية.

ويخرج حكام (تكة) و(منتشة) إلى البحر أحيانًا بسفينة واحدة. كذلك يخرج حكام سلانيك وإسكندرية (مصر) ودمياط، كلٌّ واحد منهم بسفينة واحدة. وتتكون من كل هذه السفن مجموعة من السفن يصل عددها إلى عشرين سفينة. وقد تزيد أو تقل والزعامات التي ذكرت في السناجق المذكورة مائة وثمان وثلاثون زعامة وألف وأربعمائة إقطاعية. ويتكون من الزعماء وأصحاب الإقطاعيات ألف وخمسمائة واثنين وسبعين جنديًّا يحمل السيف. ويقدم الزعماء والخواص من كل خمسة آلاف رجلٍ جنديًّا واحدًا. كما تقدم أصحاب الإقطاعيات من كل ثلاثة آلاف نسمة جنديًّا واحدًا.

ودخل الخاصة 35 حملًا (يوك)، وخمسة وعشرون ألفًا من الدراهم الفضية. كما أن دخل الزعماء وأصحاب الإقطاعيات في السنة مائة وثمانية أحمال (يوك) من الدراهم. ويصل عدد الجنود – مع ضم ألف وثمانمائة وتسعين من الجنود العزاب – ستة آلاف وثلاثمائة جنديًّا، إلا أن أكثر الزعمات وأصحاب الإقطاعيات يعطون مالًا بدلًا من الجنود. وهناك علاوة على هذه الولايات والسناجق، ولايات طرابلس، والمغرب، وتونس، والجزائر، وكفة؛ وكلها تتبع الربان وإدارته. وهؤلاء المذكورون يحرسون ولاياتهم، وإذا أرادوا الاشتراك

في الحملات البحرية عند اللزوم يؤخذ من هؤلاء ثلاثة أو أربعة آلاف جنديٍّا، فيصل عدد جنود البحر إلى عشرة آلاف. وهذا العدد مقيد في السجلات، ولا يمثل عدد الجنود المشتركين فعلًا في الحملات البحرية.

- **الحكمة**: اختار كل واحد من الناس في دنيا الأسباب والوسائل هذه؛ طريقةَ معيشته في صورة ما. وهكذا تنتظم العلاقات بين الناس في المجتمع البشري في كل مكان وفق المصالح، وتمضي الحياة وتسير الأمور كيفما كانت. أما انتظام حياة المجتمعات انتظامًا مثاليًّا ونموذجيًّا لايتأتى دائمًا، والاختلاف في صورة المعيشة سمة حياة المجتمعات. ولا يمكن أن يكون أبدعَ مما كان.

القسم الثالث

خروج الأسطول إلى البحر للحملة وفقًا للنظم والقوانين

يقوم الأسطول أولًا من (بشيكطاش) ويصل إلى (يدي كوله)، ويظل هناك يومين أو ثلاثة لتحميل الجنود. ويترك هذا المكان إلى (أرجلي)، ومن بحر (مرمرة) إلى (أكلينليك) و(غليبولي)، وحصن المضيق وما خارجه من حديقة (بياله باشا) ذات أشجار السرو. وكانت هذه الموانئ المذكورة أماكن مبيت، والمسافة بين بعضها أربعون أو ستون ميلًا. ولابد من البيات في هذه الموانئ، ولا يترك الميناء دون الاستراحة فيه. ويظلون في هذه الحديقة ذات أشجار السرو يومًا، ويأخذون الماء اللازم للأسطول. ويرسلون القوارب إلى حصن المضيق المقابل؛ ليحضروا ثلاثين جذعِ شجرة من (شرن) ليزيِّتوا السفن؛ لأنه لا يوجد في مكان آخر. وفي هذا الميناء، تخرج سفينتان صالحتان لتتعرفا على أمن الطريق. ويظل الأسطول في عرض البحر مسافة ميلين أو ثلاثة؛ لانعدام الأمان بعد المضيق. ويكررون نفس العملية في كل مكان يبيتون فيه، ثم يقوم الأسطول بعد صلاة الفجر وسفينة القيادة في الوسط والسفن الأخرى حواليها مثل الدجاجة التي تجمع فراريجها. وتسير السفن متمهلة، ولا تسرع مثل سفن البريد. وتتقدم سفن الطليعة ثلاثة أو أربعة أميال، فإذا رأت شيئًا تخير الأسطول بذلك عن طريق الإشارة. كما أن نائب الربان يحرس السفن من الخلف، ويسير خلف الأسطول بعشر من السفن الحربية المتينة، ويوقد قنديلًا في الليل. ويرعى السفن التي ضعفت وتمزقت أشرعتها من العواصف، أو تحطمت بعض سواريها.

ويقوم بعد الأسطول بساعة، مع اثنين من سفن الحكام؛ ليلتقط ما بقي من الجنود على البر. ويصل إلى الموانئ التي بعد رأس (بابا) مثل (سيوريجه) وميديللي وساقيز. ومن هناك يتخذ ساحل بلاد الروم طريقًا للسير، ويصل إلى (أغريبوز) ومن (موتون) إلى (أوارين)؛ حيث يجتمع أسطولنا، وهو المكان الرئيسي لتلاقي سفننا. ومن هناك، ترسل

سفينتان لتتحسسا الأخبار في سواحل الكفار. كما أن المكان الرئيسي والميناء المهم الذي تجتمع فيه سفن الكفار مثل (أوراي) عند الأسطول الإسلامي على بعد خمسمائة ميلٍ من أوراين. وتأتي هناك سفن الباب و(مالطة) و(الدوقية) و(أسبانيا) حيث يتخابرون مع البندقية. وإذا ما عرفوا أن الأسطولين على مسافة قريبة من بعضها يظلون هناك تحت الحراسة. أو يخرجون من هناك ليتجهوا إلى جهة ما، هذا هو الطريق المتبع. ويحتفظون بالسفن الضعيفة هناك، وتقتحم بعض السفن البحر من فوق ميناء التين أو من أعلاه، ويأخذون المياه كل ثلاثة أيام مرة واحدة. ولا يقومون إذا كانوا بين الجزر قبل أداء صلاة الفجر إلا إذا كانوا سيصلون إلى ميناء ما بعد الظهر. ولا يتجاوزون الميناء إلى ميناء آخر، ولا يبيتون في البحر مالم يصلوا إلى متسع البحر؛ لأن هذا لا يوافق النظام وله محاذيره. أما إذا لزم الحملة في متسع البحر من رودس إلى (الإسكندرية) مثلًا قد يظل في وسط البحر يومين إذا كانت الريح مواتية، وإذا لم تكن مواتية فقد يستمر في السير ثلاثة أو أربعة أيام؛ لأن المسافة بينها خمسمائة ميلًا، وإذا وجب الحملة من موتون أو أوارين أو طرابلس الغرب، والمسافة سبعمائة ميلًا، إذا كانت الرياح مواتية يوصل إليها في ثلاثة أيام، وإلا يوصل إليها بالمجاديف في خمسة أو ستة أيام، وتوصي السفن عند اقتحام البحار بأن توقد قناديلها عند هبوب العواصف. كما أن السفن التي لا قناديل لها ثابتة تعلق قنديلًا حتى لا تصطدم السفن ببعض في وقت العاصفة. وعليهم أن يحسبوا أيام سير السفن، وأن ينظروا إلى الخرائط، فإذا ماذهبوا إلى بلاد أخرى بسبب الرياح الشديدة عليهم؛ يصنعوا الخرائط بقلم الرصاص؛ حتى يعودوا إلى طريقهم.

وإذا كانت حساباتهم في أوقات الليل، تدل على أن المسافة بينهم وبين البر والسواحل العربية واطئة، ينزلون الأشرعة، ويتركون عجلة القيادة كما هي حتى تسير السفينة بنفسها. ويتحقق من عمق البحر بواسطة آلة القياس، فإذا كان عمق البحر عشرين أو ثلاثين ذراعًا هناك ترسو السفن، وإلا فالسفينة تجنح. ولابد للسفن الحربية الطويلة من طراز (قاديرغه) أن تلقي مرساتها هناك، وتستطيع الدوران. أما إذا كانت السفنية قاليون متوجهة ضد الرياح، وتتخذ الإجراءات اللازمة، وتزيّت السفن في أثناء الحملة في كل ثلاثة أشهر مرة، وتزيت أول مرة بعد الخروج من (ساقيز)، والذهاب إلى سواحل (بلاد الروم) و(أغريبوز). ومن هناك إلى موتون (وأفارين) حيث تزيّت، كما تزيّت مرة

أخرى في ميناء (فوجه) على الساحل الأناضولي، ويزيّتون أولًا سفن الأسطول، بينما سفن الحكام تحمي الميناء في البحر. وبعد الانتهاء من سفن الأسطول، تزيَّت سفن الحكام وتزيَّت كلها مع ما له من محاذير. ويجب أن يذكر ما حدث لخليل باشا في حملة (جهنم السوداء). والفرق بين سير السفينة المزيتة وغير المزيتة مضاعف. فمثلًا، إذا ما سارت سفينة قديمة التزْييت في الساعة عشرة أميال فالسفينة المزيَّتة حديثًا تسير في الساعة الواحدة عشرين ميلًا، والسفينة الحربية المسماة (قادرغة) إذا ما كانت مزيَّتة حديثًا، وكانت الرياح هادئة؛ تستطيع أن تقطع في خمس عشرة ساعة مائتي ميلٍ، وهكذا.

القسم الرابع

يعرف المعركة البحرية وفق القوانين

عندما يكون الأسطول المعادي في البحر، وأسطولنا على سواحل الروم أو الأناضول في الأوائل. ولما كان يرغب العدو في الهجوم على أسطولنا، وحتى إذا ما رآنا أعداؤنا، يتظاهرون بعدم الرؤية؛ لأن السواحل مغرية، والجنود ينظرون دائمًا إلى السواحل، والمعركة البحرية قاتلة، ومن لم يجربها لا يعرفها. وفي مثل هذه المواقف، يريد كل واحد أن ينجو بنفسه هاربًا إلى الساحل، وأما إذا كانت السفن المعادية على الساحل، وكانت سفننا في البحر، أو كانت السواحل سواحل الكفار، أو إذا كان كلا الأسطولَيْن في وسط البحر؛ ففي هذه الأوضاع الثلاثة يهجمون على الكفار ويقاتلونهم؛ لأن مجال النجاة عندئذ يكمن في القتال فوق السفينة، ولا أمل في غير ذلك، فيتقاتل الجنود. وإذا كان عند العدو السفينة المسماة قاليون لا يحاولون الهجوم عليها غير مضطرين؛ فهذا ضد السلامة، وكل من قام بهذا فقد أخطأ.

وفي مثل هذا العمل، غرقت سفينة جعفر باشا القيادية في (كسنديرة)، واستشهد (موسي باشا) في (أغريبوز)، ويهجمون على قاليون بعدما يضربونها من بعيد، ويكسرون دفتها، وعمودها؛ لأن مدافع قاليون الجانبية قصيرة المدى.

وإذا لم يكن في أسطول الكفار قاليون، عندئذ يهاجمون سفنهم وجهًا لوجه، وتصطف سفنهم مثل أسراب الطيور المهاجرة، فيتقدم الحكام، وتظل سفينة الربان في الخلف، وتقف معها خمس سفن: ثلاث منها خلف السفينة القيادية، واثنتان أمامها. وواحدة منها تلاحظ دائمًا دفة السفينة. وتُسيِّر اثنتان المجاديف الخمسة أو الستة. وفي ميدان المعركة، يخاف من الإسراف في عدد الجدافين. ومن المفضل أن يخلطوا مع الجدافين الأتراك، وألا يتركوا بمفردهم. وسوف يأتي ذلك في النصائح.

ولا يخرج الربان من السفينة، ويرسل القادة ليقودوا الجنود. وعلى الرُّبان ألا يتنزه في القارب حاملًا معه القوس والنبل؛ لأن ذلك مخالف للنظم والقوانين، كما أنه من

المخيف ألا يتواجد القائد في ميدان المعركة وقت القتال، وكم من الهزائم حلَّت بهذا السبب في البر والبحر، ويملئون مدافع السفن بالخرادق والبارود، ويعدونها للإطلاق. ويقف رجال المدفعية مستعدين، وفي أيديهم الفتائل منتظرين الإشارة، وكل هذا في معارك البحر الأبيض المتوسط.

أما قتال القازاق في البحر الأسود وطرقه وقانونه، فإنه عندما تخرج سفنهم الخاصة بهم، وهي ذات قعر سطح من (أوزي) لضرب السواحل الإسلامية. فإذا كانت هذه السفن بعيدة عن السواحل ما يقرب من 15 ميلًا أو أزيد؛ فتهاجمها السفن التركية التي تسمى (قادرغا) دون خوف، ويحاربونها. وإذا كانت الرياح مواتية، فهي تدوس هذه السفن وتسحقها، ولا تستطيع مائة (شايقة) أن تجابه سفينة تركية واحدة من التي تسمى (قادرغا). أما إذا كانت هذه السفن على الشواطئ فلا تهجم عليها السفن التركية، بل تترقبها؛ لأن (قادرغا) تجنح، وهناك تكون الكارثة. كما حدث في حملة (محمود باشا ابن جغالا) وعندئذ يترقب، فإذا ما سنحت الفرصة يهجم عليها. وإلا يفكر في وسيلة أخرى من البر. وإذا كان الأسطول في السواحل يحاول أن يدفع سفن الأعداء إلى وسط البحر، ولا توجد هنا مخاطر من إخراج الجنود إلى الساحل مثل ما يحدث في معارك البحر الأبيض المتوسط. وتخيف مهابة السفن التركية في البحر الأعداء، وتمد الجنود قوة ومتانة. ولا يغفلون - وهم في هذه الأوضاع - عن الاقتراب من الشاطئ، ودائمًا يحافظون على مسافة بينهم وبين الساحل.

القسم الخامس

عن أنواع سفن الأسطول المختلفة ورجاله

أولًا: أنواع السفن السائرة بالمجاديف: تتميز من حيث مقاعدها، وتتسمى وفقًا لذلك. يطلق على السفن ذات عشرة مقاعد إلى سبعة عشر مقعدًا (فرقاطة) ويجدف في كل مجداف اثنان أو ثلاثة أشخاص. ويطلق على السفن ذات الثمانية عشر وتسعة عشر مقعدًا اسم (بركندة)، ومن تسعة عشر مقعدًا حتى أربعة وعشرين (قالفية)، وإذا كانت سفينة ذات خمسة وعشرين مقعدًا فتسمي (قادرغا) ويجدف كل مجداف من مجاديفه أربعة أشخاص. وتسمى السفن ذات المقاعد من ستة وعشرين مقعدًا إلى ستة وثلاثين مقعدًا (باشتارده)، وتكون ذات مؤخرة مثل البطيخ. ويجدف على كل مجداف من مجاديفه خمسة أو ستة أو سبعة من الأشخاص. والسفينة التي تعلو وتتسع من سفينة إلى أخرى فهي تسمى (ماوونا)، وإذا كانت السفينة ذي طابقين تحتها فهي تسمى ماوونا، وفوقها (قاليون) تسمى كوكه، وكانت الدولة قد بنت من هذا النوع في الماضي كل ما ذكر من أنواع السفن التي تسير بالمجداف؛ كوسيلة رئيسية للسير.

القاليون: وهي مختلفة الأنواع، ولا يستخدم في الأسطول إلا النوع الذي يطلق عليه اسم (يورتون)؛ لذا فلا داعي لإطالة الكلام عن أنواعها، والكفار هم الذين يستخدمون هذا النوم من السفن على الأغلب. ومن سفن أسبانيا الحربية (بوليكا) و(قارقايا). ودعنا نتحدث الآن عن سفننا:

أولًا: (ماوونا): وطولها خمسة وستون ذراعًا، وارتفاع مؤخرتها عشرون شبرًا، وارتفاع مقدمتها اثنا عشر ونصف شبرٍ، وتشد بحزام حديدي طوله سبعة أذرع ونصف ذراع. وتوضع عليها أربع وعشرين قطعة مدفع، بعد أن تكتمل بجميع مستلزماتها، ثم يعين على بحارتها - كرئيس - رجلٌ ماهر جَرِب، قضى أيامًا في تجارب أمور البحر، وأربعة من يكلفون بإدارة دفتها، وأربعون شخصًا يعنون بحبال السفينة وأشرعتها، ويترأسهم أحد الضباط. ويُعطى لهؤلاء أجور غير مرتباتهم الشهرية ألف وخمسمائة درهمًا فضيًّا،

ولكل سفينة ثلاثمائة وأربعة وستون جدَّافًا موزعين على ستة وعشرين مقعدًا، وعلى كل مجداف سبعة أشخاص. ويطلق على الأجنحة التي فوق الجدافين (مانقا)، وعلى كل (مانقا) ثلاثة أشخاص، ومائة وخمسون من المحاربين، وثلاثون جنديًّا مدفعيًّا بارعًا، وكلهم ستمائة شخصٍ.

باشتارده: ويكون طول (باشتارده) الخاصة بالقائد سبعون ذراعًا، وأصبحوا يصنعونها الآن اثنين وسبعين ذراعًا، وهي ذات ستة وثلاثون مقعدًا، ويجدف كل مجداف مثل (ماوونا) سبعة أشخاص. ويجلس على (مانقاها) ما بين الجدافين ثلاثة من المحاربين، وتشتهر بفوانيسها الثلاثة، ومن عليها من الرجال خمسمائة شخصًا من الجدافين، ومائتان وستة عشر من المقاتلين، وغيرهم من البحارة والمدفعيين يصل الكل إلى ثمانمائة شخصٍ. ويعين رجل ذو خبرة عارف، ماهر في أمور البحر والسفن؛ رئيسًا لهذه السفينة. ومقاعد باشتارده على المتوسط ستة وعشرون، وطولها سبعة وخمسون ذراعًا. ورجالها مثل ذلك يزيدون أو يقلون. وهناك نوع من (باشتارده) يسمونها سفينة السلطان، وهي ذات ثلاثة قناديل، وإذا ما أصبح وزيرًا ربانًا، وذهب لاستلام منصبه؛ يركب لهذه السفينة أعمدة ومجاديف خضراء اللون. ورايتها خضراء أيضًا، ولها علم في مقدمة عمودها، وكانت العادة أن يترأس هذه السفينة العزاب.

القادرغة: إن المسافة ما بين طرفي القادرغة كانت قديمًا خمسة وخمسون ذراعًا، وأصبحت الآن ستة وخمسين ذراعًا، وكلما كانت أطول كانت أحسن. واتساع باب عنبرها اثنان وعشرون شبرًا، وارتفاع مؤخرتها ثمانية عشر ذراعًا، وخمسة عشر ذراعًا ارتفاع مقدماتها، وارتفاع حزامها ستة أشبار وأصبع، وكان ناقصًا شبرًا من قديم. ولم تكن مؤخرتها مستديرة مثل البطيخ، ولكن الآن أكثرها ذات مؤخرة بطيخية؛ لأنها تقاوم العواصف جيدًا. أما عن رجالها، فقد كان قديمًا في كل سفينة من هذه النوع رئيس ماهر كرُبّان السفينة، يحكم الكل، ويستطيع أن يفهم الخريطة، ويعرف استخدام البوصلة.

وكان هناك عشرون من الرجال لاستخدام الحبال والأشرعة. وكل منهم يكاد أن يكون رئيسًا. وكان هناك رجلان ماهران في استخدام دفة السفينة، ورجل ماهر يفهم أمور الأشرعة، وتحت إمرته رجلان يطلق عليهما اسم (كومي). وكان الكبير يطلق الصفارة، أما الصغير فكان يقوم بأعمال خاصة بالأشرعة، وكان هناك نجاران لصناعة المجاديف،

ورجلان لسد شقوق السفينة، ويبلغ عددهم كلهم خمسة وثلاثين شخصًا، وفيها خمسة وعشرون مقعدًا ذات تسعة وأربعين مجدافًا. ويذهب أحدهم؛ حيث ترسو السفينة وفيها مائة وستة وتسعون جدَّافًا، بواقع أربعة أشخاص في كل مقعد، ومائة من المحاربين. وهكذا يصل عدد رجال القائد إلى ثلاثمائة شخصٍ، وقد يزيدون أو ينقصون. ويصل عدد الأشخاص الذين في (ماوونا) ثلاثمائة شخصًا. ويتكون الأسطول عادة من أربعين قطعة بحرية قادرغة، وست من نوع (ماوونا). وبناء على هذا، يصل عدد أشخاص أسطول ما إلى ست عشر ألفًا وأربعمائة شخصًا، وعشرة آلاف وخمسمائة من هؤلاء جدافون، وخمسة آلاف وثلاثمائة منهم محاربون، وإذا كان في سفن حكام الأقاليم العشرين مائة شخص من المحاربين؛ فيصل مجموعهم إلى سبعة آلاف من المقاتلين. وإذا لم تكن الأماكن التي بين المجدافين خالية مثل ما بين المنقلة، فيجب أن نحسب رجال الأسطول على هذا الوجه، ونكون بهذا قد أخذنا فكرة عن هؤلاء الناس.

القسم السادس

يبين هذا الجزء المستلزمات الضرورية لإنشاء الأسطول، والنفقات اللازمة لإنشائه على نحو التقريب

جسم السفينة:

إذا لزم الأمر لصنع سفينة قادرغة يعطى من قبل الحكومة خمسين أو ستين ألفًا من الدرهم الفضي (أقجه)؛ لشراء الخشب اللازم من الأعمدة والمجاديف وجسم السفينة. وسفينة (باشتارده) مثل ثلاث مرات، وماوونا مثل قادرغة مرتين، ولكل سفينة زورق. وإن الخشب اللازم لصنع قادرغة أربعمائة لوحة خشبية، وطول كل لوحة اثنا عشر ذراعًا، ومصنوعة من جذوع شجرة الصفصاف أو الزان. وكلما كانت اللوحات جافة وسليمة؛ كان ذلك أفضل. وكل ضلوعها يساوي خمسة وعشرين درهمًا فضيًّا.

ويُعطى للذي أتى به من الغابة بعد أن قطَّعه، خمسة دراهم، ويملأ الـأركان بمائتين وخمسين ضلعًا، وما يقرب من ثلاثين قطعة خشبية لأرضية عنبر السفينة، وستة عشر ذراعًا من قضبان خشبية، وخمس وعشرين لوحة من خشب الأرز، طول كل واحدة منها ستة عشر ذراعًا حتى تكون الأرضية خفيفة، ودفتا إحداهما احتياطية، ويصنعان من خشب شجرة (الفضا)، وعمودان وثلاثة أعواد خشبية عرضية يربط إحداهما، أما الأخرى مثل الأجنحة متحركة خمسة وسبعين من المجاديف: خمسون منها توضع في أماكنها، أما الخمسة والعشرون الباقية؛ فتوضع في العنبر احتياطيًّا.

مصادر الأخشاب:

تقطع ألف شجرة صنوبر من سنجق (قوجا ايلي) كل سنة وغير هذا، فمراكز سنجق (بورنا) اثنا عشر مثل (صابانجا آدا، وآق يازي يوروك آق يازي، وصاني صاري، وشاير كية، وآق حصار، وبالاك آباد، وإزبيك) تصدر كل عام خشبًا يساوي ثلاثة أحمال (يوك) من الدراهم الفضية، وجبرًا.

مسامير مختلفة:

تستهلك سفينة القادرغة مائة قنطار من المسامير. وإذا اقتصد في الاستعمال يمكن الاكتفاء بثمانين قنطارًا - كما يقول البعض -. وكلما كان محكمًا وكاملًا؛ كان أفضل من المسامير. كما أن السفينة التي يطلق عليها (باشتارده) تستهلك خمسمائة قنطار مسامير. وتساوي الأوقية من المسامير - بناء على سعر السوق - أربعة عشر درهمًا فضيًّا، والقنطار يساوي ستمائة وستة عشر درهمًا فضيًّا، وهكذا يقدر ثمنها.

تجديد حدائد مرساة (السفينة):

تحتاج السفينة المسماة قادرغة مراسي، تصنع كل مرساة من سبعة أو ثمانية أو تسعة قناطير من حديد. وتحتاج السفينة المسماة (ماوونا) إلى مرساة ذات خطافين. وكل مرساة تزن ستة عشر قنطارًا، وتحتاج أيضًا إلى أربع مراسي ذات أربع خطاطيف، وكل واحدة منها تزيد اثني عشر قنطارًا. وكذلك السفينة المسماة باشتارده تحتاج إلى نفس الكمية من المراسي، وتشترَى هذه المراسي بنقود الدولة. والمرساة لا تبلى إلا إذا انقطعت الحبال، وظلت في قعر البحار، وتعرف قيمتها بمقارنتها بالمسامير.

حبال السفينة الغليظة والرفيعة:

تُعطى السفينة الواحدة حبال مختلفة الأنواع الغليظة الرفيعة، وتتفاوت في الغلاظة أو الرفع سبع وعشرون قانفالًا من الحبال، ويقال القانفال على حلقات مستديرة من الحبال، والحبال الغليظة تزن ثمانية قناطير، والحبال الباقية رفيعة. والحبال التي سترتبط بها المراسي غليظة. وكل حبل مربوط بها طوله ثمانون ذراعًا. وتزن سبعة قناطير إلى تسعة قناطير، ويلزم حبال لحام لربط الحبل الغليظ بالمراسي الأربع، وكل واحد منها يزن ثلاثة قناطير. وتلزم أربعة حبال غليظة لربط السفينة بالبر، ولكل واحد منها سبعون ذراعًا، وكل واحد منها أربعة قناطير. أما الحبال اللازمة لربط مراسي (ماوونا)، فهي خمسة عشر قنطارًا، ولكل خطاف من خطاطيفها اثنا عشر قنطارًا من الحبال، وكذلك سفينة الباشتارده.

الحبال:

يقال للحبال الحديدية غربانًا، والحبال الحديدية التي توجد في كل سفينة قادرغة، وعددها خمسة تغير ثلاثة منها، وتظل الاثنان في كل سنة. والحبال الأربعة التي تربط بها المراسي أو الحبال الغليظة التي تربط السفينة إلى البر، تغير اثنان منها، ويظل الاثنان كل عام، ولكن الحبال الرفيعة تغير كل سنة، وأما الحبال القصيرة التي تربط بالأشرعة تغير كل سنتين مرة.

التيل:

لسمسون ألف قنطار من التيل، و(آختابولو) ثلاثون قنطارًا، و(أزمير) مقدارًا من التيل والأسلاك، ومنه من (مخاليج) و(سلانيك) و(ميسيوري) و(بارتين) وتلك مصادر التيل.

الأشرعة المختلفة:

كانت للسفينة المسماة قادرغة ثلاثة أشرعة. الشراع الكبير ويطلق عليه (منجي الأرواح)، ويفتحونه لرفع السفينة الجامحة على الرمل، حتى لا يدخل الرمل أسفل السفينة، ويتكون من إحدى وسبعين قطعة، ويصنع من قماش يساوي ألفًا وأربعمائة ذراعًا. ولما رُئي هذا الشراع غير ذي نفع كبير، أُلغي في عهد الربان شلبي علي باشا. والشراع الأوسط يصنع من قماش يساوي ألفًا ومائتين ذراعًا، ويطلق عليه شراع العواصف؛ لأنه يستعمل عند هبوب العواصف. وهذا الشراع مستدير الشكل، ويبدو كأنه مثلث. وهذا الشراع في العمود الأمامي في السفينة، وشكله مربع. ولكل سفينة شراع كذلك. ويصنع من ستمائة ذراع قماش، ويستخدم دائمًا.

مظلة:

تحتاج كل سفينة من نوع قادرغة إلى مظلتين، وكل واحدة منها تصنع من قماش غليظ، وكل مظلة تحتاج إلى خمس وستين قطعة قماش، وكل قطعة تساوي خمسة عشر ذراعًا، وإذا احتاج الأمر في وقت نزول المطر، يبسطون مظلة فوق مظلة، وأشرعة ومظلات السفن المسماة (باشتادره) و(ماوونا) من نفس النوع.

قانون التجديد:

يجدد الشراع كل ثلاث أو أربع سنوات. كما أن المظلتين تجدد إحداهما في كل سنة، وتظل الأخرى من غير تجديد.

منشآت الأقمشة:

الأقمشة اللازمة الأشرعة ينسج أغلبها في (ليغاديا)، وقليل منها ينسج في (منمن)، ويصنع قماش المظلة في سهول (ايجه). وإذا احتاج الأمر يصنع في (بالدمجيلار) في استانبول. وأقمشة مصر للأشرعة جيدة، ومختلفة الألوان. ولكنها لا ترد إلا قليلًا هذا. ولكن بطانة غطاء المؤخرة تأتي من مصر دائمًا.

الخيمة:

تطلق على غطاء المؤخرة، ويصنع بكل سفينة من أنواع (قاديرغة) من جوف جيد من سبعين ذراعًا، وتغير كل سنتين مرة. وكانت خيمة باشتارده في عهد (جغالا أوغلو) من قماش منقوش مشغول مزين، ثم جعل قماشها من المخمل الأخضر والأحمر. وأخيرًا، استقروا على أن تكون من جوخ أحمر. ويكلف صنعه وفرشه حملًا من الدراهم الفضية. وتغير الخيمة كل سنة، وأما الخيمة القديمة فمن نصيب الخدم.

القنديل:

إن لباشتارده وسفينة السلطان ثلاثة قناديل فوق مؤخراتها، بينما تصطف هذه القناديل في باشتارده الكفار على طول المؤخرة تصطف في السفن الإسلامية على عرض المؤخرة، حتى تخالف قناديل الكفار. ويعلق على العمود الأمامي إما علم أو قنديل. وتقدم الدولة للسفن كل عام عدة صناديق من شمع العسل، ويعُطى للربان القناديل الأخرى من الدولة كل عام خمس وعشرون شمعة من شمع العسل الأصفر. وكل شمعتين تزنان أوقية واحدة. وتوقد هذه الشموع في سفينة الربان ليلًا، وتتقدم السفن الأخرى، ويعطى لكل قادرغة كل سنة قنطاران من زيت الكتان؛ لتوقد في العنابر في ثلاثة أماكن.

المدفع:

يعطى لكل سفينة قادرغة ثلاثة مدافع: واحد منها مدفع المقدمة وطوله أربعة عشر شبرًا أو خمسة عشر، ويطلق قنبلة تزن اثني عشر أوقية، وإذا كانت أثقل من ذلك لا تضر، ولا ينقص وزن هذا المدفع عن أربعين قنطارًا. ومدفعان للجانبين، ويجب ألا يقل طول ماسورة كل واحد منهما عن عشرة أشبار، وإذا كانت أطول كان ذلك أفضل.

أما مدافع السفن المسماة بماوونا، فمدفعان في العنبر، وأربع مدافع بجوانب الأعمدة، ومدفعان في المؤخرة من الداخل وفوق الدفة، ومدفعان فوق المؤخرة، وستة مدافع من التي تطلق (الخردق). وبعض هذه المدافع بجانب الأعمدة، وبعضها بين المجاديف، وستة على الجانبين، ومجموع مدافعها أربعة وعشرون مدفعًا.

البارود:

تمد كل سفينة مسماة قادرغة بعشرين قنطارًا من البارود، أو حسب ما تحتاجه، وتأتي أكبر كمية من البارود من (مصر). وبما أنه غير مجلو، لا يدفع القنبلة بقوة ويضعف من المدفع.

الدانة:

كانت السفن من قبل تمد بكمية من الدانات وأشياء أخرى اللازمة للسفن يجب أن تمد بها الآن أيضًا.

الأعلام:

كانت سفن (باشتارده) القيادية، وسفن نواب القائد تمد بأعلام خاصة مختلفة من الدولة. وكانت ترفع في مؤخرة السفينة ومقدمتها. وكانت هناك رايات خاصة لبيان توجه الريح. أما السفن الأخرى، فقد كانت تمد من قبل الدولة برايات المؤخرة ذات ألوان صفراء وحمراء. أما الأعلام الأخرى، فكان يشتريها الربان من ماله الخاص. وتصنع هذه الأعلام المختلفة من الحرير، ويساوي مائة قرش. ويأخذ الربابنة كل ما يلزمهم من الإبرة إلى الخيط من مخزن الحكومة. ويُعطى لكل ربان سفينة في الأسطول نقود التغذية خمسة عشر ألفًا من الدراهم الفضية.

البقسماط والدنان:

يُعطى على كل شخص في سفينة قادرغة دنا، ويملأ بالماء، ويعين لكل بحار وجداف نصف أوقية من البقسماط، وأما في السفن الأخرى فلا يمد المقاتلون بالبقسماط.

الجلفطة والزيت:

بعدما يصنع جسم السفينة يجلفطونه أولًا بحرق بعض النباتات. وكان يستهلك في الجلفطة الأولى اثنا عشر قنطارًا من الإسبيداج، وخمسة وعشرون قنطارًا من الزفت. وقد أنقص (علي باشا شلبي) خمسة قناطير، واليوم يزيتونه بعشرين قنطارًا فقط، ويستهلك في كل تزييتة أربعة قناطير من الشحم، ويزيَّت كلما احتاجت السفينة للتزْييت. ومن العادة، أن تزيّت السفن في كل سفر ثلاث مرات: أول مرة في الترسانة، ومرتان في الطريق. وعندما تزيّت السفن في الخارج تستند السفينتان على بعض، ويزيّتهما ستة أشخاص يقومون بسد شقوقها. وفي كل سفينة مراجل للزفت، وأخرى للزيت. ولابد من مغارف للغرف.

الرصاص:

عندما توضع في أول كل رأس من رءوس المجاديف أوقتيان من الرصاص؛ يعطى لكل سفينة لوحان من ألواح الرصاص؛ لسد الثقوب والتشققات.

الأسكانديل (مقياس عمق البحر):

في كل سفينة مقياس لمعرفة عمق البحر، ويتكون من سبعين أو ثمانين ذراعًا من الحبال، ويربط في نهايته رصاصة مسطحة مثل كرة القنطار تزن ثلاث أوقيات. وعند اللزوم يمسح سطح الرصاص بالشحم، ويربطون طرف الحبل في مؤخرة السفينة، ويلقونها في البحر. ويقيس رجل بالذراع واقفًا في المؤخرة، ولما تصل الرصاصة إلى قعر البحر يخرجونها وينظرون إلى مكانها، فإذا كان المكان ذا حجارة يرى في شحم مسطح الرصاصة ثلم. أما إذا كان القعر رمليًّا يلتصق الرمل بالشحم، وأما إذا كان القعر فيه نباتات يعرف كذلك. ولكل مكان علامة معينة يعرف بها.

الخريطة والبوصلة:

والخريطة جلد كتب عليه، ورسمت صورة البحر، والبوصلة هي التي تبين اتجاه القبلة، ويضعونها فوق الخريطة، ويعثرون على النجوم ويعرفون اتجاه السير ومهب الرياح، ويوجهون دفة السفينة وفقًا لهذه المعرفة، ويستخدمون الرياح المناسبة. وإذا كان السير ليلًا يوقدون القنديل ليطلعوا على الساعة، وإذا كان في الطريق أماكن صخرية والمحاذير؛ يتحاشونها.

إن حالة السفينة مع الصخور مثل البيضة والحجر، وإذا هبت رياح معاكسة وقامت العواصف واتجهوا إلى جهات أخرى، ينظرون إلى البوصلة ويصححون خط سيرهم. وفي كل سفينة رئيسان مهمتهما هذه الأعمال، فإذا تعب أحدهما يأخذ الآخر مكانة. كما أن في سفن القادة والربابنة منظار مقرب يستخدم عند اللزوم. ولكل هذه الأجهزة والأشياء مخزن صغير، وعندما يصل الأسطول إلى مقره (الترسانة) يضعون في ذلك المخزن بعد استلامها، ويسجلونها في الدفاتر.

الصابورة وسعة الاختزان:

يضعون في السفينة صابورة من الحصى، وعند اللزوم يفرغون الحصى، ويضعون بدلًا منه البضاعة، وينظرون إلى الاختزان؛ لأن بعض السفن تسير وهي مستوية. والبعض الآخر، إذا كانت مؤخرتها منخفضة. وأما إذا كانت مقدمتها منخفضة إلى الأسفل لا تسير. فيحافظون – وفقًا لهذا – على اتزان السفينة. أما في سفينة الباشا لا يتقيدون بهذا النظام؛ لأنهم من الأول يضبطون السفينة على اتزان معين؛ لأنها لا تسير بسرعة. وتصل نفقات أسطول يتكون من سفن ماوونا قادرغة في المتوسط – بكل ما يلزمها من المهمات الجدافين المأجورين بالنقود، ويدل رجال الأشرعة والحبال وتغذيتهم، وثمن البقسماط لرجال سفينة الباشا لكل ما ذكر – ألفًا وستمائة صرة من الدراهم، وستمائة وإحدى وعشرين من هذه الصرر تؤخذ من الضرائب التي تفرض على الأهالي؛ لأجل الجدافين، وخمسة وسبعين حملًا (يوك) بدل البقسماط. ونستطيع بهذا أن نحسب ما يكلف خروج الأسطول إلى البحر إن قليلًا أو كثيرًا، ونعرف كم صرة تنفق في هذا السبيل.

القسم السابع

نصائح للبحارة الذين يهتمون بالأسطول وأمور البحر

تنبيه: لا يخفى على أحد أن أهم ما تعتمد عليه الدولة العثمانية وتهتم به جاعلة شغلها الشاغل في المرتبة الأولى؛ هو الأمور البحرية؛ لأنها عنوان عظمة الدولة العثمانية ورونق حكمها على البرين والبحرين. وغير هذا إن البلاد العثمانية تحيط بها السواحل من جميع الجهات وحولها جزر متعددة. كما أنه لاشك في أن استانبول في محيط بحرين. وغير هذا، فإن المسلمين دخلوا إلى أوروبا منذ وقت غير طويل واهتموا بهذه القارة. مع أن السلاطين القدماء بعد حروبهم غير العادية ومعاركهم الشرسة، لم يستطيعوا أن يستولوا إلا على بلاد (الروم) و(البوسنة)، وجزءًا من (المجر). وهذه البلاد المذكورة تعد من أطراف البلاد الأوروبية. ولما كان الاحتفاظ بهذه الأراضي إلى وجود البحار في يديهم؛ لذا اهتموا بالبحار كثيرًا. والمهم اليوم العمل على تقوية الأسطول متنبهًا ومستيقظًا من الغفلة؛ فليوفقنا الله سبحانه وتعالى.

لنبدأ بعد الآن في إسداء النصائح.

النصحية الأولى: إذا لم يكن الربان بحارًا، يحب عليه أن يستشير البحارة في أمور البحر والمعارك البحرية، وأن يسمع أقوالهم. وكثيرًا ماندم الذين استبدوا بآرائهم، والخطأ في أمور البحر لا يخصه وحده، بل يعم على الكل.

النصحية الثانية: يجب أن تصنع سفن الأسطول - قدر الإمكان - في الترسانة العامرة، وبهذا يمكن إتمام صنعها في وقته، فيتم بسرعة، ولا يظلم الرعايا إلا قليلًا.

النصيحة الثالثة: يجب أن تبذل الجهود لإكمال جميع مستلزمات السفينة، ويجب أن يبدأ كل عمل في وقته، ويتم في وقته فلا تُعطى الفرصة للإهمال.

النصحية الرابعة: يجب ألا يُترك الأسطول بدون حراسة وسفن الطليعة بعد الخروج من المضايق. وعند السير في الطريق، يجب أن تسير سفينتان خفيفتان أمام الأسطول

بثلاثة أميال. وعند الرسو في الميناء، تظل هاتان السفينتان خارج الميناء وسط البحر بميلين أو ثلاثة. وبعد خروج الأسطول من الميناء، تظل سفينتان لحكام الأقاليم فترة ساعة خلف الأسطول؛ لتأخذ من تأخر مِن الجنود.

النصيحة الخامسة: إذا كان عدد سفن الأسطول مائتيْن، يجب أن تتوزع على جناحين: فالجناح الأول المكون من مائة سفينة يقوم مع باشا (رودس) قبل السرب الثاني بيوم؛ لأن الموانئ كلها لا تتسع لمائتي سفينة. هذا كان نظامهم في القديم، والموانئ التي تسع مائتي سفينة قليلة، ويمكن الرسو في جميع جهات الجزر، وحيثما تهب الريح ينتقل هناك، أما السواحل البرية ليست كذلك.

النصيحة السادسة: وإذا أدرك ميناء في ساحل بلاد الروم أو شاطئ الأناضول بعد الخروج من بين الجزر، يجب الرسو في هذه الميناء. ولا يجوز تجاوزه بعد الظهر؛ لأنه إذا ترك هذا الميناء فهناك احتمالات كثيرة الهبوب الرياح، ويتأخر الأسطول إلى الليل يتعرض لمخاطر، ومن الخطأ عندئذ البيات في غير وسط البحر.

النصيحة السابعة: بعد الخروج من المضيق، يجب ألا يقوم الأسطول إلا بعد أداء صلاة الفجر.

النصحية الثامنة: يجب على رؤساء السفن وربابينهم أن يكونوا قد مارسوا الحملة إلى الجزائر والجولان في البحار والقرصنة لسنوات عديدة؛ لأن سير الأسطول أو وقفه متعلقان بهذه الممارسات.

النصحية التاسعة: يجب على جدافي سفن (باشتارده) عند سير الأسطول أن يجدفوا بنظام وبطء، مثلما يحرك النسر جناحيه، ولا يسرعوا مثل سفن البريد، ومن المشهور ما قاله ربابننا ردًّا على ما قاله ربابنة أسبانيا: إن سفنكم بطيئة غير سريعة، (إذا قالوا): إن سفننا لا تفلت الهارب، ولا تهرب من مطارديها.

النصحية العاشرة: لابد أن تسبق سفن حكام الأقاليم سفينة القيادة، وعلى سفينة القيادة ألا تقل حمولتها لزيادة سرعتها؛ لأنها لا تحتاج إلى السير بسرعة، وعليها ألا تسبق الحكام وإلا فكأنها تأذن بلسان حالها للجدافين الأسرى بأن يهربوا بالسفينة.

النصيحة الحادية عشرة: ويجب على الأسطول أن يقسم نفسه إلى قسمين عند التزييت، فعندما يتم القسم الأول يظل القسم الثاني في الحراسة، وبعد ذلك يتزيت القسم

الثاني. وذلك لكثرة تعرض سفننا لهجمات الأعداء عند تزييتها.

النصحية الثانية عشرة: وعلى الأسطول عندما يصل إلى (آواريف) أن يرسل سفينتين سريعتين إلى شواطئ الأعداء؛ لتلقي الأخبار والتجسس. وإذا علم أن أسطول العدو مجتمع في (مسينه)، فعلي أسطولنا أن يظل ويبذل جهده في حراسة شواطئنا.

النصحية الثالثة عشرة: إذا كانت مدينة خالية من أسطول الكفار، وأراد الربابنة أن يسافروا إلى سواحل الأعداء، أو أن يقتحموا البحر؛ عليهم أن يتخلوا عن خمس أو عشر قطع من السفن غير الصالحه في أوارثن. يعني يُخرج الجدافين والمقاتلين من السفينة، ويترك السفن الضعيفة هناك، ويختار من بين الجدافين والمقاتلين الأقوياء والقادرين منهم.

النصيحة الرابعة عشرة: وإذا لزم الخروج من أوارثن إلى البحر، يجب أن تملأ البراميل بالماء الذي يكفي لخمسة عشر يومًا، ويخرج من هناك بعد صلاة المغرب وتوصي رعايا أوارثن بأن يوقدوا نيرانًا في أماكن عالية يومًا وليلة دون انقطاع. فإذا ما قامت العاصفة، واضطر الأسطول للرجوع يهتدي بهذه الطريقة إلى الميناء. ويمكن أن يعين عليهم شخص يحملهم على هذا العمل.

النصيحة الخامسة عشرة: إذا أريد الخروج إلى أوسط البحار، يجب أن ينتبه رجال السفن بأن يوقدوا القناديل عند هبوب العواصف، أو يعلقوا قناديلَ عندهم في الليل؛ حتى لا تصطدم السفن بعضها ببعض.

النصيحة السادسة عشرة: يجب ألا تنتقل سفن الأسطول بين الجزر كثيرًا، بل تنتقل في ولايات بلاد الروم والأناضول؛ لأن الجزر ذات المياه الضحلة والأمواج متلاطمة التيارات، ولكل جزيرة تيارها وأمواجها الكثيرة. وقد غرقت هناك سفن كثيرة في فترة قصيرة، يقال إن ما بين الجزر مذابح السفن.

النصيحة السابعة عشرة: عندما يذهب الأسطول إلى سواحل الأناضول أو بلاد الروم، تترك بين الجزر عشر سفن خفيفة لحراستها. هكذا كان يتصرف الربابنة القدماء.

النصيحة الثامنة عشرة: إذا انتشر الضباب في أثناء سير الأسطول، وإذا ما صادف برًّا يجب أن يلجأ الأسطول إلى البر، وترسو السفن حالًا. وألا تتحرك السفن حتى ينقشع الضباب، أما إذا كانوا في وسط البحر فعلى الموسيقى العسكرية أن تعزف على جميع

السفن، وألا تسكت حتى ينقشع الضباب؛ حتى لا تتفرق السفن.

النصيحة التاسعة عشرة: على الربابنة والرؤساء أن يهتموا أعظم اهتمام بتلقي علوم البحار، وألا يغفلوا أبدًا عن البوصلة والخريطة. ويجب عليهم أن يكرموا العلماء في هذا المجال، ويعدوا لهم آذانًا صاغية، وبهذا يقبل الجهلاء على التعلم.

النصيحة العشرون: وعلى الربان أن يمنح الذين يدرسون هذا العلم مثلما كان يفعل درويش باشا، يصنع البوصلة والخريطة في الميدان، ثم يعين رجلًا يسمّى مصلي اووش ممتحنًا، ويأتي بالرؤساء والبحارة يمتحنهم في كيفية ربط السفن بالحبال إلى البر، وكان يكافئ من ينجح في هذه المهمة. وبهذا أقبل البحارة على تعلمهم مثل هذه الأشياء.

النصحية الحادية والعشرون: إذا صودف في البحر أسطول الكفار، وكان أسطولنا قريبًا من سواحل بلاد الروم أو سواحل الأناضول؛ ألا يحاول أسطولنا أن يهاجم أسطول العدو، بل يتظاهر بعدم الرؤية. أما إذا كانت سفننا في وسط البحر وكان الكفار على الشاطئ أو كانت الشواطئ شواطئ الكفار، أو كان الأسطولان في وسط البحر؛ ففي هذه الحالات الثلاثة يمكن أن تهاجم سفن الأعداء. وقد ذكرنا سبب ذلك في الجزء الخاص بالحرب في البحار.

النصيحة الثانية والعشرون: إذا كانت سفينة العدو من نوع قاليون، يلزم ألا يحاول الهجوم عليها رأسًا. بل يجب أن تضرب من بعيد حتى يحكم عمودها ودفتها، ثم يحمل عليها، أما إذا كانت الريح شديدة فيبسط الشراع الأمامي، ويتبع حتى تسكن الرياح، ثم يهاجم.

النصحية الرابعة والعشرون: على الربان القائد أن يتواجد على سفينته عند المعركة، ولا يغادرها لأي سبب كان. ويبعث أحد قادته لقيادة الجنود، وتجول الربان فوق البحر على قارب مخالفًا نظم المعارك البحرية. وفي نفس الوقت في غاية الخطورة.

النصحية الخامسة والعشرون: على الربان الباشا أن يقف في مكانه، ولا يرغب في الهجوم بنفسه على العدو. فإذا ما ذهبت الرأس، لا تبقى الأرجل. وكم من خسائر تعرضنا لها بمثل هذه التصرفات، فالأصلح للقادة أن يظلوا في أماكنهم.

النصيحة السادسة والعشرون: يجب أن يخرج من سفن الاقتحام مائة من الكفار، ويوضح مكانهم الأتراك، ويقضي على الجدافين الكفار الذين يخالفون الأوامر؛ لأن

كثيرًا ما استولى الجدافون المسخرون من الكفار على السفن، وهربوا بها.

النصحية السابعة والعشرون: يجب أن يكون جدافو السفينة مختلطين بالأتراك. فلقد كان الربابنة القدماء يختارون الجدافين الأقوياء، ويضعون على مجداف ثلاثة من أسرى الكفار، وثلاثة من الأتراك. ويجب أن يحترس كثيرًا من جدافي الكفار، وألا يستخدم في السفن التابعة لترسانة استانبول جدافين كفار مسخرين، بل يستخدم كفارًا من الرعية الآخرين. وقد يرضى الربابنة بوجود خمسين كافرًا في سفينة ما، والأفضل أن يجدف التركي على استطاعته، ولا يطمع في مهارة جدَّافي الكفار، والسفن التى استولى عليها الكفار الأسرى إلى يومنا هذا؛ لا تحصى ولا تعد.

النصيحة الثامنة والعشرون: عندما يخرج الأسطول إلى الخارج لابد أن ترسل سفن خفيفة للاستخبارات، وأن يهتم بهذا الأمر. وكان الربابنة يرسلون في الماضي السفن إلى سواحل الأعداء، والآن لم تعد حاجة إليه، فيتم هذا العمل بين الجزر.

النصحية التاسعة والعشرون: إذا ما تعرضت سفينة ما لإطلاق القنابل والرصاصات، واستشهد بعض الناس؛ يجب أن ينقلوا رأسًا إلى العنبر، ويُغَطّون، فإن عرضهم للناس وكونهم مكشوفين؛ فإن ذلك يؤدي إلى إثارة الخوف والبلبلة.

النصحية الثلاثون: إذا نجح في الاستيلاء على سفينة ما للعدو، يجب أولًا أن يبحث عن مدافعها. وإذا لزم الأمر يجب العمل على تعطيلها على الإطلاق. ويجب ألا يسرعوا لجمع الغنائم قبل أن يتم الاستيلاء على السفنية كاملًا.

النصحية الحادية والثلاثون: إذا ما تعرض جسم السفينة – الذي تحت الماء – إلى ضربة مدفع وفتحت ثغرة فيه، ولم يكن سدُّها سريعًا ممكنًا؛ عندئذ يلقون في البحر قطع قماش طويلة مثل المناشف أو وغير ذلك، إذ قد يجرفها التيار وتسد الثغرة المفتوحة، وقد نجت كثير من السفن بهذه الطريقة من الغرق.

النصيحة الثانية والثلاثون: يجب أن يكون رجال المدفعية مهرة في حرفتهم، وأن يعلّموا المبتدئين – حديثًا – الحرفة، ولابد من وجود مدفعي ماهر لكل مدفع في السفينة.

النصحية الثالثة والثلاثون: يجب أن يُجلى البادود، لما كان أكثر البارود آتيًا من مصر

فمن المستحسن أن يُجلى هناك، وقد أرسل أمر بهذا المعني في عهد صالح باشا. وطول مدافع الكفار اثنا عشر شبرًا. ومع ذلك يدفع القنابل إلى مسافة أبعد من مدافعنا ذات الأطوال ستة عشر شبرًا، وذلك بقوة البارود المجلو.

النصيحة الرابعة والثلاثون: يجب أن يُعنى بأعمال الدانات والأدوات، التي تستخدم لحرق أشرعة العدو مثل السهام، كما أنه يجب العناية بأمور الدفاع وأدواته.

النصيحة الخامسة والثلاثون: يجب ألا يرغب في تأجير الجنود المرتزقة ما دام هناك الجنود الأتراك الذين فتحوا البلاد منذ أقدم العهود. ويجب العناية بالطريقة المثلى في معاملة الجنود.

النصيحة السادسة والثلاثون: يجب على الكاليون ألا يذهب إلى الخارج مع الأسطول بعد إخراجه من المضيق، إنه يكون – عندئذٍ – أداة تعويق، ويضر أكثر مما ينفع.

النصيحة السابعة والثلاثون: يجب أن يكون الأسطول فوق البحر سريعًا وخفيفًا في حركاته، بهذا يمكن التغلب على الأعداء؛ لأن سفنهم التي تسير بالمجاريف لا تستطيع أن تفارق قاليوناتهم التي تسير بقوة الرياح وتجارينا، وأما سير القاليونات فمتوقف على الرياح.

النصيحة الثامنة والثلاثون: تقضي العناية بنهب جزر الخليج بناء القلاع على سواحل البلاد، وبهذا يمكن أن تفتح الثغرات في أسس دفاع الكفار.

النصيحة التاسعة والثلاثون: إذا أريد فتح حصون (الخليج) و(زادرا) يجب العمل على إعداد الوسائل التي تضمن ذلك؛ لأن فتح هذه الحصون ليس سهلًا، وإن فتح هذه الحصون يحتاج إلى نفس الجهود التي بذلها السلطان بايزيد عندما فتح قلعة (إينه بختي).

النصيحة الأربعون: يجب الاطلاع على أحداث حملات السلاطين القدماء وفتوحاتهم، كما يجب أن يحكي حملات الربابنة، ومعاركهم البحرية، وكل ما كتب في هذه الموضوعات؛ حتى تؤخذ منها العبر، وألا يغفل عن كل هذه الموضوعات، والسلام.

خاتمة الكتاب، وفذلكة الحساب

ملخص حول بعض الكلمات التي تقتضيها الأحوال والأزمنة

وإن كانت أفعال الله - سبحانه وتعالى - لا تعلل لأغراض إلا أنها لا تخلو من المصلحة والحكمة، كم من حكم خفية في كل عمل من الأعمال لا يستطيع أن يدركها العقل الإنساني.

إن جميع المخلوقات التي تعيش في عالم الماديات والمفارقات هذا؛ فهي مسحوقة تحت قدرة الله، وقوته؛ قد خلق الله في السموات وعلى الأرضين مخلوقات جديرة بالحياة فيها. إن وجه الأرض أوطان للأحياء التي تعيش على البر، وجعل الله الأرض وطنًا لكل مخلوق يتنفس. وليست ملكًا لأحد. والله - سبحانه وتعالى - المالك الحقيقي لهذا الكون. وكل المخلوقات التي تتحدث ولها لغة، والأخرى التي لا تتكلم مخلوقاته - سبحانه وتعالى - وعبيده. وقد رفع بعضهم فوق بعض درجات لحكمة ما.

وقد كتب على جبين كل واحد أكله وشربه وما ينقصه وما يكتمل عنده وحالاته الأخرى. من الإبرة إلى الفتلة والخيط، وحكم. وقد ميز بعض عباده وأعطهم ملكًا. كما أنه يحكم على بعض عباده بالفقر بعد الغنى، كما أنه - سبحانه وتعالى - ينقل عباده على وجه الأرض من مكان إلى آخر، من يستقر في مكان ما، ويغتر ويتكبر، فينقله من ذلك المكان، ويقرَّه في مكان آخر.

ولا يهتم الله - سبحانه وتعالى - بجحود الكفار وإنكاره لهم فيجعلهم فوق الآخرين حتى ينبههم. إذ أخذ بلاد الروم من يد الكفار وأعطاها للمؤمنين من عباده. كما أنه - سبحانه وتعالى - قد أخذ خراسان وإيران والعراق من يد أهل السنة والجماعة وأعطاها للرافضة. إن وجه الأرض مائدة الله المفتوحة.

ما الفرق بين الصديق والعدو في مائدة الغنائم هذه؟، وفقًا لمعنى هذين البيتين، يصنع الله - سبحانه وتعالى - في ملكه ما يشاء.

لا تستمر في الجدال فسيفه القاطع

لا يسأل عما يفعل (قد بت في الأمور)

إن الله – جل جلاله – جعل هذه الدنيا الأسباب، وقد أظهر ذلك لنا – عمليًّا – في كل ما يُبنى وينهار من المقدرات التي كتبت على حياة الناس من صنع الله – سبحانه وتعالى –، وأنه – سبحانه وتعالى – متصرف في الأمور من خلف ستار الغيب مباشرة، ويجلي لنا قدرته.

إن كل ما يتم في الدنيا من أعمال وأفعال وأوضاع ومواقف، ما هي إلا أثر من آثار قدرة الله تعالى الذي يفعل ما يشاء ويقدر عليه. وإن الله – سبحانه وتعالى – قد وهب للناس إرادة جزئية، عظمته وجوده وكرمه، وخلق أسبابها، وأوجد القوة والقدرة عندما أراد أن تتحقق الإرادة الجزئية قد بيّن الله – سبحانه وتعالى – أوامره الكريمة في أجزاء كثيرة من القرآن الكريم. الطرق السوية التي يجب أن نسلكها لنيل رغباتنا وندرك آمالنا، وإن الله – سبحانه وتعالى – أراد أن يحتفظ الناس بقوتهم البدنية؛ فأمرهم بالأكل والشرب كما جاء في سورة الأعراف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾[1] كما أمرنا بالعدل والإحسان؛ حتى يصلح المجتمع الإنساني، وأمرنا كذلك في حالة الحروب أن نكون مستعدين كما جاء في سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾[2].

وكل ما يلزم العبد أن يطيع أوامر الله – سبحانه وتعالى – العالية، وأن يبتعد عن الإهمال والنقصان. وعلى العبد أن يبذل كل جهد في تحقيق شيء، ثم يترك أسباب وجوده وتحققه إليه سبحانه وتعالى الذي يخلق الأسباب. إذا أراد أن يسببه ويحققه، وإذا لم يرد لا يخلق. ليس في يد العبد تحقيق آماله، ولكن عليه أن يبذل كل جهده لتحقيقها ثم يتركها جانبًا. وأما إذا أهمل العبد أسباب الأعمال مقصرًا في طرق السعي يكون قد خالف أوامر الله واستحق جزاءه وعتابه. ولذا يحذرنا الله – سبحانه وتعالى – من الإهمال والكسل بأن يسلط الله سبحانه وتعالى علينا أعداءنا، ويقلل ما في يدنا أو يسلبه كله. فإذا لم ننتبه لذلك متيقظين للعمل على كسب ما سلب منا، وبذل أقصى الجهود،

(1) سورة الأعراف، من الآية 31.

(2) سورة الأنفال، من الآية 60.

فيزيد عتاب الله – عندئذ – وجزاؤه كذلك، وتبرز أوضاع أخرى غير مرغوبة فيها.

ونعود إلى موضوعنا بعد هذه المقدمة:

إن هياج أعدائنا اليوم وبغيهم وشقاوتهم ضدنا ليست إلا لقلة الأموال، والفساد الذي عمّ جميع أمور الجيش والخزانة والرعبة، وعجزنا عن الاهتداء إلى الطريق الذي يؤدي إلى تصحيح هذه الأوضاع والتسيب في جميع أعمالنا. ويجب علينا أن نبدأ في القضاء على هذه العيوب عن طريق قويم، نلجأ إلى القوانين التي وضعها الأقدمون، وأن نطور هذه القوانين وننفذها. وإن المرحومين من علماء الأتراك العظام من مثل ابن كمال باشا وأبي السعود، قد اهتموا كثيرًا بتوفيق تلك القوانين إلى قوانين الشريعة الغرّاء، وذلك في عهود السلاطين الذين فتحوا هذه البلاد بقوة السيف والتدابير الصحيحة، وخاصة السلطان ياوز سليم، والسلطان سليمان خان، وبذلا كل جهدهما لإكمال تلك القوانين بالقضاء على ما فيها من نقص. إن أسس الدولة العثمانية هذه اكتسبت قوة ومتانة بهذه الجهود المبذولة، ولم تتزحزح إثر اهتزازات قوية أو ضعيفة، وظن الذين أتوا من بعدهم أن كل ما يعلمونه يمكن أن يكون قانونيًّا. أي نسي الوصول إلى الحلول عن طريق القوانين.

وإذا أردنا بعد الآن أن نسترد ما أضعناه، ونصحح ما فسد؛ فهذا متعلق بالعمل وفق ما ينص عليه هذا القانون القديم. وعلى السلطان ملجأ الناس، والذي أمده الله – سبحانه وتعالى – بعمر مديد إن أراد ينفذ هذه القوانين بسيف الشريعة وقانون السياسة باحثًا عن الحلول الصحيحة.

ألا فليساعده الله – سبحانه وتعالى – على تحقيق الآمال، آمين.

الكشافات

أولًا: كشاف أسماء الأشخاص

ثانيًا: كشاف أسماء الأماكن

أولًا: كشاف أسماء الأشخاص

ثانيا: كشاف أسماء الأماكن

فهرس المحتويات

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

القسم الخامس

القسم السادس

القسم السابع

القسم الثامن

القسم التاسع

الجزء الثاني

القسم السابع